



66

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

الإسلام والشعر

تأليف

د . سامي مكي العاني



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

66

الإسلام والشعر

تأليف

د. سامي مكي العاني



المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

مقدمه

إن النقلة التي أحدثها الإسلام في الحياة العربية، بكل جوانبها، كان لها أبلغ الأثر في الشعر العربي آنذاك.

ولا غرابة في ذلك، لأن الشعر هو التعبير عن مشاعر الناس، والتجسيد لأفكارهم.

وقد تمثل تأثير الإسلام في كل الفنون الشعرية التي كانت تسود عصر صدر الإسلام والدولة الأموية، وفي خصائص الشعر الفنية، من حيث الألفاظ والمعاني والأفكار والصور والأخيلة.

وكان الإسلام العامل الأول في ازدهار ذلك الشعر وتكامله، لا كما يشيع بعض الباحثين من ضآلة تأثير الإسلام في الشعر، أو إضعافه له.

ولا يمكن أن يتحدث الباحث عن هذا التأثير ما لم يقدم له بموقف الإسلام من الشعر. ومن هنا كانت دراستنا لموضوعي «القرآن والشعر» و«الرسول ﷺ والشعر». لأن القرآن والحديث هما مصدرا التشريع، والعروة الوثقى التي تمسك بها المسلمون على مر العصور.

فجعلنا دراستنا لتلك المواقف المدخل الطبيعي للولوج إلى الشعر في ظل الإسلام بعد ذلك، من حيث الأغراض أو الخصائص الفنية.

إن هذه الدراسة ليست أكثر من لبنة صغيرة إلى جانب لبنات كثيرة، وضعها الباحثون في هذا الميدان، وتكوّن منها صرح ثقافتنا العامة.

وقد يلحظ المختصون ما في هذه الدراسة من

نقص في بعض جوانبها، لأنها اعتمدت النصوص في كل نقاط هذا البحث.

وقد تغيب عن الباحث بعض تلك النصوص، أو لا يلتفت إليها، ويجدها غيره، فتتغير الأحكام، وتتبدل الآراء.

واسأل الله أن يلهمني الصواب، ويهديني سواء السبيل.

تمهيد

مكانة الشعر قبل الإسلام

قامت الحياة العربية قبل الإسلام على نظام القبيلة التي كانت تمثل الوحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وقد اقتضى هذا النظام القبلي من ينطق باسمه ويحميه، فكان الشاعر هو الذي يسجل مآثر قومه، ويذيع مفاخرهم، وينشر محا مدهم، ويخوف أعداءهم ويخذل خصومهم.

ومن هنا كانت أهمية الشاعر الذي يعبر عن وجهات نظرهم بأسلوب شعري، تتناقله الرواة، وتحفظه الحدأة، وضرورة شعره للحياة العربية آنذاك، بحيث صارت القبائل يهنئ بعضها بعضا إذا نبغ بينهم شاعر، وكانوا لا يهنئون إلا بثلاث: غلام يولد، أو شاعر ينبغ، أو فرس تنتج.

ومعروف أن هذه الثلاثة كانت مصادر قوة الحياة العربية.

قال ابن رشيق: كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمعت النساء يلعبن بالمظاهر كما يصنعون في الأعراس، ويباشر الرجال والولدان أنه حماية لأعراضهم، وذب عن حسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج[*1].

وكان الشعراء ألسنة قبائلهم، وذوي الرأي فيهم، يندبونهم عند الملمات، ويستعينون بهم وقت الشدائد، ويلجئون إليهم في الحروب، فقد ورد أن سعدا أرسل يوم (أرماث) إلى ذوي الكلام من رجال الشعر والنثر، يدعوهم إلى استخدام سلاح الحرب فحضر عنده خطباؤهم وشعراؤهم، مثل الشماخ والخطيئة، وأوس بن مغراء وعبدة بن الطبيب، وكلهم شعراء, فخاطبهم قائلا:

انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم، ويحق عليهم عند مواطن البأس.

فإنكم من العرب بالمكان الذي انتم به، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم، فسيروا في الناس، فذكروهم وحرضوهم على القتال، فساروا فيهم[*2].

والعرب تنشد الشعر للغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأمجاد، وسمائها الأجواد، لتهزّ نفوسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم.

ولولا خلال سنّها الشعر ما درى بغاة الندى من أين تؤتي المكارم[*3]

نعم كان الشعر ديوان فضائل العرب، وسجل مفاخرها، ووسيلة تخليد مآثرها ! يقول الجاحظ: فكل أمة تعتمد في استبقاء. مآثرها، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من-الأشكال، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها[*4]

ويقول ابن سلام: وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون[*5].

ويؤكد ابن قتيبة مهمة الشعر عند العرب حين يقول: وللعرب الشعر الذي أقامه الله مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعا، ولآدابها حافظا، ولأنسابها مقيداً، ولأخبارها ديوانا، لا على الدهر، ولا يبيد على مرّ الزمان، وحرسه بالوزن والقوافي وحسن النظم, وجوّدة التحبير من التدليس والتغيير[*6].

وكان الشعراء في الجاهلية بمنزلة الحكام، يقولون فيرضى قولهم، ويحكمون فيمضي حكمهم، وصار ذلك فيهم سنةّ يقتدي بها، وأثار يحتذي

عليها .

وكان العرب إذا أحوجوا إلى معرفة معنى حرف مستصعب، ولفظ نادر التمسوه في الشعر الذي هو ديوان لهم، متفّق عليه، مرضّى بحكمه، مجتمع على صحة معانيه وأحكام أصوله، محتجّ به على ما اختلف فيه من معاني الألفاظ وأصول اللغة[*7] .

ويفخر العرب بما وهبهم الله من الأشعار، ويعدّون ذلك من أبرز مفاخرهم، وأجلى محاسنهم، فعندما قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان بالعرب، وفضلهم على جميع الأمم، ولم يستثن فارس، ولا غيرها .

ومما قال: وأما حكمة ألسنتهم، فان الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم، وحسنه ووزنه وقوافيه، مع معرفتهم الأشياء، وضربهم للأمثال، وإبلاغهم في الصفات، ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس [*8] .

وكانوا يخافون لسان الشاعر ويتحامون هجاءه، ويبلغ من خوفهم من الهجاء ومن شدة السب عليهم، وتخوفهم أن يبقى ذكر ذلك في الأعقاب ويسب به الأحياء والأموات، أنهم إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق، وربما شدوا لسانه بتسعة، كما صنعوا بعبد الله بن وقاص الحارثي حين أسرته بنو تيم يوم الكلاب فقال:

أقول وقد شدوا لساني بنسعة

أمعشر تيم أطلقوا من لسانيا

في أبيات

وكان سألهم أن يطلقوا لسانه لينوح على نفسه، ففعلوا، فكان ينوح بهذه الأبيات، فلما أنشد قومه هذا الشعر، قال قيس: لبيك، وان كنت أخرتني[*9] .

ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء، وهذا من أول كرمها، كما بكى مخارق بن شهاب، وكما بكى علقمة بن علاقة، وكما بكى عبد الله بن جدعان من بيت لخداش بن زهير[*10] . ونهوا عن أن يتعرض أحد لشاعر، خشية لسانه، قالوا : لا ينبغي لعاقل أن يتعرض لشاعر، فربما كلمة جرت على لسانه، فصارت مثلا آخر الأبد[*11] .

ويروي المؤرخون أخبارا كثيرة عمن رفعهم الشعر في الجاهلية وعمن أزرى بمكانتهم. فممن رفعه الشعر بعد الخمول المحلق، وذلك أن الأعشى

قدم مكة، وتسامع الناس به، وكانت للمحلق امرأة عاقلة. وقيل: بل أم، فقالت له: إن الأعشى قدم، وهو رجل مفوه، محدود في الشعر، ما مدح أحدا إلا رفعه، ولا هجا أحدا إلا وضعه وأنت رجل-كما علمت 5 فقير خامل الذكر، ذو بنات، وعندنا لقحة نعيش بها، فلو سبقت الناس إليه، فدعوته إلى الضيافة ونحرت له، واحتلت لك فيما تشتري به شرابا يتعاطاه، لرجوت لك حسن العاقبة، فسبق إليه المحلق، أنزله ونحر له، ووجد المرأة قد خبزت خبزا، وأخرجت نحيا فيه سمن، وجاءت بطب لبن، فلما أكل الأعشى وأصحابه، وكان في عصابة قيسيه.. . سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه، وذكر البنات، فقال الأعشى: كفيت أمرهن. وأصبح في عكاظ ينشد قصيدته:

أرقت وما هذا السهاد المؤرق
وما بي من سقم وما بي معشق

ورأى المحلق اجتماع الناس، فوقف يستمع، وهو لا يدري أين يريد الأعشى بقوله، إلى أن سمع:

نفى الذم عن آل المحلق جفنة
كجابية الشيخ العراقي تفهق
ترى القوم فيها شارعين وبينهم
مع القوم ولدان من النسل دردق

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جريا يخطبون بناته، لمكان شعر الأعشى، فلم تمس منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف(*12).

وكان العرب ربما يلقبون بلقب فيغضبون منه، فيحسنه الشاعر بشعره فيستحسنونه بعد ذلك ويرضون به، من ذلك أن بنى جعفر ابن قريع كانوا يقال لهم: بنو أنف الناقة، وكان سبب ذلك أن قريعا أباه نحر جذورا فقسمه بين نسائه، فقالت أم جعفر وهي الشموس، لابنها جعفر: انطلق إلى أبيك فانظر هل بقى عنده شيء ؟ فأتاه فلم يجد عنده إلا رأس الجذور، فأخذ بأنفه وكان صبيا صغيرا، فجعل يجره فقيل له: ما هذا ؟ قال: أنف الناقة، فلقب بذلك، وكانوا يغضبون إذا قيل لهم بنو أنف الناقة، فلما مدحهم الخطيئة بقوله:

قـــوم هـــم الأنـــف والأذنـــاب غـــيـــرهـــم
ومـــن يـــســـوي بـــأنـــف الـــنـــاقـــة الـــذنـــبـــا

رضوا بذلك، وصار مدحا بعد أن كان هجاء[*13].

ولمكان الشعر من قلوب العرب، وسرعة ولوجه آذانهم، وتعلق أنفسهم به جعلوا بعض كلماته ألقابا لشعرائهم، يفخرون بها،

كالأسعر ومعود الحكماء، ومعود الفتيان، أو يتأذون منها كالهجف «الثقل»، وتأبط شرا، وعائد الكلب[*14].

وكان الشعر يرفع من مكانة الشاعر بين الناس، وينسى عيوبه في نظر السامعين.

فلما قال الحارث بن حلزة قصيدته التي فخر فيها لبكر على تغلب، والتي أولها:

آذنـــتـــنـــا بـــبـــيـــنـــهـــا أســـمـــاء
رب ثـــاو يمـــل مـــنـــه الـــثـــواء

ثم أتى الملك عمرو بن هند فأنشده إياها، وكان الحارث أبرص وكان الملك لا يملأ عينه من رجل به بلاء، فأنشده من وراء الستر، فلما سمعها الملك استخدم الطرب، وحمله السرور على أن أمر برفع الحجاب. وقيل كان بينه وبين الملك سبعة حجب، فما زال يرفعها حجابا فحجابا لحسن ما يسمع من شعره، حتى لم يبق بينهما حجاب، ثم أقعده على طعامه، وصيره في سماره[*15].

وقد انتشر الشعر بين الناس، فلا نكاد نجد بيتا من بيوت العرب إلا وفيه من ينظم الشعر أو ينشده، حتى قال ابن سلام: والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط. ثم قال: ولو قصدنا لذكر من لم يقل من الشعر إلا الشذ اليسير لذكرنا أكثر الناس[*16].

ويعد الشعر من أشرف الكلام عند العرب وأقدسه، كما قال ابن خلدون: اعلم أن فن الشعر بين الكلام كان شريفا عند العرب، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم، وشاهد ثوابهم وخطئهم، وأصلا يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم، وكان رؤساء العرب منافسين فيه، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده، وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل

البصر، لتمييز حوله (مقدرته) حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام، موضع حجهم، وبيت إبراهيم[*17].

وقضية تعليق الشعر بأستار الكعبة، وإن كانت مما ثارت حولها مناقشات طويلة، إلا أن إقرارها من قبل بعض العلماء يدل على المكانة السامية التي كان يحظى بها الشعر في ذلك العصر، وقد قال بهذا الرأي قبل ابن خلدون (ت 808 ه) الذي أثبتنا رأيه آنفا بعض العلماء الموثقين أيضا كابن عبد ربه الأندلسي (ت 327 هـ) وابن رشيق القيرواني (ت 463 هـ).

وثمة أخبار تدل على أن العرب كانوا يقدسون الشعر، ويعتقدون بأن هذا التقديس مستمد من أصله الديني، ولذا كانوا ينشدونه على موتاهم[*18].

ومما يؤكد هذه القدسية أيضا، انهم كانوا في بعض الأحوال لا ينشدونه إلا وهم على وضوء، كما فعلوا مع قصيدة المتلمس الميمية[*19] وكالخبر الذي يذكر أن الملك عمرو بن هند أمر الحارث بن حلزة ألا ينشد قصيدته المزية إلا متوضئا[*20].

وكانوا يتخذون فن الشعر وسيلة للتقرب إلى الله في موسم الحج، فيلبون بأشعار معينة، وهم يطوفون حول الكعبة.

وكان للشعر تأثير كبير في نفوس الناس ومشاعرهم، لما يستعملونه من كلام مؤثر ساحر، يترك أثرا خطيرا في نفس سامعه، ولهذا عدوا السحرة في جملة أوائل من كان ينظم الشعر من القدماء[*21].

وروى عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: كانت الشعراء عند العرب في الجاهلية بمنزلة الأنبياء في الأمم، حتى خالطهم أهل الحضر، فاكتسبوا بالشعر، فنزلوا عن رتبتهم[*22].

وكان الرجل لا يسمى الكامل إلا إذا كان يكتب، ويحسن الرمي ويحسن العلوم، ويقول الشعر[*23].

وكانوا يسمون الشاعر العالم والحكيم، حتى أن عمر بن الخطاب (رض) سأل كعب الأحبار: يا كعب هل تجد للشعراء ذكرا في التوراة ؟ فقال كعب: أجد في التوراة قوما من ولد إسماعيل، أناجيلهم في صدورهم، ينطقون بالحكمة، ويضربون الأمثال، لا نعلمهم إلا العرب. [*24] وهكذا جعل كعب الأشعار كالأناجيل لقدسيتها.

وكانت القبائل تحفظ أشعار شعرائها، ويرويها أبناؤها، ويدونونها

لأجيالهم التالية، فبنو تغلب كانت تحفظ قصيدة شاعرها عمرو بن كلثوم المعلقة، ويرويها كل أفراد قبيلتهم، صغارا وكبارا، يرددها الأخر عن الأول، حتى قيل فيهم:

ألهي بني تغلب عن كل مكرمة
قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبدا مذ كان أولهم
يا للرجال لشعر غير مشؤوم [*25]

ولم تقتصر العناية بالشعر على أقارب الشاعر وأبناء قبيلته، فقد عنى به الملوك أيضا، وأنزلوه مكانة رفيعة، فكان الملك إذا استجدت قصيدة الشاعر يقول: علقوا لنا هذه، لتكون في خزائنه[*26].

ويروي أن النعمان بن المنذر أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج (الكراريس) فكتبت له، ثم دفنها في قصره الأبيض، فلما كان المختار بن أبي عبيد الثقفي، قيل له: إن تحت القصر كنزا فاحتقره فأخرج تلك الأشعار، فمن ثم فأهل الكوفة أعلم بالأشعار من أهل البصرة[*27]

الحواشي

(*1) العمدة 1/ 65

(*2) الطبري ى 3/ 533

(*3) ديوان أبي تمام 255

(*4) الحيوان 1/ 71

(*5) طبقات الشعراء 1 / 24

(*6) تأويل مشكلة القرآن 14

(*7) الزينة 1/ 2 9 و83

(*8) العقد الفريد 1 / 101

(*9) البيان والتبيين 4 / 45 والنسعة: قطعة من سير يضفر على هيئة أعنة النعال، تشد به الرحال.

(*10) الحيوان 1 / 364

(*11) الممتع في علم الشعر وعمله 279

(*12) العمدة 1/ 48

(*13) الزينة 1/ 94

(*14) انظر معجم ألقاب الشعراء للمؤلف، حيث ورد فيه أكثر من سبعين شاعرا لقب ببيت شعر.

(*15) البرصان والعرجان 24 وانظر شرح القصائد السبع الطوال 369.

(*16) طبقات الشعراء 3.

(*17) المقدمة 535 و 547

(*18) انظر الفهرست 138.

(*19) المفصل في تاريخ العرب 9 / 69

(*20) شرح القصائد السبع الطوال 370

(*21) انظر المفصل في تاريخ العرب 69/9.

(*22) الزينة 95/1

(*23) ابن قتيبة 168.

(*24) العمدة 25/1.

(*25) الأغاني 9/ 368(طبعة بيروت).

(*26) العمدة 1 / 96

(*27) اللسان (طنج).

١ الشعر في فجر الإسلام

دعوى ضعف الشعر الإسلامي

يشيع بعض الباحثين من عرب ومستشرقين، فكرة ضعف الشعر العربي بعد الإسلام، ويرددون أحكاما وآراء أطلقها بعض النقاد في القرنين الثاني والثالث الهجريين، عندما قرروا ضعف الشعر بعد الإسلام، وانصراف الشعراء عن قوله، وبعد الناس عن الاهتمام بالشعر منذ إن نزلت الآيات الكريمة «والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون...».

وتناقلوا حديث الرسول (ص): لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحا ودما خير له من أن يمتلئ شعرا.

وقالوا: إن عمر بن الخطاب قال: كان الشعر علم قوم لم يكن علم أصح منه، فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته.

ورددوا قوله الأصعي: إن الشعر نكد بابه الشر.

وقولة ابن خلدون: انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم في أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك، وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا.[*١]

إن هذه ا لنصوص المبثوثة في كتب الأقدمين كان لها صدى دراسات المحدثين، فاستندوا إليها، وبنوا عليها نظر الشعر الإسلامي.

ويمكن إجمال ذلك الصدى في كتب المحدثين بالآتي:

ا-إن المسلمين شغلوا بالقرآن، وسكت شعراؤهم ليستمعوا إلى كلمة الله[*2] ذلك الصدى القوي الذي رن في أسماع العالمين بكنه الرسالة الجديدة وفلسفتها، كان جديرا بان يوقف أساليب القول والتفكير ألا في هذه الرسالة نفسها.[*3]

2- إن طريق الإسلام غير طريق الشعر، ومذهبه غير مذاهب الشعراء، فالشعراء إنما كان أكثر قولهم عصبية جاهلية وفخرا وحماسة بما بين قبائلهم من تنازع ومطاولة بالأنساب والاحتساب، وهجاء ومدحا باطلا، وهي مذاهب حاربها الإسلام.

وان الشعر نكد لا يقوى إلا في الشر، فإذا أدخلته في باب الخير لان.[*4]

3- إن بعض الشعراء شغلوا عن الشعر بالجهاد في سبيل الله.[*5]

4- إن النبي (ص) لم يهيئ لعامة الشعراء مكانا رحيبا في كنفه، لما كانوا عليه في شعرهم من مذاهب لا يقرها الدين، فكف بعضهما عن قول الشعر.[*6]

5- إن الضعف الذي يبدو على الشعر الإسلامي إنما كان بدأ في الحقيقة قبيل الإسلام لا بعده، كان قد انقضى عصر الفحول، ولم يبق إلا الأعشى الذي مات-كما تقول الرواية-وهو في طريقه إلى النبي (ص) ليمدحه، ويعلن إسلامه، ولبيد الذي كان قد بلغ الستين، أوشك أن يكف عن قول الشعر، ولم يبق عند ظهور الإسلام إلا شعراء مقلون، بعضهم مجيد في قصائد مفردة، ولكن لا يبلغون شاو هؤلاء الفحول.[*7]

ولتأكيد مقولة ضعف الشعر الإسلامي يورد هؤلاء الباحثون القول بأن شعر حسان بن ثابت لان وضعف في الإسلام، وان بعض الشعراء قد انصرفوا تماما عن قول الشعر بعد الإسلام، مت لبيد بن ص ربيعه.

وفي الجانب الأخر ظهر فريق من الباحثين، رفضوا القول بضعف الشعر الإسلامي، وأكدوا إن نهضة الشعر قد استمرت بعد الإسلام، إن لم تكن قد تقدمت خطوات، بما هيأ لها الإسلام من أسباب التقدم والنهوض.

فابن خلدون مثلا يفضل شعر الإسلاميين على شعر الجاهليين فيقول:

إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة قي البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين في من ثورهم ومنظوم هم ، فأنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعه والخطيئة.. . أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير. والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام من القرآن والحديث، اللذين عجز البشر عن الأعيان بمثلهما، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية، ممن لم يسمع هذه الطبقة، ولا نشا عليها، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم احسن ديباجة، وأصفى رونقا من أولئك، وارصف مبنى واعدل تثقيفا، بما استفادوا من الكلام العالي الطبقة.[*8]

وممن قال بنفي مقولة ضعف الشعر الإسلامي من المحدثين الدكتور عمر فروج[*9] والدكتورة بنت الشاطئ[*10] ونال ينو.[*11]

واتخذ بعض الباحثين طريقا وسطا بين القائلين بضعف الشعر الإسلامي، والقائلين بان الإسلام قد فجر طاقات الشعراء، وبعث الروح في أشعار تلك الفترة.

يقول الدكتور يوسف حليف: ولسنا ندعي أن القرآن صرف العرب جميعا عن قول الشعر، أو انه اخرس ألسنتهم حتى لم تعد تنطق به، وإنما الذي نقرره هو انه اضعف من سيطرته على المجتمع الأدبي الإسلامي، بعد أن كان هو اللون الأساسي في الحياة الأدبية الجاهلية. وإذا كان لبيد قد فكر في أن يحطم قيثارته فقد كان هناك غيره.. . احتفظوا بقيثاراتهم دون أن يحطموها.

إن الرجة الدينية والأدبية التي أثارها القرآن في نفوسهم وفي المجتمع الإسلامي من حولهم كادت تزلزل ل الأوتار في أيديهم، وتجعل الناس لا يجدون في فنهم تلك المتعة الآسرة التي كان القدماء يجدونها في الشعر القديم. أو على أقل تقدير لا يجدون في وقتهم ما يجعلهم ا يلتفتون حولهم ليستمعوا لهم كما كان أسلافهم يفعلون.[*12]

فأين الصواب في هذه الآراء ؟

أما أن القرآن قد حط من الشعر، وقلل من قيمته، فهذا غير صحيح، وقد عالجنا هذه المسألة في فصل «القرآن والشعر».

ونود أن نورد هنا التوجيه الطريف الذي ذهب إليه العسكري في آيات

الشعر والشعراء، حيث يقول: واستثناء الله عز وجل في أمر الشعراء يدل على أن المذموم من الشعر إنما هو العدول من جهة الصواب إلى الخطأ، والمصروف من وجهة الإنصاف والعدل إلي الظلم والجور، وإذا ارتفعت هذه الصفات ارتفع الذم.

ولو كان الذم لازما لكونه شعرا لما جاز أن يزول على حال من الأحوال.(13*)

أما حديث الرسولﷺ عن الشعر فقد استشهد به هؤلاء ناقصا، لأن السيدة عائشة رضي الله عنها رفضت هذه الرواية، وارتاعت لها عندما سمعتها، وقالت: لم يحفظ أبو هريرة (ض) إنما قال رسول الله (ص): لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحا ودما خير له من أن يمتلئ شعرا هجيت به. (14*)

ومن هذا الاستدراك يتضح جليا موقف الرسول (ص) من الشعر، فقد نهى عن لون معين منه، وعن موضوعات خاصة، لا تتعدى هجاءه الذي يعني هجاء الدعوة، أما فيما عدا ذلك فان الرسول (ص) اقر قول الشعر، وطلب من الشعراء أن يردوا على قريش، وينصروه بألسنتهم كما نصروه بأسلحتهم ، وسمح لهم بنظمه في معظم الأغراض الشعرية وقد فصلنا هذه المواقف في فصل «الرسو ل (ص) والشعر».

أما الحجج التي استند عليها المحدثون لتعليل القول بضعف الشعر الإسلامي فتقول:

ا-القول بانبهار الشعراء بالقرآن ومعاني الإسلام الجديدة. فنقول أن الإسلام لم يكن قد آتى مفاجأة بلا إرهاصات أو مقدمات دينية، وقد فاضت كتب السيرة والتاريخ في تعداد تلك الإرهاصات التي كانت تعم الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية.

وكانت الأشعار تمثل تلك الإرهاصات في أواخر العصر الجاهلي كشعر أمية بن أبى الصلة ولبيد وزهير وغيرهم من المتحفين.

ولا وجه للانبهار، فالمسلم همه أن يقتبس من القرآن في أفكاره وأسلوبه، وحقق ذلك فعلا، لا أن ينبهر به، ويتوقف عن الإبداع الشعري، وسبق أن أتثبتنا رأي ابن خلدون في هذه المسالة حين فضل شعر الإسلاميين على شعر الجاهليين بسبب سماعهم القرآن والحديث.

2- أما القول بان طريق الإسلام غير طريق الشعر، إلى آخر هذه الحجة، فنقول: إن الإسلام قد نهى عن بعض ألوان الشعر، وهي مع قلتها، فانه قد

أوجد بديلا عنها، وشجع كثيرا من الألوان الأخرى، ووجه بعضها الآخر كما هو موضح في اثر الإسلام في الأغراض الشعرية.

وغير صحيح أن الشعر نكد لا يقوى إلا في الشر.. . الخ موهوما ذهب إليه الأصمعي. ، وردده بعض، المحدثين، فهذا الرأي يخالف رأي النقاد الذين يجمعون على أن القوة والضعف مردهما إلي طبيعة الشاعر وموهبته، وصدق عاطفته، وكما تنفعل النفوس بعوامل الشر تنفعل بعوامل الخير، وقد يصل انفعالها بأسباب الخير أقصى درجاته، فيرتفع شعرها فيه إلى أسمى ذروا ته، وقد يكون انفعال الشاعر بحب الرسول (ص) مثلا اشد أقوى من انفعال شاعر بحب غادتا اللعوب.(*15)

3- وحجة انشغال المسلمين بالجهاد مردودة أيضا فالجهاد في سبيل الله والفتوحات الإسلامية اكثر الروافد التي أمدت الشعر الإسلامي بالمعاني الجديدة والأفكار البديعة والأغراض الطريفة.

ويجب أن نفرق بين العمل المادي الذي قد ينشغل عنه الإنسان بعمل آخر، وبين الانفعال الذي لا يمنعه مكان أو زمان، فحيثما انفعل الشاعر تفجرت قريحته وسال لسانه بكلمات الشعر.

4- أما أن النبي (ص) لم يهيئ للشعراء مكانا رحيبا في كنفه، فانصرف بعض الشعراء عن قول الشعر، فهو قول غير مقبول، من يتتبع مواقف رسول الله (ص) من الشعراء وتأييده الكبير لهم يعلم ما في هذا القول من بعد عن الحقيقة، ويكفى انه نصب لحسان منبرا ينشد من فوقه الشعر في مسجده وفي حياته. وانه زوجه من أخت زوجته ماريا القبطية، لا لشيء إلا لمواقفه الشعرية، وفيما أوردنا من إكرام رسول اللهﷺ للشعراء قولا وفعلا دليل يغنينا عن التفصيل في هذا الرد.

5- والقول بان الضعف قد بدأ قبل الإسلام فيه تعميم ، فحسان وكعب بن زهير ولبيد والعباس بن مر داس والخطيئة والهزليين وغيرهم من المخضرمين، ومن تلاهم في العصر الأموي من الفحول المعروفين، كلهم شاركوا في النهضة الشعرية التي امتدت بعد الإسلام ولم تنقطع أو تفتر.

أما إن شعر حسان قد ضعف وتراجع بعد الإسلام، لأن شيطانه قد تبدل ملكا، فهذا غير صحيح أيضا، لأن معظم النقاد يرون أن ما وجد في شعره من لين وضعف لم يكن في شعره الصحيح بل هو فيما وضع عليه من

إشعار.

قال الأصمعي مرة: حسان أحد فحول الشعراء، فقال أبو حاتم له إشعار لينة. فقال الأصمعي: تنسب له أشياء لا تصح عنه.[(16*)]

ومن يتعمق في ديوان حسان يجد أن فحولة شعره لم تفارقه في جاهليته وإسلامه، وفي فخامته وعذوبته، ولا شك في أن ما يظهر من لين وضعف في بعض إسلاميات ليس أصيلا في فنه، وإنما هو عارض، ساقته ظروف طارئة، أو منحول دس عليه لغرض ديني أو فكاهي. [(17*)]

ورأي الأصمعي الذي ردده معظم من قال بضعف شعر حسان بعد الإسلام إنما ينبع من ولعه بالغريب، الذي جعله مقياسا لقوة الشعر وضعفه، وهو مقياس شخصي قد لا يوافقه عليه الكثير من النقاد.

ولبيد الذي يستشهدون به على ترك الشعر بسبب الإسلام لم ينصرف عن قول الشعر بعد الإسلام، ومن يتصفح ديوانه يجد له إسلاميات كثيرة، فكيف قال انه هجر الشعر بعد إسلامه وفي ديوانه قصيدته الإسلامية:

قضى الأمور أنجز الموعود

والله ربى ماجد محمود

وقصيدته التي فيها:

إنما يحفظ التقى الأبرار

والى الله يستقر القرار[(18*)]

وحتى الخبر الذي رووه وهو كتابة عمر (رض) إلى المغيرة بن شعبة والى الكوفة أن يستنشد من قبله من شعراء الكوفة ما قالوه في الإسلام، وجواب لبيد بأن كتب سورة البقرة، وقوله: أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر. [(19*)] الذي علق عليه الدكتور طه حسين بقوله: وأكبر ظني أن لبيدا أعرض عن الشعر في الإسلام، فلم يتخذه صناعة، ولم يكثر من إنشائه وإنشاده، وانصرف عنه إلى القرآن، ولكنه قال في الإسلام غير بيت [(20*)].

حتى هذه الحادثة-لو صحت-لما أمكننا تعميمها على كل شعراء صدر الإسلام، فهي حادثة فردية، لم تتكرر مع غير ه من الشعراء في ذلك العصر.

وفي الخبر نفسه ما يثبت أهمية الشعر في تلك الفترة، وإلا لما طلب الخليفة عمر (رض) من واليه أن يوافيه بما قال الشعراء بعد الإسلام.

ومما سبق نخلص إلى بطلان دعوى ضعف الشعر الإسلامي، ونؤكد أن ما استند إليه القائلون بهذه الدعوى يرجع إلى قلة اطلاعهم على النصوص الشعرية أو إلي تقليد مقولة الأقدمين، أو تحميل بعض نصوص القرآن أو الحديث، أو النقاد القدامى، اكثر مما تحتمل، وتوجيهها إلي غير ما أيريد منها.

الحواشي

(*1) المقدمة574

(*2) د. ألبه بيتي-تاريخ الشعر العربي 113

(*3) الشكة الأدب في موكب الحضارة الإسلامية 1 9. ومحمد إبراهيم جمعة-حسان بن ثابت 17.

(*4) د. درويش حسان بن ثابت-77- وانظر د. خفاجي-الحياة الأدبية في عصر صدر الا سلام 163

(*5) م. ن 77

(*6)م. ن

(*7) د. عبد القادر القط في الشعر الإسلامي والأموي ص 13

(*8) المقدمة 544

(*9) تاريخ الأدب العربي 1/ 257

(*10) قيم جديدة للأدب العربي 66

(*11) تاريخ الآداب العربية 104

(*12) حياة الشعر في الكوفة 656

(*13) الصناعتين 132

(*14) الإجابة لإيراد ما استدرجته عائشة على الصحابة 67.

(*15) انظر حسان بن ثابت 505

(*16) الاستيعاب 1/ 338

(*17) حسان بن ثابت 37

(*18) الديوان 46 و 79 وانظر 44 و95 و 26 1 و 139

(*19) الأغاني 4 1 / 94 وخزانة الأدب 2/215

(*20) حديث الأربعاء 1/ 46.

2 الصراع الشعري بين مكة والمدينة

حين اشتد الصراع بين الإسلام والكفر، وانقسم العرب إلى فريقين، فريق تفتحت قلوبهم للإسلام، وعقولهم للاستنارة بهداه، وفريق صدوا عن سبيله، وأصروا على الكفر به، جرد كل فريق ما يملك لمحاربة الفريق الآخر.

وطبيعي أن يشارك الشعر في هذا الصراع، وان يواكبه في جميع مراحله، فوقف فريق من الشعراء إلى جانب الرسولﷺ، وفريق آخر.إلى جانب قريش.

ولم يشهر سلاح الشعر خلال الفترة المكية، لان المسلمين كانوا آنذاك أفرادا قلائل، وليسوا معسكرا يهدد قريشا.

وعندما انتقل الرسولﷺ إلى المدينة، وقامت للإسلام دولة، شعرت قريش بما يهدد مركزها من خطر، فلم تبق وسيلة لمحاربة الإسلام إلا سلكتها، ولا سلاحا إلا شهرته، و بدأت شاعريتها تستيقظ وتقوى، بعد أن كانت قليلة الشعر في جاهليتها، خاملة الذكر فيه.

قال ابن سلام: والذي قلل شعر قريش انه لم

يكن بينهم نائرة، ولم يحاربوا.[1*]

لكن عدواتها للإسلام حلت من عقد ألسنة أبنائها، ومحاربتها له أنطقتهم بالشعر، فبرز منهم شعراء لم يعرفوا بالشعر قبل الإسلام، كأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم الرسولﷺ، وأخيه في الرضاعة، بقي في صفوف المشركين، يدافع عنهم، ويحرضهم على الإسلام والمسلمين، ويؤذي الرسولﷺ ويهجوه، والى ذلك يشير حسان بن ثابت في قصيدته المشهورة:

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء حتى تم فتح مكة، فلقي أبو سفيان وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة رسول اللهﷺ يعيق العقاب، فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة فيهما، فقالت: يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك وصهرك، قال: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال.

فلما خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبي سفيان ابن له، فقال: والله ليأذن لي أو لأخذن بيدي بني هذا، ثم لنذهب في الأرض حتى نموت عطشا وجوعا.

فلما بلغ ذلك رسول اللهﷺ رق لهما، ثم أذن لهما، فدخلا عليه فأسلما.[2*]

وله أشعار كثيرة في هجاء الإسلام والرد على شعرائه كحسان وكعب.[3*]

ومنهم عبد الله بن الزبعري السهمي القرشي ، كان من اشد الناس على رسول اللهﷺ، وعلى أصحابه ، بلسانه ونفسه، وكان اشعر قريش وابلغها، ومن أشعاره الكثيرة في محاربة الإسلام

قوله في غزوة أحد:[4*]

كم قتلنا من كريم سيد

ماجد الجدين مقدام بطل

صادق النجدة قري بارع

غير ملتات لدى وقع الأسل

إلى أن يقول:

فقتلنا الضعف من أشرافهم

وعدلنا ميل بدر فاعتدل

لا ألــــوم الـــــنــــفــــس إلا أنــــنــــا

لــو كــررنــا لــفــعــلــنــا المــفــتــعــل

ولما فتح المسلمون مكة لم يطق البقاء فيها، وهرب إلى نجران، فرماه حسان ببيت واحد، ما زاده عليه، وهو:

لا تــعــدمــن رجــلا احــلــك بــغــضــه

نجــران فــي عــيــش احــذ لــئــيــم

فلما بلغ ذلك ابن الزبعري خرج إلى رسول الله (ص) فأسلم واعتذر إلى الرسول، فقبل عذره، فنظم اكثر من قصيدة اعتذاريه، منها قوله:

يــا رســول المــلــيــك إن لــســانــي

راتــق مــا فــتــقــت إذ أنــا بــور

إذا أبــاري الــشــيــطــان فــي ســنن الــغــي

ومــن مــال مــيــلــه مــثــبــور

آمــن الــلــحــم والــعــظــام لــربــي

ثــم قــلــبــي الــشــهــيــد أنــت الــنــذيــر(*5)

ومنهم ضرار بن الخطاب الفهرس، من شعراء قريش المعدودين وفرسانها الشجعان، قاتل المسلمين في الوقائع اشد القتال، وكان يقول: زوجت عشرة من أصحاب النبي (ص) بالحور العين ثم في الفتح.

وكان يقول لأبي بكر: نحن خير لقريش منكم، أدخلناهم الجنة، وانتم أدخلتموهم النار.

ومن شعره في محاربة المسلمين:

كــأنــهــم إذا صــالــوا وصــلــنــا

بــبــاب الخــنــدقــين مــصــافــحــونــا

أنــاس لا نــرى فــيــهــم رشــيــدا

وقــد قــالــوا ألــســنــا راشــديــن(*6)

والحارث بن هشام بن المغيرة، أخو أبي جهل، حارب المسلمين بسيفه ولسانه، ومن شعره قصيدة توعد فيها محمدا (ص) بعد قتل أخيه أبى جهل، منها:

فــيــال لــؤي دبــبــوا عــن حــريمــكــم

وآلــهــة لا تــتــركــوهــا لــذي الــفــخــر

تـــوارثـــهـــا آبـــاؤكـــم وورثـــتـــم
أواسـيـهـا والـبـيـت ذا الـسـقـف والـسـتـر
فـمـا لحـلـيـم قـد أراد هـلاكـكـم
فـلا تـعـذروه آل غـالـب مـن عـذر
وجـدوا لمـن عـاديـتـم وتـوازوا
وكـونـوا جـمـيـعـا فـي الـتـأسـي وفـي الـصـبـر
لـعـلـكـم أن تـثـأروا بـأخـيـكـم
ولاشـيء إن لـم تـثـأروا بـذوي عـمـرو(*7)

حتى إذا تم فتح مكة استأمنت له أم هانئ بنت أبى طالب النبي (ص)، فأمنه وصفح عنه، ومنهم هريرة بن أبى وهب المخزومي، وأبو عزة الجمحي، وعمرو بن العاصي وأبو سفيان بن حرب، وقد رويت لهم أشعار في المعارك الكلامية التي كانت تدور بين مكة والمدينة.

ودخل هذه المعركة إلى جانب قريش بعض الشعراء الذين لم يكونوا من مكة ولا يثرب، ومن هؤلاء أمية بن أبى الصلة، وهو من تثقيف كان يتوقع ظهور رسول بين العرب، وكان يتمنى أن ينزل عليه الوحي، ولما نزل على محمدﷺ حقد عليه وعلى المسلمين، وراح يحرض قريشا على حرب المسلمين، ورثى قريشا بقصائد تفيض حقدا وانفعالا ضد المسلمين، حتى قيل: أن الرسولﷺ نهى عن روايتها.

والعباس بن مر داس السلمي، من سليم بن منصور، وكان فارسا شجاعا، وقف في صف المشركين حيث مدح بني النضير حين أجلاهم الرسول، وتأسف لذلك، واظهر ألمه في قصيدة مطلعا:(*8)

لـو أن أهـل الـدار لـم يـتـصـدعـوا
رأيـت خـلال الـدار مـلـهـى ومـلـعـبـا

وناقض الشعراء المسلمين الذين هجوا اليهود، ومرد ذلك الموقف إلى علاقته التجارية، ومصالحه الخاصة المرتبطة باليهود.

كما آزر قريشا كعب بن زهير من مزينة بسبب إسلام أخيه بجير، وقصته في ذلك معروفة أوردناها في موضع آخر من هذا الكتاب.

وقد روت كتب التاريخ والسيرة لهؤلاء الشعراء الكثير من القصائد التي كانوا يهجون بها الرسول والدين، وينالون منه ومن اتباعه ودعوته اشد النيل

وأقساه.

وآزر يهود يثرب قريشا في حربها ضد المسلمين، ووقف شعراؤهم إلى جانب شعراء قريش، يحرضون العرب ويؤو لبونهم على رسول الله، وكان المفروض آن يقفوا إلى جانب رسول الله ويعترفوا برسالته، لأنهم أصحاب كتاب سماوي مثله، ولكن حقدهم وطبيعة أخلاقهم، جعلهم يؤيدون الكفر والشرك ضد الإيمان والتوحيد.

ومن شعرائهم الذين حاربوا الإسلام، وهجوا رسول الله سلام ابن أبى الحفيف، وأضاف كعب بن الأشراف إلى هجاء الإسلام التشبيب بنساء المسلمين.

وكان جبل بن جوال ممن بكى بني النضير وبنى قريظة وهجا المسلمين في مثل قوله:

ألا يا سعد سعد بني معاذ
لما لقيت قرية والنضير
وأقفرت البويرة من سلام
وسعية وابن أخطب فهي بور
وقد كانوا ببلدتهم ثقالا
كما ثقلت بميطان الصخور
وجدنا المجد قد ثبتوا عليه
بمجد لا تغيبه البدور
أقيموا يا سراة الأوس فيها
كأنكم من المجزاة عور
تركتم قدركم لا شيء فيها
وقدر القوم حامية تفور(*9)

فانبرى له حسان بن ثابت يسفه قوله، ويعيب على اليهود نصرهم لقريش المشركة، أصحاب كتاب فقال:

تفاقد معشر نصروا قريشا
وليس لهم ببلدتهم نصير
هم أوتوا الكتاب فضيعوه
وهم عمي من التوراة بور

كفرتم بالقرآن وقد أتيتم
بتصديق الذي قال النذير(*10)

وقد كان للنساء دور بارز في هذه المعارك الشعرية، فشاركن فيها بالبكاء على القتلى، وبالتحريض على الانتقام، وبالتشفي حين يقتل رجال الأعداء.

ظهر منهن إلى جانب قريش هند بنت عتبة بن ربيعه، ومن شعرها قولها شامتة بقتل حمزة (رض):

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لي من صبر
ولا أخي وعمه وبكري
شفيت نفسي وقضيت نذري
شفيت وحشي غليل صدري(*11)

ومنهن قتيلة بنت الحارث التي بكت أخاها النضر، وعاتبت رسول اللهﷺ ألانه لم يمن عليه ويطلقه.(*12)

وصفية بنت مسافر التي بكت أهل القلب الذين أصيبوا يوم بدر من قريش.(*13) ومن الشاعر المسلمات ميمونة بنت عبد الله التي ردت على كعب ابن الأشرف في تحريضه على الرسول، وبكائه قتلى قريش.(*14)

وصفية بنت عبد المطلب التي بكت أخاها حمزة بن عبد المطلب (ر ض) بأبيات تفيض لوعة وحزنا، ونعت فيه شمائل الإسلام(*15) وهند بنت أثاثة التي رثت عبيده بن الحارث حين استشهد من مصابه ببدر، وناقضت هند بنت عتبة حين أعلنت تشفيها بقتل مسلمي أحد.(*16)

وكان رسول اللهﷺ من وراء الشعراء المسلمين، يؤيدهم ويشد أزرهم، ويوجههم إلى ما يوافق الإسلام، ويرد عن المسلمين هجاء المشركين وأذاهم.

لقد كان يدرك اثر الشعر في تلك المعارك، وتأثيره في نفوس العرب، فحث شعراءه على هجاء الكافرين، والتصدي لهم، ليشفي صدور المسلمين، ويرفع عن كواهلهم ما يثقلها من تلك الأشعار، فكان يقول لهم: قولوا لهم مثل ما يقولون لكم.(*17) وقد فصلنا الحديث عن اتخاذ رسول الله الشعر سلاحا في المعركة في فصل (الرسول والشعر).

وهكذا وقف شعراء الإسلام يذبون عن دينهم سهام أشعار المشركين

وأذاهم، وطالما توجهوا بأشعارهم من يثرب إلى المشركين في مكة، ولذلك تكررت لفظة (أبلغ) و (من مبلغ) في مطالع قصائدهم، لبعد المشركين عنهم، ولطبيعة الجدل والحجاج التي سيطرت على شعراء تلك الفترة.

فحين هاجر بنو جحش إلى المدينة، عدا أبو سفيان بن حرب على دارهم في مكة فباعها، فقال عبد الله بن جحش(*18):

أبـــلـــغ أبـــا ســـفـــيـــان عـــن

أمـــر عـــواقـــبـــه نـــدامـــة

دار ابـــن عـــمـــك بـــعـــتـــهـــا

تـــقـــضـــي بـــهـــا عـــنـــك الـــغـــرامـــة

وقال كعب بن مالك في أحد (*19):

أبـــلـــغ قـــريـــشـــا عـــلـــى نـــأيـــهـــا

أتـــفـــخـــر مـــنـــا بمـــا لـــم تـــلـــي ؟

ونتيجة هذا الصراع الشعري تبلور فن النقائض التي وجدت بذرتها الأولى قبل الإسلام بين شعراء هزيل وبين شعراء الأوس والخزرج وغيرهم من الشعراء الجاهليين.

فكان ينقض شاعر ما قاله شاعر أخر، بعض ما جاء به الأول، ملتزما البحر والقافية والروي الذي اختاره الشاعر الأول.

لقد اتخذ الصراع بين شعراء مكة والمدينة في اكثر الأحيان صورة المناقضات الشعرية، وفي بعض الأحيان صورة المراجزات.

وقد تميزت المناقضات الإسلامية بسمو الموضوعات التي عالجتها، ونبل الغاية التي قصدت إليها، فموضوعاتها هي الإسلام ودعوته، وغايتها إخراج الناس من الظلومات إلى النور، ومن ضيق الكفر إلى سعة الإسلام.

أما معاني تلك المناقضات فكانت على نوعين:

إسلامية جديدة، كالإيمان والكفر، والجنة والنار، والوحي والملائكة، وأخرى قريبة من المعاني الجاهلية، تعالج المآثر والحساب، والمثالب والأيام، والتهديد والوعيد.

ومما يلاحظ إن الشعراء المسلمين لم يلتزموا بجميع القيود التي فرضت في العصر الأموي، حيث وصل فن النقائض إلى أوج كماله، وإنما كان يلتزم الشاعر أن يقول في موضوع الشاعر الذي يناقضه نفسه، وقافيته وبحره،

أما الروي فلم يكن يلتزم به، وكذلك لم يكن يلتزم بنقض معاني القصيدة، الواحد تلو الآخر، وإنما كان يكتفي بمحاولة نقض المعاني العامة التي ترد في قصيدة شاعر قريش.

ومعظم تلك النقائض ظهرت في ظل الأيام الإسلامية، وأبرز شعراء المسلمين الذين شاركوا في تلك النقائض هم حسان وكعب بن مالك .

أما شعراء قريش فهم أبو سفيان بن حرب وعمرو بن العاص وهبيرة بن أبي وهب وضرار بن الخطاب. ومعروف إن أهم ما يعتمد عليه الشاعر في نقائضه نقض المعاني التي ترد في قصيدة الشاعر الآخر، وهناك عدة طرق يسلكها الشاعر للوصول إلى هذا الغرض، منها التكذيب والمقابلة والقلب والتوجيه والوعيد والشماتة.

وقد سلك الشعراء المسلمون جميع هذه الطرق، مع غلبة عنصر الوعيد، لأنه اكثر تلك الطرق تأثيرا في المشركين.

وهكذا كان هذا الصراع سببا في تفجر شاعري قريش، وظهور اكثر من جهة ساندت قريشا ضد معسكر المسلمين، كشعراء القبائل وشعراء اليهود، وكان للمرأة دور بارز في تلك المعارك الكلامية، وأخيرا فقد أسفر هذا الصراع عن تبلور فن النقائض الشعرية وازدهار بذورها الصغيرة التي كانت موجودة قبل الإسلام.

الحواشي

(*1) طبقات الشعراء 217. والنائرة: الحقد والعداوة.

(*2) ابن هشام 2/ 400

(*3) انظر ابن هشام 2/ 212 و 227

(*4) م.ن

(*5) م ن 2/418

(*6) ابن هشام 2/ 255

(*7) م. ن 2/10

(*8) ابن هشام 2/ 200

(*9) ابن هشام 2/ 272

(*10) ديوان حسان 194

(*11) ابن هشام 2/ 90

(*12) انظر ابن هشام 2/ 42

(*13) م. ن 2/ 40

(*14) م. ن 2/52

(*15) م. ن 2/ 167

(*16) م. ن 2/41 و 91

(*17) العقد الفريد 9/ 145

(*18) ابن هشام 1/ 500

(*19) الديوان 254.

3 القرآن والشعر

لو تتبعنا لفظة الشعر أو الشعراء في القران الكريم لوجدنا أنها وردت في ستة مواضع.

في خمسة منها يحكى القرآن ما حاول كفار قريش أن يلصقوه برسول اللهﷺ اتهامات باطلة، وصفات طائشة كاذبة.

فبعد أن استمعوا إلى آياته، أحسوا بروعة بيانه، وبما له من تأثير في العقول، وسيطرة على النفوس.

وراحوا يتخبطون في وصفه، ولم يثبتوا على صفة معينة ينعتون بها من نزل عليه القرآن .

وحاولوا أن يعللوا أثره المزلزل في النفوس، ولكنهم عجزوا فبدءوا يتنقلون من ادعاء إلى ادعاء، وفي تعليل إلى تعليل آخر، حائرين غير مستقرين. «بل قالوا أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر، فليأتنا بآية-كما-أرسل الأولون».[*1]

ورد القرآن على هذه الافتراءات التي حاول المشركون أن يفسروا الوحي فنفي ما ادعوه من وصف النبي بأنه شاعر، ووصف القرآن الذي نزل عليه بأنه شعر.

«وما علمناه الشعر، وما ينبغي له، أن هو إلا ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين»[*2] يعني أن القرآن هو كلام الله-

عز وجل-، وهو الحق الذي لا يشوبه باطل، والصدق الذي لا يخالطه كذب، حكمة بالغة منزهة عن قول الشعراء.(3*)

وما كان ليخفى على كبراء قريش، وهم أئمة القول والبيان، إن الأمر ليس كذلك، وإن ما جاءهم به محمد-صلى الله عليه وسلم-قول غير معهود في لغتهم، وما كانوا من الغفلة بحيث لا يفرقون بين القرآن والشعر.

فحين قال المشركون للوليد بن المغيرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم : نقول إنه كاهن. قال: والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو-بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول مجنون. قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه ، وقريضه ومقبوضه وبسيطه، فما هو بالشعر. (4*)

وقد روي في إسلام أبي ذر الغفاري أنه قال له أخوه أنيس، وكان شاعرا: لقد لقيت رجلا على دينك، يزعم أن الله قد أرسله، يسمونه الصابي، قال أبو ذر: ما يقول الناس؟ يزعمون أنه كاذب، وأنه ساحر، وأنه شاعر، وقد سمعت قوله،-والله ما هو بقولهم، وقد سمعت قولهم، و والله أنى لأراه صادقا.(5*)

وفي رواية: لقد وضعت قوله على إقراء الشعر(قوافيه) فلا يلتئم على لسان أحد، أي على طرق الشعر وبحوره.(6*)

فوصف الرسول بالشعر إنما كان طرفا من حرب الدعاية التي شنوها على الدين الجديد وصاحبه في أوساط الجماهير، معتمدين فيها على جمال النسق القرآني المؤثر، الذي قد يجعل الجماهير تخلط بينه وبين الشعر إذا وجهت هذا التوجيه.(7*)

وهكذا جاءت لفظة الشعر هنا في معرض نفي ادعاء المشركين. ونفى لياقته برسول الله-صلى الله عليه وسلم-لاختلاف منهجه عن منهج النبوة.

ووردت هذه اللفظة في موضع آخر في القرآن على لسان المشركين أيضا، حين تقولوا على رسول الله فنعتوه-بلا بينة-بالشعر والجنون «ويقولون أئن تاركو آلهتنا لشاعر مجنون، بل جاء بالحق وصدق ا لمرسلين».(8*)

ووصفوه بالشعر مرة أخرى أيضا «أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون». (9*) ويأتي رد القرآن حاسما على هذه النخر صات وتلك التقولات،

فينفي عن القرآن شبهة الشعر التي أثاروها «فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون، انه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون».[(*10)]

إن هذه الآيات التي أوردناها إنما جاءت لتصور موقف المشركين إزاء القرآن وتأثيره في النفوس، ثم للرد على تفسيراتهم، ولتأكيد إن القرآن وحي من الله تنزل به الروح الأمين على قلب محمد صلي الله عليه وسلم، فجميعها إذن مسوقة لتنزيه الرسول-صلى الله عليه وسلم-عن إن يكون من الشعراء، ولإبطال زعم المشركين إن القرآن من قبيل الشعر كما أوضح جميع المفسرين.

إن القرآن لم يتحدث في هذه الآيات عن الشعر من حيث هو فن من القول يجوز للمسلم أن يتعاطاه أو يحرم ذلك عليه، وإنما أورد لفظة الشعر أو الشاعر للتعريف بنفسه، وللتفريق بينه وبين الشعر فحسب.

ومن واديه تماما، تأكيد القرآن لأمية محمد-صلى الله عليه وسلم-دفعا للاتهام بأنه قرأ الكتب السماوية، ونسج على غراها ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك، إذا لارتاب المبطلون﴾[(*11)] ولم تعن أمية الرسول، وتقرير القرآن لهذه الأمية إن الدين الإسلامي يحض على الأمية، ويكره العلم.[(*12)]

وموقف الإسلام من تشجيع العلم معروف لا يحتاج إلى تفصيل.

أما الوضع الذي تناول فيه القرآن كلمة الشعر من حيث هو فن يمكن أن يستخدم في مواطن الخير أو الشر، فقد جاء ذلك في قوله تعالى: «والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيرا، وانتصروا من بعد ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».[(*13)]

إن القرآن لم يحارب الشعر لذاته في هذه الأحكام، وإنما حارب المنهج الذي سار عليه الشعر والشعراء، منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها، ومنهج الأحلام المفهومة التي تشغل أصحابها عن تحقيقها.[(*14)]

لذلك جاء وصف الشعراء في القسم الأول من هذه الأحكام بأنهم يجاريهم ويسلك مسلكهم ، ويكون في جملتهم الغاوون الضالون عن سنن الحق، الحائرون فيما يأتون ويذرون، ولا يستمرون على وتيرة واحدة في الأفعال والأقوال، وانهم في كل لغو يخوضون «ألم تر أ نهم في كل واد

يهيمون» وفي كل فن ينظمون، وهم يعملون خيالهم في كل الموضوعات بدون تمييز.

قال الحسن البصري: قد والله رأينا أوديتهما التي يخوضون فيها، مرة في شتيمة فلان، ومرة في مديحه فلان.

وقال مقتادة: الشاعر يمدح قوما بباطل، ويذم قوما بباطل «وانهم يقولون ما لا يفعلون» فهم يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر عنهم ، فيتكاثرون بما ليس لهم.

ولهذا اختلف العلماء فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حدا، هل يقام عليه الحد بهذا الاعتراف أم لا ؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون.

وقد روي إن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-استعمل النعمان ابن عدي على ميسان من ارض البصرة، وكان يقول الشعر، فقال:

من مبلغ الحسناء إن خليلها
بميسان يسقى في زجاج وحنتم
إذا شئت عنتني دهاقين قرية
وصناجة تجثو على كل منسم
فان كنت ندمان فبالأكبر اسقني
ولا تسقني بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوئه
تنادمنا في الجوسق المتهدم (15*)

فلما بلغ ذلك الخليفة عمر قال: أي والله أني ليسويني ذلك.

ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته، وكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل الكتاب من العزيز العليم . غافر الذنب، وقابل التوبة. شديد العقاب. ذي الطول. لا اله إلا هو. إليه المصير.

أما بعد: فقد بلغني قولك:

لعل أمير المؤمنين يسوؤه
تنادمنا في الجو سق المتهدم
وأيم الله. انه ليسوؤني وقد عزلتك.

فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر. فقال: والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط. وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني.

فقال عمر: أظن ذلك، ولكن والله لا تعمل لي عملا أبدا، وقد قلت ما قلت، فلم يذكر انه حده على الشراب مع تصريحه بذلك في شعره، لأن الشعراء يقولون ما لا يفعلون.(*16)

وقيل: إن هذه الآية نزلت في شعراء المشركين عبد الله بن الزبعري، وهبيرة بن أبى وهب، ومسا فع بن عبد مناف، وأبى عزة اجمحي، وأمية بن أبى الصلت قالوا: نحن نقول مثل قول محمد، وكانوا يهجونه، ويجتمع إليهم الأعراب، يستمعون إلى أشعارهم وأهاجيهم، ولذلك فهم الغاوون الذين يتبعونهم .(*17)

وبعد أن ينتهي القرآن من تقرير هذه الصفات للشعراء المشركين ومن والاهم، يعود ليستثني الشعراء المؤمنين الصالحين، فبعد أن نزلت «والشعراء يتبعهم الغاوون» توجه حسان بن ثابت وعبد الله ابن رواحه وكعب بن مالك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يبكون. قالوا: قد علم الله حين انزل هذه الآية، أنا شعرا، فتلا النبي-صلى الله عليه وسلم-: «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» قال: انتم. «وذكروا الله كثيرا» قال: انتم. «وانتصروا من بعد ما ظلموا» قال: انتم.(*18)

ويمكن أن ينسحب حكم هؤلاء الثلاثة على كل من كان على صفتهم التي وصفهم الله بها.

وأوضح الزمخشري المرادين بهذه الصفات فقال: هم المؤمنون الصالحون الذين يكثرون ذكر الله، وتلاوة القرآن وكان ذلك اغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعرا قالوه في توحيد الله والثناء عليه، والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة، ومدح الرسول-صلى الله عليه وسلم-والصحابة و صل حاء الأمة، وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون فيها بذنب ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم(*19)، وليس لمصلحتهم الذاتية وأهوائهم الشخصية، ولا انتصارا لقبائلهم أو جنسهم ، وإنما هو انتصار للحق وللقيم التي ينبغي أن يسخروا لها قابلي اتهم ويجندوا أقلامهم ، فالمؤمن من يجاهد بسيفه ولسانه.

وبعد هذا العرض يمكن أن نستنتج أن القرآن قد ميز بين فريقين من الشعراء.

فريق استغل فنه فيما ينافي هدى الدين وآدابه، فهو الفريق المعيب

الذي حاربه القرآن، وفريق اتجه بشعره إلى العمل الخير الجميل، والى نصرة الحق أنى وجد، فهو الفريق الذي أخرجه من ذلك الوصف العام، وأيده بكل قوة.

فالقضية إذن فيما يتناول الشعراء من المعاني والأغراض، وليست في الشعر ذاته، لأنه سلاح ذو حدين. قال الرسول صلى الله عليه وسلم : إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه. (*20)

الحواشي

(*1) سورة الأنبياء آية 5

(*2) سورة يس آية 69- 70

(*3) الزينة في الكلمات الإسلامية 1/ 98.

(*4) الروض الأنف 1/ 173

(*5) الإصابة في تمييز الصحابة 1/ 88

(*6) لسان العرب. مادة (قرأ)

(*7) في ظلال القرآن 23/ 4 3

(*8) سورة الصافات: آية 36 و 37

(*9) سورة الطور: آية 29 ر 31

(*10) سورة الحاقة: آية 39 و 42

(*11) سورة العنكبوت: آية 48

(*12) قيم جديدة: 68

(*13) سورة الشعراء: آية 4 22- 272.

(*14) انظر في ظلال القرآن 19/ 120

(*15) حنيتم آنية خضر من نوع جيد من الفحا. ألده قان: رئيس الفلاحين بين الأعاجم وتستعمل بمعنى الماهر الحاذق. المنسم: القدم الجوسق: القصر.

(*16) طبقات ابن سعد 4 ق 1/103

(*17) تفسير الكشاف 2/ 440

(*18) تفسير ابن كثير 3/ 352

(*19) الكشاف 2 / 441

(*20) العمدة 1/ 27

4 الرسول ﷺ والشعر

ولد الرسول ﷺ في الجزيرة العربية، ونشأ وترعرع بين قوم يعدون الشعر ديوان فضائلهم، وسجل مفاخرهم، ووسيلة تخليد مآثرهم، قوم يعشقون الكلمة الحلوة، ويطربون لسماع اللحن العذب، ويقيمون الأسواق والمواسم تحقيقا لمتعة سماع الشعر.

فهو لهم جبلة فطروا عليها، وسجية متأصلة في نفوسهم، يولد معهم ويعيش في داخلهم ويجري على ألسنتهم، فلا غرو أن يقول هذا الرسول صلى الله عليه وسلم: لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين. (*1)

ومن هنا كان تأثر محمد-صلى الله عليه وسلم بالشعر، وعنايته به،-واستماعه له، شأنه في ذلك شأن أي عربي آخر، إذ لا تناقض بين الرسالة وبشرية الرسول من حيث استجابته للشعر (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلى).

وقد كان قبل النبوة يحضر مع والدته سوق عكاظ ليسمع الشعر، فقد روى انه سمع الشاعر عمرو بن كلثوم وهو بعكاظ ينشد معلقته المشهورة. (*2)

وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي: كان الشعر

احب إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام .[3*]

ولذلك كان أدق فهما، واكثر إدراكا لمقاصد الشعراء فقد روى السكري أن النبي-صلى الله عليه وسلم-لما سمع قول كعب بن زهير:

وجـنـاء فـي جـرتـيـهـا لـلـبـصـيـر بـهـا

عـتـق مـبـين وفـي الخـديـن تـسـهـيـل

قال لأصحابه: ما جرتاها ؟ فقال بعضهم : العينان. وسكت بعضهم . فقال النبي: هما أذناها، نسبهما إلى الكرم.[4*]

وكان يتوق إلى معرفة كيفية جريان الشعر على لسان الشعراء، ولذلك نراه يسأل شاعرة عبد الله بن رواحه: ما الشعر؟ فيجيبه ابن رواحه: شيء يختلج في صدر الرجل، فيخرجه على لسانه شعرا .[5*]

الأحاديث النبوية عن الشعر والشعراء:

وقد وصل إلينا كثير من الأحاديث النبوية، يتحدث فيها النبي عن الشعر والشعراء، من ذلك قوله: «إن من البيان لسحرا، وان من الشعر لحكما» تعليقا على أبيات العلاء بن الحضرمي التي قال فيها:

وحـي ذوي الأضـغـان تـسـب قـلـوبـهـم

تحـيـتـك الحـسـنـى فـقـد يـرقـع الـنـعـل

فـان دحـسـوا بـالـكـره فـاعـف تـكـرمـا

وان اخـنـسـوا عـنـك الحـديـث فـلا تـسـل

فـان الـذي يـؤذيـك مـنـه اسـتـمـاعـه

وإن الـذي قـالـوا وراءك لـم يـقـل [6*]

وفي تعليق رسول الله-صلى الله عليه وسلم-إعجاب بحكمة الشاعر، وإقرار بسحر بيانه، وتوضيح لتأثير الشعر وأسره.

وقد روي الحديث بصورة أخرى تعطي الشعر قيمة توضيحية لمواطن استعمال الكلمات، فقد روي «إن من الشعر لحكمة، فإذا ألبس عليكم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر، فانه عربي».[7*]

وثمة حديث يبين منزلة الشعر، حيث يقول: الشعر بمنزلة الكلام، حسنه كحسن الكلام، وقبيحة كقبيح الكلام.[8*]

وانطلاقا من هذا الحديث وصلت إلينا اكثر من حادثة تبين سنة رسولﷺ م-حين كان يرى خروج الشعراء. على القيم والمفاهيم الإسلامية الجديدة،

أو أي عودة منهم إلى ما كانوا عليه. من قيم ومفاهيم الجاهلية، حيث كان ينكر عليهم ذلك، ويوجههم نحو الصحيح من القول، والحسن من الكلام، بمقياس إسلامي جديد.

فعندما يسمع كعب بن مالك يقول:

مدافعنا عن جذ منا كل فخمة

مدربة فيها القوانس تلمع

ينكر عليه اتجاهه نحو العصبية القبلية، التي هي من آثار الجاهلية، ويطلب إليه أن يبدل كلمة (جذمنا) بكلمة (ديننا)، ويفعل ذلك كعب، وينشرح صدره فرحا هذه الملاحظة القيمة .[(9*)]-

وحين يفد النابغة الجعدي وينشده قوله:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا

وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

ويحس النبي صلى الله عليه وسلم بتوجه الشاعر نحو الأسلوب الجاهلي في الفخر، يقول له: إلى أين يا أبا يعلي ؟ فيقول النابغة: إلى الجنة. فيقول له النبي مغتبطا بهذه الروح الجديدة: إن شاء الله.[(10*)]

ولما انشده ابن رواحة قوله

فخبروني أثمان العباء متى

كنتم بطاريق أو دانت لكم مضر

قال ابن رواحة: فكأني عرفت في وجه رسول الله-صلى الله عليه وسلم- الكراهية، إن جعلت قومه أثمان العباء, فقلت على الفور:

نجالد الناس عن عرض فنأسرهم

فينا النبي وفينا تنزل الصور[(11*)]

فعاد رسول اللهﷺ -إلى طبيعته ورضاه.

ولما انشد كعب بن زهير أميته المشهورة ووصل إلى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به

مهند من سيوف الهند مسلول

قال له: من سيوف الله. فأصلحها كعب.[(12*)]

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة على أسلوب توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم-لشعرائه، لينسجموا في ألفاظهم وأساليبهم مع الإسلام، وننتقل

إلى لون آخر من توجيهاته لهم ، حيث كان يوجه شعراء الهجاء إلى أسلوب يجنبهم تعميم الهجاء على قوم المهجو وقبيلته، ويجعلهم يلتزمون الدقة فيما يقولون حيث يقول لهم:-

إن اعظم الناس عند الله فرية لرجل هاجي رجلا فهجا القبيلة بأسرها.(*13)

ويقول لهم في توجيه آخر شبيه بهذا التوجيه: اعظم الناس فرية اثنان، شاعر يهجو القبيلة بأسرها ، ورجل انتفى من أبيه.(*14)

ومن الألوان الأخرى لتوجيهاته شعراء الإسلام عندما كان يجيد هؤلاء الشعراء في قولهم ويحسنون في منطقهم، يجد ذلك صداه عند الرسول- صلى الله عليه وسلم، ويعبر لهم عن استحسانه، بأساليب مختلفة، فحين انشده النابغة الجعدي قوله:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له
بوادر تحمى صفوه إن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له
حليم إذا ما أورد الأمر اصدرا

دعا له بالخير بعد أن استجد قوله فقال له: أجدت، لا يفضض الله فاك. ويقال: انه عاش مائة وثلاثين سنة لم تفضض له سن.(*15)

وينشده كعب بن مالك قوله:

جاءت سكينة كي تغالب ربها
فليغلبن مغالب الغلاب

فيستحسن منه ذلك، ويقول له: لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا.(*16)

وفي رواية: يا كعب، ما نسي ربك، أو ما كان نسيا بيتا قلته، قال كعب: وما هو يا رسول الله ؟ فقال: انشد يا أبا بكر، فانشده البيت السابق.(*17)

وجاء رجل من بني ليث، فقال: ألا أنشدك ؟ قال: لا.

فانشده بعد الرابعة مدحك له، فقال: إن كان أحد من الشعراء أحسن فقد أحسنت(*18).

وقال الشاعر ضرار بن الأزور: أتيت النبي ﷺ، فأنشدته:

خلعت القداح وعزف القيان والخمر اشربها والثمالا

وكري المجبر في غمرة وجهدي على المشركين القتالا

وقالت جميلة بددتنا وطرحت اهلك شتى شمالا

فيا رب لا أغبن صفقة فقد بعت أهلي ومالي بدالا

فقال النبيﷺ-: ربح البيع. وقيل: ما غبنت صفقتك يا ضرار.[(19*)]

وقال ابن حبيب: أنشدت رسول الله-ﷺ-قول سحيم عبد بني الحسحاس

الحمد لله حمدا لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوع

فقال: احسن وصدق. وان الله ليشكر مثل هذا، وان سدد وقارب انه لمن أهل الجنة.[(20*)]

ولم يقتصر استحسان الرسول على أشعار المسلمين، بل تجاوزها إلى ما كان أمامه من أشعار الجاهليين التي تتفق ومثل ومبادئ الإسلام. فحين أنشد منشد قول سويد بن عامر المصطلي أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لا تأمن وان أمسيت في حرم إن المنايا بجنبي كل إنسان

فكل ذي صاحب يوما يفارقه وكل زاد وإن أبقيته فان

قال الرسولﷺ-: لو أدرك هذا الإسلام لأسلم .[(21*)]

وقال الحسن البصري: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: كلمة نبي ألقيت على لسان شاعر: إن القرين بالمقارن مقتدى.[(22*)]

يريد البيت الذي صدره: عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه. وجاء عنه صلى الله عليه وسلم انه قال: اشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد. وفي رواية: اصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: الألا كل شيء ماخلا الله باطل.[(23*)]

وكان يعجب بقول عنترة:

ولــقــد أبــيــت عــلــى الــطــوى و أظــلــه

حــتــى أنــال بــه كــريم المــأكــل

حتى انه جسد إعجابه بهذا الشاعر الجاهلي البطل بأن قال: ما وصف لي إعرابي قط، فأحببت أن أراه إلا عنترة.[(*24)]

وعندما انشد لديه قول أمية بن أبى الصلت:

زحــل وثــور تحــت رجــل يمــيــنــه

والــنــسـر لــلأخــرى ولــيــث يــرصــد

قال: صدق، هكذا صفة حملة العرش.[(*25)]

وكثيرا ما كان يقول للسيدة عائشة رضي الله عنها: ما فعل بيتك ؟ أو بيت اليهودي ؟ فتقول:

وقد علل العلماء امتناع رسول الله عن قول الشعر ونظمه، بأنه لنفي الظنية التي حاول المشركون إلصاقها به.

قال الخليفة المأمون لأبي علي المنقري: بلغني انك أمي، وأنك لا تقيم الشعر، وانك تلحن في كلامك. فقال: يا أمير المؤمنين، أما اللحن فربما سبقني لساني بالشيء منه، والأمية وكسر الشعر فقد كان النبي أميا، وكان لا ينشد الشعر.

قال المأمون: سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني فيك عيبا رابعا، وهو الجهل، يا جاهل إن ذلك في النبي فضيلة، وفيك وفي أمثالك نقيصة وإنما منع ذلك النبي لنفي الظنية عنه، لا لعيب في الشعر والكتابة، وقد قال الله تعالى: وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك، إذا لارتاب المبطلون.[(*26)]

وعلله آخرون بأن الشعر ضرب من الملاهي التي لا تصلح لرسول الله (ص). قال السيوطي: إن علماء العروض مجمعون على انه لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع، إلا إن صناعة الإيقاع تقسيم الزمان بالنغم ، وصناعة العروض تقسيم الزمان بالحروف المسموعة، فلما كان الشعر ذا ميزان يناسب الإيقاع، والإيقاع ضرب من الملاهي، لم يصلح ذلك لرسول اللهﷺ: ما أنا من بدد، ولا ألدد مني.[(*27)]

وتجسيدا لكل ذلك نجد الرسولﷺ إذا أراد التمثل بالشعر رواه مكسورا،

فحينما أتاه العباس بن مرداس قال له: أنت القائل ؟

فـأصـبـح نـهـبـي ونـهـب الـعـبـيـد

بـين الأقـرع وعـيـيـنـة

فقال أبو بكر: بين عيينة والأقرع، فقال الرسولﷺ: هما واحد، فقال أبو بكر: اشهد انك كما قال الله: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له».(*28)

وكما مر بنا في إنشاده بيت طرفة وبيت عبد بني الحسحاس مكسورين أيضا.

وقد يكتفي بذكر الكلمة أو الكلمتين من البيت، ليتمه الشاعر بعده، فحين استأذنه عبد الله بن رواحة في هجاء أبى سفيان بن الحارث، قال له: أنت الذي تقول: فثبت الله ؟ قال عبد الله: نعم، يا رسول الله، أنا الذي أقول:

فـثـبـت الـلـه مـا أعـطـاك مـن حـسـن

تـثـبـيـت مـوسـى ونـصـرا كـالـذي نـصـروا

فقال له: وأنت فعل بك مثل ذلك. ثم وثب كعب بن مالك فقال يا رسول الله، ائذن لي، فقال أنت الذي تقول: همت ؟ قال: نعم يا رسول الله، أنا الذي أقول:

هـمـت سـخـيـنـة أن تـغـالـب ربـهـا

ولـيـغـلـبـن مـغـالـب الـغـلاب

فقال: إن الله لم ينس ذلك لك.(*29)

أو قد يكتفي بشطر واحد من البيت، روى انه قال: اصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

ثم سكت عن عجز البيت.(*30)

أو قد يطلب ممن يحضره أن يروي الشعر الذي يريد، فحين بلغه أن قوما نالوا أبا بكر بألسنتهم ، صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس ليس أحد منكم أمن علي في ذات يده ونفسه من أبى بكر، كلكم قال لي كذبت. وقال لي أبو بكر صدقت، فلو كنت متخذا خليلا، لاتخذت أبا بكر خليلا. ث التفت إلى حسان فقال: هات ما قلت في وفي أبى بكر، فقال حسان: قلت يا رسول الله:

إذا تذكرت شجوا من أخي ثقة

فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا إلى آخر الأبيات.

فقال رسول اللهﷺ: صدقت يا حسان، دعوا لي صاحبي. قالها ثلاثا.[*31]

وقالت السيدة عائشة: كان رسول الله كثيرا ما يقول:

ما فعلت أبياتك فأقول: أي أبياتي تريد، فإنها كثيرة ؟

فيقول: في الشكر فأقول: نعم بأبي أمي. قال الشاعر:

ارفع ضعيفك لا يحربك ضعفه

يوما فتدركه عواقب ما جنى

إلى آخر الأبيات.[*32]

وكان الرسولﷺ يختزن في ذاكرته بعضا من أشعار الجاهليين التي تدعو إلى الفضائل، ويتذكرها حين تنشد إمامه. فقد جاء عن أبى وداعة قوله: رأيت رسول اللهﷺ وأبا بكر عند باب، فمر رجل وهو يقول:

يا أيها الرجل المحول رحله

ألا نزلت بآل عبد الدار

هبلتك أمك لو نزلت برحلهم

منعوك من عدم ومن إقتار

فالتفت رسول الله إلى أبي بكر قائلا: أهكذا قال ؟ قال أبو بكر: لا والذي بعثك بالحق، ولكنه قال:

يا أيها الرجل المحول رحله

آلا نزلت بآل عبد مناف

هبلتك أمك لو نزلت برحلهم

منعوك من عدم ومن اقراف

الخالطين فقيرهم بغنيهم

حتى يعود فقيرهم كالكافي [*33]

وقد تحكي هذه الرواية أخذ رسول الله، صحابته بالتدريب على رواية الشعر ومعرفتهم صحيحه من غيره.

ولم يجر على لسان رسول الله مما صح وزنه إلا البيت من الرجز المنهوك والمشطور، فقد ورد في كتب الحديث انه قال:

أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبد المطلب

وارجاز أخرى في بناء مسجد المدينة، وفي حفر الخندق (*34) ومعروف أن الرجز ليس شعرا، بل هو وزن كأوزان السجع، ومنزلته بين الشعر والنثر، وان الشطرين منه كالشطر من الشعر، حتى أن الخليل لم يعد المشطور منه شعرا[*35]

إباحة الرسول نظم الشعر، وسماعه له:

أباح رسول الله للشعراء نظم الشعر، واستحسن منهم ! ذلك، فكان يجالسهم ويصغي إليهم، ويستمع إلى ما ينشدون من أشعارهم أو يروون من أشعار الجاهليين.

قال جابر بن سمرة: جالست النبي [*36] اكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية، وهو ساكت فربما تبسم معهم[*37] وكان يستنشد الصحابة أشعار الجاهليين، ويستمع معهم إلى ذلك فقد روي انه جلس في مجلس من الخزرج، فاستنشدهم شعر قيس بن الخطيم ، فأنشدوه بعض شعره.[*38]

ولم ير بأسا في أن يمتدحه الشعراء، لأنهم في مدحه إنما كانوا يجسدون المبادئ التي جاء بها.

قال حريم بن أوس الطائي: قدمت على رسول الله (ص) منصرفا من تبوك فسمعت العباس عمه يقول: يا رسول الله، أني أريد أن امتدحك.

فقال النبي (ص): قل لا يفضض الله فاك، فأنشأ يقول:

من قبلها طبت في الظلال وفي

مستودع حيث يخصف الورق

في أبيات طويلة.[*39]

وقد وافق على أن ينظم الشعراء مواعظه وأحاديثه شعرا، تسهيلا لحفظها، وطالما استأذنه الشعراء في ذلك، فأذن لهم واستمع إلى أشعارهم بعد نظمها.

روت السيدة عائشة قائلة: قال رسول اللهﷺ لأصحابه: إنما مثل أحدكم ومثل ماله ومثل عمله ومثل أهله كمثل رجل له ثلاثة اخوة فقال لأخيه الذي هو ماله حين حضره الموت: قد نزل بي ما ترى فما عندك ؟ قال: مالك عندي غنى، ولا نفع إلا ما دمت حيا، فان فارقتني ذهب بي إلى غيرك.

فالتفت النبيﷺ فقال:

أي أخ ترونه ؟ قالوا : ما نرى طائلا . قال: ثم التفت لأخيه الذي هو أهله . فذكر نحوه فقال: أقوم عليك فأمرضك، فإذا مت غسلتك، وكفنتك وحملتك ودفنتك، ثم ارجع فأخبر عنك من سأل. قال: فأي أخ هذا ؟ قالوا : ما نرى طائلا .

ثم قال لأخيه الذي هو عمله نحوه فقال: اتبعك إلى قبرك وأقيم معك، وأونس وحشتك، واقعد في كفنك فلا أفارقك. قال: فأي أخ هذا ؟ قالوا : خير أخ.

قال فقام عبد الله بن كرز الليثي فقال: أي رسول الله، أتأذن لي أن أقول على هذا شعرا ؟ فقال هذا شعرا؟ فقال: نعم. قال: فبات ليلته، وغدا فقام على رأس رسول اللهﷺ، فقال:

إنـــي ومـــالـــي والـــذي قـــدمـــت يـــدي
كـــراع إلـــيـــه صـــحـــبـــة ثـــم قـــائـــل
لأصـــحـــابـــه اذهـــم ثـــلاثـــة أخـــوة
أعـــيـــنـــوا عـــلـــى أمـــري الـــذي بـــي نـــازل

الأبيات

قال: فما بقي عند النبيﷺ ذو عين تطرف إلا دمعت عيناه.(*40)

وقال قيس بن عاصم : وفدت مع جماعة من بني تميم ، فدخلت على رسول اللهﷺ، وعنده الصلصال بن ألد لهمس. فقلت: يا رسول الله عظنا عظة ننتفع بها، فوعظنا موعظة حسنة. فقلت: احب أن يكون هذا الكلام أبياتا من الشعر، نفتخر به على من يلينا وندخرها نعلمها أولادنا فأمر من يأتيه بحسان.

فقال الصلصال: يا رسول الله قد حضرتن أبيات احسبها توافق ما أراد قيس. فقال: هاتها . فقال:

تجـنـب خـلـيـطـا مـن مـقـالـك إنمـا
قرين الفتى في إنما القبر ما كان يفعل
ولا بـــد بـــعـــد المـوت مـــن أن تـــعـــده
لـيـوم يـنـادى المـرء فـيـه فـيـقـبـل
وان كـنـت مـشـغـولا بـشـيء فـلا تـكـن
بـغـيـر الـذي يـرضـى بـه الـلـه تـشـغـل

ولـن يـصـحـب الإنـسـان مـن قـبـل مـوتـه
ومـن بـعـده إلا الـذي كـان يـعـمـل
ألا إنمـا الإنـسـان ضـيـف لأهـلـه
يـقـيـم قـلـيـلا بـيـنـهـم ثـم يـرحـل(*41)

وكان الرسولﷺ يستعين بسماع الشعر على قطع المسافات في السفر، فيطلب من يحدو وينشده، وهو يستمع إليه بكل جوارحه مطربا.

كان في ليلة على سفر، فقال: أين حسان؟ فقال حسان: لبيك يا رسول الله، وساعديك. قال: أحد. فجعل حسان ينشد والنبي يصغي إليه، فما زال يستمع له وهو يسوق راحلته حتى كاد رأس الراحلة يمس الورك، طربا لنشيده، فلما فرغ، قال له الرسول: لهذا اشد عليهم من وقع النبل.(*42)

وكان يوما في مسير له، فقال لسلما بن ألا كوع: انزل فهات من هناتك.(*43) فنزل سلمة يرتجز ويقول:

لـم يـغـذهـا مـد ولا نـصـيـف
ولا تمـرات ولا تـع جـيـف(*44)
لـكـن عـزاهـا الـلـبن الخـريـف
المحـض والـقـارص والـصـرف(*45)

وروى عمرو بن الشريد عن أبيه قال: رادفت وراء النبي ﷺ، فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم . قال: هيا فأنشدته بيتا، قال: هيا. حتى أنشدته مائة بيت، فقال، لقد كاد يسلم في شعره.(*46)

وسمع رسول الله ﷺ يوما جارية لحسان بن ثابت تغني بالشعر وتلهو، فتبسم ولم ير حرجا في ذلك.(*47)

الاستشفاع بالشعر بين يدي الرسولﷺ:

وعرف الشعراء ما للشعر من تأثير في نفس الرسولﷺ وقلبه، فاتخذوا منه وسيلة يستشفعون بها عنده، وكان يستجيب لهم، فينصر مستنصر هم ويغيث مستغيث هم ، ويثقب من معتذرهم، ويرق لمتألمهم.

فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على قبيلة خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول اللهﷺ من العهد والميثاق، بما استحلوا من خزاعة وكانت في عقده وعهده، خرج عمرو بن سالم الخز اعي، حتى قدم على رسول اللهﷺ وكان ذلك مما هاج فتح مكة، فوقف

عليه، وهو جالس في المسجد بين ظاهراني الناس، فقال:-

يـــا رب إنـــي نـــاشـــد مـــحـــمـــدا
حـــلـــف أبـــيـــنـــا وأبـــيـــه الأتـــلـــد
قـــد كـــنـــتـــم ولـــدا وكـــنـــا والـــدا
ثـــمـــت أســـلـــمـــنـــا فـــلـــم نـــنـــزع يـــدا
فـــانـــصـــر هـــداك الـــلـــه نـــصـــرا اعـــتـــدا
وادع عـــبـــاد الـــلـــه يـــأتـــوا مـــددا

فاستجاب له رسول الله، وقال: نصرت يا عمرو بن سالم ، وفي رواية: لبيك لبيك ثلاثا. ثم عرض لرسول اللهﷺ سحاب من السماء، فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب.(*48)

ومن صور الاستغاثة ما روي عن عبد الله بن الأعور ألما زني انه كانت له زوجة يقال لها: معاذه، وحين خرج يميز أهله من هجر هربت زوجته ناشزا، وعاذت برجل يقال له مطرق، فجعلها خلف ظهره، فلما قدم زوجها لم يجدها في بيته واخبر أنها نشرت وعاذت بمطرق بن نهصل، وكان مطرق أعز منه، فخرج حتى أتى النبيﷺ فعاذ به، وانشد يقول:-

يـــا ســـيـــد الـــنـــاس وديـــان الـــعـــرب
أشـــكـــو إلـــيـــك ذريـــة مـــن الـــذرب
كـــالـــذئـــبـــة الـــعـــســـراء فـــي طـــل الـــســـرب
خـــرجـــت ابـــغـــيـــهـــا الـــطـــعـــام فـــي رجـــب
فـــخـــالـــفـــتـــنـــي بـــنـــزاع وهـــرب
أخـــلـــفـــت المـــوعـــد ولـــذت بـــالـــذنـــب
وهـــن شـــر غـــالـــب لمـــن غـــلـــب.

فقال النبيﷺ: **وهن شر غالب لمن غلب.**

فكتب له إلى مطرق: انظر إلى امرأة هذا معاذه فادفعها إليه.

فأتاه بكتاب النبي، فقراء عليه، فقال لها: يا معاذه، هذا كتاب النبيﷺ فيك، وأنا دافعك إليه، فقالت: خذ لي العهد والميثاق وذمة النبي، أن لا يعاقبني فيما صنعت. فأخذ لها ذلك ودفعها إليه.(*49)

وهكذا استغاث الشاعر بتلك الأبيات الرقيقة المؤثرة، فاستجاب له رسول الله لحسن أسلوبه ورقة شعره.

ومن صور الاعتذارات الشعرية حينما بعث رسول الله إلى حي من أحياء العرب، يقال لهم حي ذوي الأضغان، بشيء ليقسم في فقرائهم ، فكان فيهم شيخ مسن يقال له قيس بن الربيع، فأعطوه شيئا قليلا، فغضب فهجا، ثم جاء إلى النبي معتذرا، فأنشده أبياته:-

وحـــي ذوي الأضـغـــان تـــســب قــلــوبــهـــم
تحـيــتــك الحــســنــى وقــد يــرقــع الــنــعــل
فــإن الـــذي يـــؤذيــك مـــنـــه ســـمـــاعـــه
وان الـــــذي قـــالـــوا وراءك لـــــم يـــقـــــل

فطاب قلب النبي لحسن اعتذاره، وقال:-يا قيس، لم تقل، يا قيس لم تقل. وأقبل على أصحابه، فقال: من لم يقبل من متنصل عذرا، صادقا أو كاذبا، لم يرد على الحوض.[(*50)]

وقصيدة قتيلة بنت الحارث في عتاب الرسول على قتل أبيها مشهورة إذ قال الرسولﷺ بعد سماعها: لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته.[(*51)]

الشعر في المعركة:

تحدثنا في موضع آخر عن دور الشعر في الصراع الذي دار بين مكة والمدينة في عصر النبوة، ونضيف هنا انه كان لشعر المشركين واليهود أثره الكبير في نفس الرسول، ونفوس المسلمين، وفي تعويق الدعوة، والتنفير منها، لما كان له من ذيوع وانتشار بين القبائل العربية، ولم تكن معظم القبائل خارج المدينة لتسمع عن الإسلام، أو تعرف عنه شيئا إلا عن طريق ما يصل إليها من الشعر، هذا إذا استثنيا بعض من كان يبعث بهم الرسول من دعاة الإسلام، وحتى هؤلاء، فان الشعر القرشي كان يفسد عليهم عملهم ودعوتهم، ألانه صادر عن مكة، وهي مركز العرب الديني، والتجاري والثقافي، وعن قوم النبي، والمفروض انهم اعرف به وبدعوته من القبائل الأخرى.

ودعاء رسول الله على عمرو بن العاصي، الذي كان يهجوه من قبل إسلامه ينم عن عمق الألم والمرارة التي كان يحس بها رسول الله من تلك الأشعار، فقد توجه إلى الله بقوله: اللهم إن عمرو بن العاص قد هجاني، وهو يعلم في لست بشاعر، اللهم فاهجه والعنه عدد ما هجاني.[(*52)]

لذلك قرر الرسول أن يفل من هذا السلاح الذي أراد المشركون أن

يتخذوا منه سلاحا ماضيا يشهرونه في وجه الدعوة الإسلامية، ويهدمون به كل ما يحاول أن يبنيه الرسول، ليفوت عليهم غرضهم الذي كانوا يرمون إليه، ويوجهه إلى غير ما استعمله المشركون.

وانطلاقا من موقف القرآن الذي سبق أن وضحناها طلب الرسولﷺ من الشعراء أن يردوا على قريش وينصروه بألسنتهم كما نصروه بأسلحتهم فقال: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟

فأجابه إلى ذلك حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحه، فانشرح صدر رسول الله لذلك، وطلب أن يردوا عنه شعراء قريش. فعندما قدم المدينة تناولته قريش بالهجاء فقال لابن رواحه رد عني. فذهب في قدمهم وأولهم فلم يصنع شيئا، فأمر كعب بن مالك، فذكر الحرب بقوله:-

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا

قدما ونلحقها إذا لم تلحق

فلم يصنع في الهجاء شيئا، فدعا حسان بن ثابت فقال: اهجهم وائت أبا بكر يخبرك-أي بمصائب القوم-وكان أبو بكر علامة قريش في النسب.(*53)

كما روي أن الرسولﷺ قال: ألا رجل يرد عنا ؟ قالوا: يا رسول الله حسان بن ثابت، قال: اهجهم، والله هجاؤك اشد عليهم من وقع السهام في عبس الظلام، اهجهم والق أبا بكر يعلمك الهنات.(*54)

وكان الرسول يدرك صعوبة أن يهجو الشاعر قريشا ولا يصيبه من ذلك شيء، فقال لحسان: اهجهم، وأني أخاف أن تصيبني معهم بهجة بني عمي.

قال: لأسلنا منهم سل الشعرة من العجين، ولي مقول يفري مالا تفريه الحربة، ثم أخرج لسانه، فضرب به أرنبة انفه كأنه لسان شجاع.(*55)

وأثنى الرسول على شعراء الإسلام، وقدر دورهم في محاربة المشركين ليشد من أزرهم، ويشجعهم على الاستمرار في ذلك النضال. فقال: هؤلاء النفر اشد على قريش من نضح النبل.(*56) وخاطب شعراء الإسلام: اهجوا بالشعر، أن المؤمن يجاهد بنفسه وماله، والذي نفس محمد بيده كأنما تنصحونهم بالنبل.(*57)

وخص حسانا بالعناية والرعاية اكثر من الشعراء الآخرين، لأثر شعره الكبير في المشركين، ولأنه كان اعظم شعراء الفريقين، فكان المشركون

يفرقون من لسانه، ويفزعون من شعره.

قال الرسول: أمرت عبد الله بن رواحه فقال واحسن، وأمرت كعب ابن مالك، فقال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت فشفى وأشفى.[*58]

وخاطب حسانا: اهج المشركين، فان روح القدس معك، وقال له: إن روح القدس لا يزال يؤدوا ما نافحت عن الله ورسوله.[*59] وكان يقول له: هيج الغطا ريف على بني عبد مناف، والله لشعرك اشد عليهم من وقع السهام في عبس الظلام.[*60]

واضطر كثير ممن هجاهم حسان إلى الاستجارة برسول الله، فرارا من شعره، فلما هجا الحارث بن عوف المري وهو مشرك، بقوله:-

وأمـــانــــة المـــري حـــيـــث لـــقـــيـــتـــه
مـــثـــل الـــزجـــاجـــة صـــدعـــهـــا لـــم يـــجـــبـــر

قال الحارث للنبي: يا محمد، أجرني من شعر حسان، فوالاه لو مزج به البحر لمزجه.[*61] وظل الشعر سهاما يتداول المتحاربون في كل معارك الإسلام الأولى، فحين انهزم المشركون في يوم الأحزاب قال الرسول: إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم، ولكنكم تغزونهم، وتسمعون منهم أذى ويهجونكم، فمن يحمي أعراض المسلمين ؟.[*62] فنهد إليه شعراء الإسلام، وقاموا بتلك المهمة خير قيام، مهتدين بقوله (ص): قولوا لهم مثل ما يقولون لكم .[*63]

وآتت أشعار المسلمين أكلها، وقطف المسلمون ثمارها اليانعة عندما أرهبت المشركين، وأدخلت الرعب والفزع في قلوبهم، حتى أسلمت قبائل بأسرها فرقا من تلك الأشعار.

فقد قدم نفر من مزينة على رسول الله، وفيهم خز اعي بن عبد نهم، الذي بايعه على قومه مزينة، ولما خرج إلى قومه لم يجدهم، كما ظن، فأبطأ عن الرسول، فدعا حسان بن ثابت، وقال له: اذكر خزا عيا ولا تهجه. فقال حسان أبياتا مطلعها:-

ألا ابـــلـــغ خـــزا عـــيـــا رســـولا
بـــأن الـــذنـــب يـــغـــســـلـــه الـــوفـــاء

فقام خزاعى فقال: يا قوم خصكم شاعر الرجل، فأنشدكم الله.

قالوا: فأنا لا ننبو عليك، واسلموا ووفدوا على النبي، وكان عددهم

أربعمائة.[64*]

وأعلنت قبيلة دوس إسلامها فرقا من قول كعب بن مالك:-

قـــضــــيــــنـــــا مـــــن تــــهــــامـــــة كـــــل ريــــــب

وخــيــبــر ثــم اجــمــعــنــا الــســيــوفــا

نـــخـــيـــرهـــا ولـــو نـــطـــقـــت لـــقـــالـــت

قـــواطـــعــــهـــــن: دوســـــا أو ثـــقـــيـــفـــا

فقالت دوس: انطلقوا، فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بتثقيف.[65*]

الأشعار التي نهى رسول الله عن روايتها:-

وأخيرا ثمة أشعار بعينها يذكر المؤرخون. إن رسول الله قد نهى عن روايتها. وهذه الأشعار لا تتجاوز نصين شعريين فقط، هما قصيدة أمية بن أبى الصلت التي يرثي فيها من أصيب من قريش يوم بدر، وهي في واحد وثلاثين بيتا، أثبتها ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق وعقب عليها بقوله: تركنا منها بيتين نال فيهما من أصحاب رسول الله [66*]. ولم يذكر نهي رسول الله عن روايتها. و مطلعها:-

ألا بـــكـــيـــت عـــلـــى الـــكـــرام

بـــنـــي الـــكـــرام أولـــى المـــمـــادح [66*]

ولو كان الرسول قد نهى عن إنشادها، فكيف وصلت إلى ابن اسحق، فدونها ثم دونها من بعده ابن هشام، ولماذا أهملا الإشارة إلى هذا النهي لو كان موجودا ؟ علما انهما كانا يعلقان على النصوص في قضايا اقل بكثير من هذه القضية.

أما النص الثاني فهو قصيدة الأعشى في هجاء علقما بن علاثة، ومدح عامر بن الطفيلي، والتي مطلعها:-

عـــلـــقـــم مـــا أنـــت إلـــى عـــامـــر

الـــنـــاقـــض الأوتـــار والـــواتـــر

يقال: أن النبي ﷺ قال لحسان: يا حسان، أنشدنا من شعر الجاهلية ما عفا الله لنا فيه، فأنشده حسان قصيدة الأعشى في علقما. فنهى النبي حسان من تلاوتها. وقال له: لا تعد تنشدني هذه القصيدة. فقال: يا رسول الله، تنهاني عن رجل مشرك مقيم عند قيصر؟

فقال: إن قيصر سأل أبا سفيان عني فتناول مني، وسأل علقما فأحسن

القول، فان اشكر الناس للناس اشكرهم لله تعالى.(*67) قال البغدادي: ذكر إن النبي رخص في الأشعار كلها إلا هاتين الكلمتين كلمة أمية بن أبى الصلت في أتهل بدر، وكلمة الأعشى في علقما بن علاثة.(*68)

من أهدر رسول اللهﷺ دمه من الشعراء:

روت كتب التاريخ والسيرة أن النبيﷺ أهدر دم بعض الشعراء من المشركين واليهود، ممن حارب الإسلام بلسانه وسلاحه، فآذى الرسول والمسلمين، ومع ما لموقف رسول اللهﷺ من هؤلاء الشعراء من دلالة على سلطان الشعر وتأثيره على العرب، فان هؤلاء الشعراء لم تكن جريمتهم قول الشعر المناوئ للإسلام فحسب، بل لمواقفهم العدائية من الدعوة، ومحاربتهم لها بكل الوسائل، مع ارتداد بعضهم إلى الكفر بعد الإسلام، أو ارتكاب جريمة القتل من قبل البعض الآخر، كما سنفصل ذلك في هذا الموضوع.

والشعراء الذين نفذ فيهم حكم رسول اللهﷺ وأريقت دماؤهم فعلا، هم أبو عفك أحد بني عمرو بن عوف، وكان قد نجم نفاقه حين قتل الرسولﷺ الحارث بن سويد بن صامت، فقال:-

لقد عشت دهرا وما إن أرى
من الناس دارا ولا مجمعا
أبر عهودا وأفي لمن
يعاقد فيهم إذا ما دعا
فصدعهم راكب جاءهم
حلال حرام لشتى معا
من أولاد قيل في جمعهم
يهد الجبال ولم يخضعا
فلو إن بالعز صدقتم
أو الملك تابعتم تبعا

فقال رسول اللهﷺ من لي بهذا الخبيث ؟ فخرج سالم بن عمير فقتله.(*69)

وعبد الله بن خطل القريشي الأدرمي، كان شاعرا، وإنما أمر الرسول بقتله لأنه كان مسلما، فبعثه الرسول مصدقا، وبعث معه رجلا من الأنصار،

وكان معه مولى يخدمه، وكان مسلما، فنزل منزلا، أمر المولى أن يذبح له تيسا، فيصنع له طعاما، فنام، فاستيقظ ولم يصنع له شيئا، فعدا عليه فقتله، ثم ارتد مشركا.

وكان له قرينتان، فرتنى وصاحبتها، وكان يأمرهما بأن تغنيا بهجاء الرسول فأهدر الرسول دمه، فقتله أبو برزة الأسلمي.[*70]

وقيس بن صبابة الكنانة، قدم من مكة مسلما فيما يظهر، فقال: يا رسول الله جئتك مسلما، وجئتك اطلب دية أخي، قتل خطأ، فأمر له رسول اللهﷺ بدية أخيه هشام، فأقام عند رسول اللهﷺ غير كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ثم خرج إلى مكة مرتدا، فقال في شعر له:-

شفى النفس إن قد مات بالقاع مسندا
تضرج ثوبيه دماء الأخادع
وكانت هموم النفس من قبل قتله
تلم فتحميني وطاء المضاجع
حللت به وتري وأدركت ثؤرتي
وكنت إلى الأوثان أول راجع
ثأرت به فهرا وحملت عقله
سراه بني النجار أرباب فارع

فأمر الرسول بقتله، لقتل الأنصاري الذي كان قتل أخاه خطأ، ورجوعه إلى قريش مشركا.[*71]

وأبو عزة اجمحي، كان هجا رسول اللهﷺ فأسر يوم بدر كافرا، فقال: يا رسول الله، اني ذو عيال وحاجة قد عرفتها، فامنن علي من الله عليك. قال: نعم. على أن لا تعين علي-يريد بشعره-قال: نعم. فعاهده و أتطلق سراحه ثم قال:-

ألا ابلغا عني النبي محمدا
بأنك حق والمليك حميد
ولكن إذا ذكرت بدرا و أهلها
تأوه مني اعظم وجلود

فعاد في هجائه. ثم اسر بعد يوم أحد، فقال: يا رسول الله: من علي، من الله عليك.

فقال الرسولﷺ : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول:

إني خدعت محمدا مرتين. اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت فضرب عنقه. (72*)

وعصماء بنت مروان، كانت شاعرة، ولما قتل أبو عفة نافقت وقالت أشعارا تعيب الإسلام و أهله، ومن تلك الأشعار قولها :-(73*)

باست بني مالك والنبيت
وعوف وباست بني الخزرج
أطعمتم أتأوي من غيركم
فلا من مراد ولا مذ حج (74*)
ترجونه بعد قتل الرؤوس
كما يرتجى مرق المنضج
ألا انف يبتغي غرة
فيقطع من أمل المرتجى

فقال رسول اللهﷺ حين بلغه ذلك، ألا آخذ لي من ابنة مروان ؟ فسمع ذلك من قول رسول الله عمير بن عدي الخطمي، وهو عنده، فلما أمسى من تلك الليلة سرى عليها في بيتها فقتلها، ثم اصبح مع رسول اللهﷺ فقال:

يا رسول الله، إني قد قتلتها. فقال له الرسول: نصرت الله ورسوله يا عمير. (75*)

وكعب بن الأشرف اليهودي، كان يحرض على رسول اللهﷺ، وينشد الأشعار في ذلك، ويبكي قتلى المشركين، ويشبب بنساء النبي ونساء المسلمين، وكان يقول، بعد قتل المشركين في بدر:-

لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظهرها. فأهدر رسول الله دمه، وقال: اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت، في إعلانه الشر، وقوله الأشعار، ثم قال: من لي بابن الأشرف فقد آذاني ؟

فقال محمد بن مسلمة: به يا رسول الله. وأنا اقتله.

قال: فافعل. فخرج في بعض أصحابه فقتله. ولما جاءت اليهود رسول الله تشكو قتله، قال لهم : لو فر كما فر غيره ممن هو على مثل رأيه ما

اغتيل، ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر، ولم يفعل ذلك أحد منكم إلا كان السيف[*76]

وأبو رافع سلام بن أبى الحقيق، شاعر يهودي، كان فيمن حزب الأحزاب على رسول اللهﷺ، فاستأذن الأنصار رسول الله في قتله وهو بخيبر، فأذن لهم، ونهاهم عن أن يقتلوا وليدا أو امرأة، فخرج إليه خمسة نفر منهم، فقتلوه وهو في داره.[*77]

وقال حسان بن ثابت في هذين الشاعرين اليهوديين شعرا هو: [*78]

لـــلـــه در عـــصـــابـــة لا قـــيـــتـــهـــم
يـــا بـــن الحـــقـــيـــق وأنـــت يـــا بـــن الأشـــرف
يـــســـرون بـــالـــبـــيـــض الخـــفـــاف إلـــيـــكـــم
مـــرحـــا كـــأســـد فـــي عـــريـــن مـــغـــرف
حـــتـــى أتـــوكـــم فـــي مـــحـــل بـــلادكـــم
فـــســـقـــوكـــم حـــتـــفـــا بـــبـــيـــض ذفـــف
مـــســـتـــنـــصـــريـــن لـــنـــصـــر ديـــن نـــبـــيـــهـــم
مـــســـتـــصـــغـــريـــن لـــكـــل أمـــر مـــجـــحـــف [*79]

هؤلاء هم الشعراء الذين أهدر رسول الله دماءهم، ونفذ فيهم حكمه.

أما من أهدر دماءهم ولم ينفذ فيهم الحكم لهربهم، أو لتوبتهم، فهم:

هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وهو من فرسان قريش وشعرائها كان يهجو الإسلام والمسلمين، فأهدر النبي دمه، فهرب إلى نجران حتى مات بها كافرا.[*80]

وأسيد بن أبي أناس كان يهجو رسول اللهﷺ وحين قدم قومه إلى رسول اللهﷺ ليعلنوا إسلامهم هرب، فقال قومه للرسول: يا رسول الله، إن اسيد بن أبي أناس هرب، وتبرأنا منه إليك، وقد نال منك فأباح رسول الله دمه.

ولما كان عام الفتح كان اسيد فيمن أهدر دمه، وحين اخبر بذلك قدم إلى رسول الله فقال: يا محمد أنذرت دم اسيد ؟ قال: نعم . قال: أتقبل منه إن جاءك مؤمنا ؟ قال: نعم . فوضع يده في يد النبي (ص) فقال: يا محمد، هذه يدي في يدك، اشهد انك رسول الله، وان لا اله إلا الله. فأمر الرسول رجلا يصرخ، إن اسيد بن أبي أناس قد آمن. وقد أمنه رسول اللهﷺ.[*81]

وكعب بن زهير بن أبى سلمى قصته معروفة، فقد خرج وأخوه بجير إلى

ابرق العزاف من جبال الدهناء. فقال بجير لكعب: اثبت لي في الغنم حتى آتي هذا الرجل-يعني النبيﷺ)-فاسمع كلامه، واعرف ما عنده، فأقام كعب ومضى بجير، فعرض عليه النبيﷺ الإسلام فأسلم ، واتصل إسلامه بأخيه كعب فقال:-(*82)

ألا بــلــغــا عــنــي بــجــيــراً رســالــة
فــهــل لــك فــيــمــا قــلــت ويــحــك هــل لــكــا ؟
ســقــاك بــهــا المــأمــون كــأســا رويــة
وانــهــلــك المــأمــون مــنــهــا وعــلــكــا(*83)
وفــارقــت أســبــاب الــهــدى واتــبــعــتــه
عــلــى أي شــيء ويــب غــيــرك دلــكــا ؟
عــلــى مــذهــب لــم تــلــف أمــا ولا أبــا
عــلــيــه ولــم تــعــرف عــلــيــه أخــاً لــكــا؟
فــان أنــت لــم تــفــعــل فــلــســت بــآســف
ولا قــائــل إمــا عــثــرت: لــعــاً لــك (*84)

فاتصل الشعر برسول اللهﷺ، فأهدر دمه وقال: من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله. فكتب بجير إلى كعب: النجاء النجاء، فقد أهدر رسول اللهﷺ دمك، وما أحسبك ناجيا.

ثم كتب إليه: إن رسول اللهﷺ ما جاءه أحد قط يشهد أن لا اله إلا الله، وان محمدا رسول الله إلا قبله، ولم يطالبه بما تقدم الإسلام، فأسلم واقبل إلى رسول اللهﷺ. فلما ورد عليه كتابه توجه إلى رسول اللهﷺ. قال كعب: فأنخت راحلتي على باب المسجد، ودخلت المسجد، وعرفت رسول الله ﷺ بالصفة التي وصفت لي، وكان مجلس رسول اللهﷺ من أصحابه مثل وضع المائدة من القوم، يتحذلقون حول حلقة حلقة، فيقبل على هؤلاء فيحدثهم ، ثم على هؤلاء فيحدثهم ، فدنوت من النبي-عليه السلام-فقلت: اشهد أن لا اله إلا الله، وان محمدا رسول الله. قال: من أنت ؟ قلت: كعب بن زهير. قال: الذي يقول ما يقول، ثم اقبل على أبي بكر فاستنشده الشعر، فأنشد أبو بكر: «سقاك بها المأمون كأسا روية» فقلت: لم اقل هكذا، وإنما قلت:

ســقــاك أبــو بــكــر بــكــأس رويــة
وأنــهــلــك المــأمــون مــنــهــا وعــلــكــا

فقال رسول الله-عليه السلام-:-مأمون والله. فأنشد :«
بانت سعاد فقلبي اليوم متبول»
فكساه النبي-عليه السلام-بردة، اشتراها معاوية بن أبى سفيان من آل كعب بن زهير-بعده-بمال كثير، وهي البردة التي يلبسها الخلفاء في العيدين.(*85)

والحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، كان شاعرا شديد العداوة للرسولﷺ والإسلام، شهد بدرا مع المشركين، فانهزم فعيره حسان بأبيات، فاعتذر بأبيات هي من احسن ما قيل في الاعتذار من الفرار.

ومن هجائه للرسولﷺ وتحريضه المشركين قوله عندما رثى أخاه أبا جهل في قصيدة طويلة:-

فيال لؤى دببوا عن حريمكم
وآلهة لا تتركوها لذي الفخر
توارثها آباؤكم وورثتم
أواسيها والبيت ذو السقف والستر
فما لحكيم قد أراد هلاككم
فلا تعذروه آل غالب من عذر
وجدوا لمن عاديتم وتوازوا
وكونوا جميعا في التأسي وفي الصبر(*86)

قال ابن هشام: أبدلنا من هذه القصيدة كلمتين مما روي ابن اسحق لأنه نال فيهما من النبيﷺ استأمنت له أم هانئ بنت أبي طالب النبي ﷺ فأمنه يوم الفتح وصفح عنه. وكانت إذ أمنته قد أراد علي قتله، وحاول أن يغلبها عليه، فدخل النبيﷺ منزلها ذلك الوقت. فقالت: يا رسول الله، ألا ترى إلى ابن أمي يريد قتل رجل آجرته. فقال الرسول: قد آجرنا من آجرت وآمنا من آمنت. فأمنه.(*87)

الحواشي

(*1) العمدة 1/ 30
(*2) الأغاني 9/ 171(طبعة ساسي)
(*3) تفسير القرطبي 15/ 52
(*4) شرح بانت سعاد 131
(*5) شرح شواهد المغنى 1/293
(*6) كنز العمال 2/ 78 1 وعيون الأخبار 2 / 8 1
(*7) اللسان مادة (شعر)
(*8) الأدب المفرد125 والدار قطني 490
(*9) انظر ديوان كعب 223
(*10) العقد الفريد 1/ 256 وشعر النابغة 51
(*11) طبقات الشعراء 187
(*12) شرح بانت سعاد 166
(*13) صحيح الجامع الصغير 2/ 50
(*14) م.ن 1/352
(*15) معجم الشعراء 195 والعقد الفريد 1/ 256
(*16) ابن هشام 2 / 216
(*17) ربيع الأبرار 2/ 261 (المخطوط)
(*18) الإصابة 2 / 257
(*19) أسد الغابة 3/ 52
(*20) الإصابة 2/ 9 10
(*21) الاستيعاب 3/ 400
(*22) المرزبان 82
(*23) صحيح الجامع الصغير 1 / 336, 338
(*24) الأغاني 8/ 43 2(طبعة الدار)
(*25) الإصابة 1/ 134
(*26) العقد الفريد 3/ 398
(*27) الدد: اللهو واللعب. انظر لمزهر 2/ 291
(*28)ابن هشام 2/ 294
(*29) الأغاني 15/ 28
(*30) اللؤلؤ والمرجان 586
(*31) الديوان 355 (طبعة البرقوقي) 395 (طبعة د. حنفي)
(*32) تاريخ دمشق 6/ 59 والعقد الفريد5/ 275

(*33) آمالي القالي 1/ 241
(*34) انظر اللؤلؤ والمرجان 471
(*35) الكشاف 3/ 2 29
(*36) تفسير الخازن 3/374
(*37) الأغاني 3/ 7
(*38) الاستيعاب 2 / 354
(*39) الإصابة 2/ 354
(*40) م. ن 2/186
(*41) تاريخ دمشق 4/ 29 1 والأغاني 4/ 6
(*42) هناتك: أخبارك وأشعارك
(*43) المد: المكيال. والنصيف: نصفه. التعجيف: الأكل دون الشبع
(*44) شرح أدب الكاتب 391
(*45) تفسير الخازن 3/ 374
(*46) شرح شواهد المغنى 1/ 334.
(*47) ابن هشام 3/ 294والإصابة 2/ 529
(*48) الاستيعاب 2 / 256
(*49) الإصابة 3/ 236
(*50) النص والقصة في الممتع ص 17 وفيه مصادره الكثيرة.
(*51) الزينة في الكلمات الإسلامية العربية 1/ 115
(*52) طبقات الشعراء 180
(*53) الممتع في علم الشعر وعمله 43
(*54) سير أعلام النبلاء 2/ 368 والشجاع: الحية الذكر
(*55) العمده 1 / 31
(*56) مسند احمد 3/ 460
(*57) الأغاني 143/5
(*58) صحيح الجامع الصغير 2/ 209 و 339
(*59) البيان والتبيين 1/ 273
(*60) المحاسن والمساوئ 430
(*61) الأغاني 16 / 232
(*62) العقد الفريد 6/ 154
(*63) طبقات ابن سعد 2/ 57
(*64) نكت الهميان 231
(*65) ابن هشام 2/ 30
(*66) الإصابة 2 / 496
(*67) خزا نه الأدب 2 /43(ط. بولاق)
(*68) ابن هشام 2/ 636
(*69) الطبري 3/ 59 و العمدة 1/ 23

(*70) ابن هشام 2/293 ألاخادع: عروق القفا. الثؤرة: الثأر

(*71) ابن هشام 2/ 104 ونسب قريش 397

(*72) ابن هشام 2/ 367

(*73) الأتاوى: الغريب

(*74) ابن هشام 2 /637 ومعجم الشعراء 231

(*75) إمتاع الأسماع 108/1- 111

(*76) ابن هشام 2/ 273

(*77) م. ن 2/276

(*78) مرحا: نشاطا. مغرف: ملتف الأغصان. ذفف: سريعة

(*79) طبقات الشعراء65

(*80) ابن عساكر 6/ 45

(*81) شرح بانت سعاد 94 وابن هشام 2/ 502

(*82) علكا: شربك الشربة الثانية

(*83) لعا: إذا دعي للعاثر بأن ينتعش قيل: لعا لك

(*83) شرح بانت سعاد 93

(*85) ابن هشام 2/ 10 والأواسي: جمع آسية، وهي ما أسس عليه البناء

(*86) انظر دراسات في الأدب الإسلامي 9.

5 الأغراض الشعرية

عندما جاء الإسلام، وكثر اتباعه، كانت تعاليمه تدعوهم للخضوع إلى نظم خاصة، وقوانين شاملة لكل ألوان الحياة، فكان لا بد أن يلتزم الشعراء بتلك النظم وان يتوجهوا في أغراضهم نحو تلك الحياة الجديدة، ويطرحوا مالا يتناسب وتلك الحياة من الأغراض التي ألفوها في حياتهم الجاهلية، لأنها لم تعد تتفق ومبادئ وأخلاقيات المجتمع الإسلامي الجديد، وابرز تلك الأغراض التي ابتعد عنها الشعراء المسلمون الغزل المتهتك والخمريات والهجاء المقذع الفاحش.

إلا أن الشعر ظل يصور حياة الناس، ويسيل على السنة الشعراء عذبا رقيقا، حيث يستوعب همومهم، ويعبر عما يجيش في صدورهم أو يدور في أفكارهم، فلم يبق أحد من أصحاب رسول الله إلا وقد قال الشعر وتمثل به.[*1]

واستحدثت حياتهم الجديدة أغراضا جديدة لم يعرفوها من قبل. وانتظمت تلك الأغراض كالآتي:

الشعر الديني:

كان الشعر الديني ابرز الأغراض الجديدة، حيث

بدأ الشعراء يتحدثون عن عقائد الدين ومثله العليا، ويدعون إلى التمسك بها والتحلي بما تدعو له، وهو لون جديد من الشعر لم يكن دين العرب من قبل الإسلام يستوعب أن يتحدثوا عنه بغرض شعري خاص.

تحدث الشعراء في هذا الغرض عن وحدانية الله، وعن الوحي والنبوة، وعن عقيدة الخلق والحياة، وعن الموت والبعث والحساب، وعن الثواب والعقاب، والجنة والنار، والحلال والحرام.

فالإسلام يدعو مثلا إلى الإيمان بالأنبياء وبرسل الله الذين بعثهم للناس «قل كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله».

فتناول حسان هذا الإيمان بقوله: .[2*]

شهدت بإذن الله أن محمدا
رسول الذي فوق السماوات من عل

وان أبا يحيى ويحيى كليهما
له عمل في دينه متقبل

وأن الذي عادى اليهود ابن مريم
رسول أتى من عند ذي العرش مرسل

وأن أخا الأحقاف إذ يعذلونه
يجاهد في ذات الإله ويعدل

واستمر الشعراء في العصر الأموي مؤكدين عقيدة الإيمان بالرسل، فهذا جرير يعبر عن ذلك، ويفخر بمن ينتسب منهم إلى العرب، حيث يقول مستهديا بما في القرآن الكريم: [3*]

أبونا أبو اسحق يجمع بيننا
أب كان مهديا نبيا مطهرا

ومنا سليمان النبي الذي دعا
فأعطي بنيانا وملكا مسخرا

وموسى وعيسى والذي خر ساجدا
فأنبت زرعا دمع عينيه اخضرا

ويعقوب منا زاده الله رفعة
وكان ابن يعقوب أمينا مصورا

ونكتفي بهذين المثلين لان ما سوف يأتي من أغراض وإشعار زاخر

بالحديث عن العقائد الدينية.

الوعظ والإرشاد:

احتاجت أوامر الدين ونواهيه إلى الحث على الالتزام بها وتنفيذها، فنشأ لون جديد من الشعر هو شعر الوعظ والإرشاد، وقد حاول شعراء صدر الإسلام الإفادة من فنهم الشعري لتحقيق هذه الغاية النبيلة التي دعا إليها القرآن بمثل قوله «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة».

وأكدها رسول اللهﷺ بقوله «الدين النصيحة».

وتعد لامية صرمة بن أبي أنس الأنصاري في طليعة تلك الأشعار، فقد صاغ مثل الإسلام، وكثيرا من مبادئه بأسلوب رفيع، وتوجه بنصيحته إلى أبنائه، وهي طويلة نكتفي منها بقوله:-[(*4)]

يـا بـنـي الأرحـام لا تـقـطـعـوهـا
وصـلـوهـا قـصـيـرة مـن طـوال

واتـقـوا الـلـه فـي ضـعـاف الـيـتـامـى
ربـمـا يـسـتـحـل غـيـر الحـلال

واعـلـمـوا أن لـلـيـتـيـم ولـيـا
عـالمـا يـهـتـدي بـغـيـر الـسـؤال

إلى أن يقول:-

واجـمـعـوا أمـركـم عـلـى الـبـر والـتـق
وى وتـرك الخـنـا واخـذ الحـلال

وهي تسير على هذا النهج في النصح والوعظ والإرشاد.

وجاء الشاعر الصلصال بن الدلهمس مع وفد تميم، فأوصاهم الرسولﷺ بشيء، وقد نظمها الصلصال قصيدة شعرية رائعة سبق أن تحدثنا عنها من قبل.

ومع قلة شعر كعب بن زهير، وضعف الروح الدينية فيه فقد وصلت إلينا مقطوعة له، فيها دعوة مخلصة وموعظة حسنة لقومه، حيث قال: [(*5)]

رحـلـت إلـى قـومـي لأدعـو جـلـهـم
إلـى أمـر حـزم أحـكـمـتـه الجـوامـع

سـأدعـوهـم جـهـدي إلـى الـبـر والـتـقـى

وأمـر الـعـلا مــا شـــايـعــتـــنـي الأصــابــع

فـكـونـوا جـمـيـعـا مـا اسـتـطـعـتـم، فـانـه

ســيــلــبــســكــم ثـــوب مـــن الـــلـــه واســـع

ووجد الشعراء في حركة ردة بعض القبائل بعد وفاة الرسول * مناسبة كبيرة لينهض الشعر بمهمة النصح والإرشاد، فمحضوا قبائلهم اصدق النصائح، ودعوهم إلى الخير والثبات على الإسلام، ونبذ المرتدين، والتنصل من مدعي النبوة الزائفة، ومع أن معظم تلك الصيحات الصادقة والمواعظ المؤمنة لم تجد الآذان الصاغية أو القلوب الواعية، إلا أن الشعراء قد أدوا واجبهم خير أداء، وبرؤوا الشعر من التقصير أو التهاون.

فعندما ارتدت كندة ثبت الشاعر ثور بن مالك على دينه، وحاول أن يثني قومه عن الردة فلم يفلح، قال:-(*6)

وقــلـــت: تحـــلـــوا بـــديـــن الـــرســـول

فــقــالــوا الــتــراب-ســفــاهــا-بــفــيــكــا

فــأصــبــحــت أبـكـي عــلــى هــلــكــهــم

ولـــم أك فـــيـــمـــا أتـــوه شـــريـــكـــا

وترتد بنو عامر، فينهض الشاعر الحارث بن مرة النفيلي، يعظهم، ويسدي إليهم صادق نصحه، فيقول لهم: (*7)

بــنــي عــامــر إن تــنــصــروا الــلــه تــنــصــروا

وان تــنــصــبــوا لــلــه والــديــن تــخــذلــوا

وان تــهــزمــوا لا يــنــجــكــم عــنــه مــهــرب

وان تــثــبــتــوا لــلــقــوم والــلــه تــقــتــلــوا

ويعلن أهل نجران ردتهم، فيقوم فيهم الشاعر عمير بن الحصين منشدا واعظا، فيقول: (*8)

أهـــل نجـــران امـــســـكـــوا بـــهـــدى الـــلـــه

وكـــونـــوا يـــدا عـــلـــى الـــكـــفـــار

لا تــكــونــوا بــعــد الــيــقــين إلــى الــشــك

وبـــعـــد الـــرضـــا إلـــى الإنـــكـــار

واســتــقــيــمــوا عــلــى الــطــريــقــة فــيــه

وكـــونـــوا كـــهـــيـــئـــة الأنـــصـــار

وفي العصر الأموي عمت المواعظ وازدادت النصائح بعد أن ابتعد كثير من الناس عن الحياة الإسلامية الأولى، فواكب الشعراء وعاظ المساجد، وهبوا يصوغون المواعظ والإرشادات أشعارا، يتوجهون بها إلى الحكام، أو ينشرونها بين الناس، فنظم أعشى ربيعه موعظة طويلة، تبلغ اثنين وثلاثين بيتا، صدرها بقوله: (*9)

يا أيها الناس، أفي قلت موعظة وحكمة لم يقل شبهها بشر في الأولين وفي الخالين قبلهم ولا الذين من الباقين قد غبروا وهي تفيض بالأفكار الإسلامية والمعاني الدينية، وتزخر بالدعوة إلى مكارم الأخلاق ومثالية الإسلام.

ومثلها قصيدة النابغة الشيباني التي اقتبس فيها كثيرا من آيات القرآن ومواعظه، والتي صدرها بقوله:-(*10)

الحمد لله لا شريك له
من لم يقلها فنفسه ظلما

ووجد الشعراء من واجبهم أن يفدوا على الخلفاء، يقدمون لهم النصح والإرشاد، ويحثونهم على الالتزام بأوامر الدين، والابتعاد عن نواهيه، فلم يجد معظم الحكام ضيرا في ذلك، ووجد الشعراء لديهم آذانا صاغية وقلوبا واعية خاشعة، وكان سابق البربري رائد الشعراء الأمويين في هذا الميدان، ومن مواعظه قوله يخاطب الخليفة عمر بن عبد العزيز: (*11)

باسم الذي أنزلت من عنده السور
والحمد لله، أما بعد يا عمر
إن كنت تعلم ما تأتى وما تذر
فكن على حذر قد ينفع الحذر
واصبر على القدر المحتوم وارض به
وإن أتاك بما لا تشتهي القدر

وهى طويلة، تسير على هذا النهج، حتى تبلغ ستة وأربعين بيتا.

الوصايا:-

ومن ألوان شعر الوعظ والإرشاد التي ازدهرت في العصر الإسلامي والأموي ما يسمى ب «الوصايا» وهي الأشعار التي يتوجه الشعراء فيها

بالنصح والإرشاد لأبنائهم وذويهم، في أواخر أيامهم، أو قبل ذلك أحيانا، يودعون فيها خلاصة تجاربهم، وعصارة أفكارهم.

وقد عرف الشعر الجاهلي هذا اللون من الوعظ، ولكن الجديد فيه بعد الإسلام تغير المفاهيم والقيم الجديدة التي أشاعتها تعاليم الإسلام.

ولعل من أقدم ما وصل إلينا من الوصايا الإسلامية وصية أبي قيس بن الأسلت, وهي وصية بليغة رائعة، أودعها الشاعر خلاصة تجار به، وعصارة أفكاره وعقيدته، بكل إخلاص وأمانة، وهي تسير على هذا النحو: (12*)

يقول أبو قيس وأصبح غاديا:

ألا ما استطعتم من وصاتي فافعلوا
فأوصيكم بالله والبر والتقى

وإعراضكم، والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدنهم

وإن كنتم أهل الرياسة فاعدلوا
وإن نزلت إحدى الدواهي بقومكم

فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا
وهي طويلة تنهج هذه الوتيرة.

وعندما أسن الشاعر عبدة بن الطبيب، ورابه بصره، جمع بنيه. ، أنشدهم وصية رائعة مطلعها:-(13*)

أبني إني قد كبرت ورابني
بصري، وفي لمصلح مستمتع

وهي في ثلاثين بيتا، زاخرة بالمعاني الإسلامية، والحكمة البالغة. وظل فن الوصية مزدهرا في العصر الأموي، وعمت موجته كثيرا من الشعراء، مثل النابغة الشيباني، الذي وصلت إلينا إحدى وصاياه الطويلة التي يقول فيها: (14*)

إن من يركب الفواحش سرا
حين يخلو بسوءة غير خال

كيف يخلو وعنده كاتباه
شاهداه، وربه ذو المحال

استمع يا بني من وعظ شيخ

عـجـم الـدهـر فـي الـسـنـين الخـوالـي
فـاتـق الـلـه مـا اسـتـطـعـت وأحـسـن
إن تـقـوى الـلـه خـيـر الخـلال

ومنهم الصلتان العبدي، الذي وصى ابنه بأبيات حكيمة، أسوة بوصية لقمان الحكيم ابنه، افتتحها بقوله:-(*15)

ألـم تـر لـقـمـان وصـى ابـنـه
ووصـيـت عـمـرا فـنـعـم الـوصـي

وهكذا استطاع شعر الوعظ والإرشاد ومنه أشعار الوصايا، استيعاب المعاني والأفكار الإسلامية، ونقل مضامين العصر الجديد ومفاهيمه إلى الآخرين.

الزهد:-

ومما دعا إليه الإسلام الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، فالمسلم الصحيح من رفض متاعها، وزهد عما فيها، وعاش لأخرته، وهذا لا يعني الدعوة إلى الرهبنة والانقطاع عن الدنيا، لأن الإسلام يدعو إلى العمل والاعتدال في التمتع بما وهب الله من زخارف الحياة ومتاعها، بلا إفراط أو تفريط.

وقد انتشر في أرجاء الدولة الإسلامية عدد كبير من الوعاظ الزهاد الذين لا يفترون عن الدعوة إلى الزهد، والابتعاد عن ملذات الدنيا ومتعها، ويذكرون بالموت والآخرة، مستلهمين آيات القرآن الكريم، ؛ وسيرة خير الزهاد وقدوتهم محمدﷺ، وأحاديثه الشريفة.

انتشر هؤلاء الوعاظ الزهاد بعد أن كثرت الأموال بأيدي الناس، وبدأت الحياة تميل نحو الترف والعب من ملذات الدنيا ونعيمها.

وكان من الطبيعي أن ترك تلك المواعظ أثرها البالغ في نفوس الشعراء الذين كانوا يترددون على مجالس الوعاظ ودروسهم.

وظهر ذلك جليا في أشعارهم، وعرف بشعر الزهد عدد من شعراء صدر الإسلام، كعروة بن زيد الخيل وأبى الأسود الدؤلي.

أما من الشعراء الأمويين فعرف سابق البربري، ومالك بن دينار، وعروة بن أذينة، ومعظم شعراء الخوارج.

واستطاع هؤلاء الشعراء أن يتمثلوا مبادئ الزهد وأصوله الأولى، كما استطاعوا أن يجعلوا هذا اللون من الشعر غرضا مستقلا قائما بذاته، يقوم على أسس ومبادئ الزهد الإسلامي التي تتمثل في ترك العرض الفاني، والرضا بالقليل منه، والرغبة في نعيم الآخرة الدائم. قال حرب بن المنذر بن الجارود: (16*)

فحسبي من الدنيا كفاف يقيمني
وأثواب كتان ازور بها قبري

ومن الصور التي ينزع فيها الشعراء إلى النفور من الدنيا، والتعلق بمتاعها الزائل، قول سابق البربري:-(17*)

أموالنا لذوي الميراث نجمعها
ودورنا لخراب الدهر نبنيها
والنفس تكلف بالدنيا وقد علمت
إن السلامة منها ترك ما فيها

وحتى شعراء اللصوصية في العصر الأموي نجد لديهم شذرات من هذه الفكرة، حيث يقول عبيد بن أيوب العنبري اللص:-(18*)

تبكي على الدنيا سفاها وقد ترى
بعينيك إن لم يبق إلا ذميمها
ألا إنما الدنيا كنهي قرارة
تسامى قليلا ثم هبت سمومها

ويكثر شعراء الزهد من ذكر الموت، وتتكرر صور القبور في أشعارهم ويطيلون الوقوف عند تلك الصور والاعتبار بها، ليميتوا في النفوس كل رغبة في الدنيا أو إقبال على زخرفها.

وكان مالك بن دينار يخرج كل خميس لزيارة القبور، وينشد هذه الأبيات، فيبكي ويبكي الآخرين: (19*)

ألا حي القبور ومن بهنه
وجوه في القبور أحبهنه
فلو إن القبور سمعن صوتي
إذا لأجبنني من وجدهنه
ولكن القبور صمتن عني

فـــأبـــت بـــحـــســـرة مـــن عـــنـــدهـــنـــه

وزار القبور ذات مرة، فقال: [20*]

أتـــيـــت الـــقـــبـــور فـــنـــاديـــتـــهـــن

أيـــن الـمـــعـــظـــم والمحـــتـــقـــر؟

وأيـــن الـمـــدل بـــســـلـــطـــانـــه ؟

وأيـــن الـمـــزكـــي إذا مـــا افـــتـــخـــر؟

تـــفـــانـــوا جـــمـــيـــعـــا فـــمـــا مـــخـــبـــر

ومـــاتـــوا جـــمـــيـــعـــا ومـــات الخـــبـــر

فـــيـــا ســـائـــلـــي عـــن أنـــاس مـــضـــوا

أمـــا لـــك فـــيـــمـــا تـــرى مـــعـــتـــبـــر؟

ويتحدث أعشى همداني عن الموت، ويرسم صورة ما بعد الحياة بأسلوب يخاطب فيه الروح، ليرتفع الإنسان عن عالمه المادي إلى عالم الروح الفسيح، وتترامى أشعاره إلى سمع عمر بن عبد العزيز، فلا يملك نفسه من البكاء، حتى تخضل لحيته، قال: [21*]

وبـــيـــنـــمـــا المـــرء أمـــســـى نـــاعـــمـــا جـــذلا

فـــي أهـــلـــه مـــعـــجـــبـــا بـــالـــعـــيـــش ذا أنـــق

غـــرا أتـــيـــح لـــه مـــن حـــيـــنـــه عـــرض

فـــمـــا تـــلـــبـــث حـــتـــى مـــات كـــالـــصـــعـــق

ثـــمـــت أضـــحـــى مـــن غـــب ثـــالـــثـــة

مـــقـــنـــعـــا غـــيـــر ذي روح ولا رمـــق

يـــبـــكـــى عـــلـــيـــه، وأدنـــوه لمـــظـــلـــمـــة

تـــعـــلـــى جـــوانـــبـــهـــا بـــالـــتـــرب والـــفـــلـــق

فـــمـــا تـــزود ممـــا كـــان يـــجـــمـــعـــه

إلا حـــنـــوطـــا ومـــا واراه مـــن خـــلـــق

وغـــيـــر نـــفـــحـــة أعـــواد تـــشـــب لـــه

وقـــل ذلـــك مـــن زاد لمـــنـــطـــلـــق

ويظل هاجس الموت يؤرق الشعراء، ويمنع عن عيونهم أغمض ويحرمهم النوم، وقد صور سابق البربري هذا الهاجس المفزع بقوله: [22*]

تـــأويـــنـــي هـــم كـــثـــيـــر بـــلابـــلـــه

طــروقــا فــغــال الــنــوم عــنــي غــوائــلــه

فــويــحــي مــن المــوت الــذي هــو واقــع

ولــلــمــوت بــاب أنــت لا بــد داخــلــه

أيــا مــن ريــب الــدهــر يــا نــفــس واهــن

تجــيــش لــه بــالمــفــظــعــات مــراجــلــه

ويظل يوم الحساب في الآخرة ماثلا بين أعين شعراء الزهد، فينغص معيشتكم، ويقلق راحتهم، ويسلبهم لذة العيش، يقول سابق: [*23]

وكيف يلذ العيش من هو عالم بأن اله الخلق لا بد سائله فيأخذ منه ظلمه لعباده ويجزيه بالخير الذي هو فاعله ويحضر الإمام الحسن البصري جنازة النوار زوجة الفرز دق، ويجتمع به على قبرها ويقول: ماذا أعددت لهذا المضجع ؟ قال الفرز دق: شهادة أن لا اله إلا الله، منذ ثمانين عاما. فقال الحسن: هذا العمود فأين الطنب.؟

فقال الفرزدق في الحال:

أخــاف وراء الــقــبــر إن لــم يــعــافــنــي

اشــد مــن الــقــبــر الــتــهــابــا واضــيــقــا

إذا جــاءنــي يــوم الــقــيــامــة قــائــد

عــنــيــف وســواق يــســوق الــفــرزدقــا

لــقــد خــاب مــن أولاد دارة مــن مــشــى

إلــى الــنــار مــغــلــول الــقــلادة مــوثــقــا

يــقــاد إلــى نــار الجــحــيــم مــســربــلا

ســرابــيــل قــطــران لــبــاســا مــحــرقــا [*24]

ومــن المــبــادئ إلــى تــتــكــرر فــي شــعــر

الــزهــاد الــقــنــاعــة والــرضــا بــالــقــلــيــل

والتوكل على الله في أمور الحياة عامة، وفي الرزق خاصة، ولذلك نرى أبا الأسود الدؤلي يعبر عن تلك المبادئ، ويصور يقينه بذلك، حيث يقول: [*25]

وإذا طــلــبــت مــن الحــوائــج حــاجــة

فــادع الإلــه واحــســن الاعــمــالا

فــلــيــعــطــيــنــك مــا أراد بــقــدرة

فــهــو الــلــطــيــف لمــا أراد فــعــالا

إن الــعــبــاد وشــأنــهــم وأمــورهــم

بــيــد الإلــه يــقــلــب الأحــوالا

فــدع الــعــبــاد ولا تــكــن بــطــلابــهــم

لــهــجــا تــضــعــضــع لــلــعــبــاد ســؤالا

وقد صدر كعب بن زهير في بعض أشعاره عن روح تقربه إلى حد كبير من كبار الزهاد المسلمين، فقال مخاطبا امرأته بأسلوب ينم عن قناعة ورضا وتوكل، لا تصدر إلا عن إيمان عميق، وزهد صادق، حيث قال:(*26)

أعــلــم أنــي مــتــى مــا يــأتــنــي قــدري

فــلــيــس يــحــبــســه شــح ولا شــفــق

والمــرء والمــال يــنــمــى ثــم يــذهــبــه

مــر الــدهــور ويــفــنــيــه فــيــنــســحــق

فــلا تــخــافــي عــلــيــنــا الــفــقــر وانــتــظــري

فــضــل الــذي بــالــغــنــي مــن عــنــده نــثــق

أن يــفــن مــا عــنــدنــا فــالــلــه يــرزقــنــا

ومــن ســوانــا ولــســنــا نــحــن نــرتــزق

أما الشاعر الزاهد عروة بن أذينة، فقد عبر عن ذلك اليقين بقوله:(*27)

لــقــد عــلــمــت ومــا الإســراف مــن خــلــقــي

إن الــذي هــو رزقــي ســوف يــأتــيــنــي

أســعــى لــه فــيــعــنــيــنــي تــطــلــبــه

ولــو قــعــدت أتــانــي لا يــعــنــيــنــي

خــيــمــي كــريم، ونــفــســي لا تحــدثــنــي

إن الإلــه بــلا رزق يــخــلــيــنــي

كما إن تقوى الله، والانكباب على عبادته، والورع عن محارمه، كل ذلك كان من مظاهر الزهد الإسلامي ومميزاته، فجسده شعراء الزهد، وبخاصة الخوارج، سلوكا لهم في حياتهم، فقال شاعر الخوارج عمرو بن الحصين العنبري يصفهم:-(*28)

مــتــأهــبــون لــكــل صــالحــة

نــاهــون مــن لاقــوا عــن الــنــكــر

إلا تجــيــئــهــم مــانــهــم

رجـف الـقـلـوب بـحـضـرة الـذكـر

مـتـأوهـون إلا كـأنـهـم

لخـشـوعـهـم صـدروا عـن الحـشـر

إلى أن يقول:-

كـم مـن أخ لـك قـد فـجـعـت بـه

قـوام لـيـلـتـه إلـى الـفـجـر

مـتـأوهـا يـتـلـو قـوارع مـن

آي الـكـتـاب، مـفـزع الـصـدر

ظـمـآن وقـدت كـل هـاجـرة

تـراك لـذتـه عـلـى قـدر

تـراك مـا تـهـوى الـنـفـوس إذا

رغـب الـنـفـوس دعـا إلـى المـزري

وعلى هذه الشاكلة نجد دعوة نصر بن سيار إلى الزهد في الدنيا، والتزود بتقوى الله، ودوام تذكر يوم الحساب. [(29*)]:-

دع عـنـك دنـيـا وأهـلا أنـت تـاركـهـم

مـا خـيـر دنـيـا وأهـل لا يـدومـونـا

اكـثـر تـقـى الـلـه فـي الإسـرار مـجـتـهـدا

إن الـتـقـى خـيـره مـا كـان مـكـنـونـا

واعـلـم بـأنـك بـالأعـمـال مـرتـهـن

فـكـن لـذاك كـثـيـر الـهـم مـحـزونـا

واقترن الزهد الإسلامي بالجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى محاربة الظلم والطغيان، فلا غرابة أن نجد شعر الزهد يموج بصور الجهاد، والدعوة إلى طلب الشهادة مع استصغار الحياة، والاستهانة بما فيها، قال عروة بن زيد الخيل:-[(30*)]

وكـم كـربـة فـرجـتـهـا وكـريـهـة

شـددت لـهـا أزري إلـى أن تجـلـت

وقـد أضـحـت الـدنـيـا لـدي ذمـيـمـة

وسـلـيـت عـنـهـا الـنـفـس حـتـى تـسـلـت

واصـبـح هـمـي فـي الجـهـاد ونـيـتـي

فـــلـــلـــه نـــفـــس أدبـــرت وتـــولـــت
فـلا ثـروة الـدنـيـا تـريـد اكـتـسـابـهـا
ألا أنـــهـــا عـــن وفـــرهـــا قـــد تـــخـــلـــت
ومـــاذا ارجـــي مـــن كـــنـــوز جـــمـــعـــتـــهـــا
وهـــذي المـــنـــايـــا شـــرعـــا قـــد أظـــلـــت

وللخوارج أشعار كثيرة تجري على هذه الوتيرة، وتنطوي على صور رائعة من الدعوة إلى الجهاد، وطلب الموت، واستعذاب الشهادة في سبيل الله.

وهكذا استطاع شعراء الزهد تمثل مبادئ الزهد الإسلامي التي تقوم على ترك اللذائذ الفانية والرضا بالقليل، والرغبة في نعيم الآخرة الدائم، والتوكل على الله والثقة به، وكثرة عبادته، والابتعاد عن محارمه، ودوام ذكر الموت، والوقوف عند صوره المفزعة والإحساس بهول يوم القيامة والإعداد له.

شعر الفتوحات:

لقد حبب الله تعالى إلى المؤمنين الجهاد، وزينه في قلوبهم، فقال تعالى: «فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما[*31]». وثمة عشرات الآيات التي تحثهم على الجهاد وتدعو إلى القتال في سبيل الله.

كما أكدت الأحاديث النبوية أهميته، فجعلته افضل الأعمال بعد الإيمان، ودورة سنام الإسلام، وبابا من أبواب الجنة، وكانت سيرة رسول الله القدوة الحسنة في الجهاد في سبيل الله والتضحية من أجل الإسلام.

فاندفع العرب في أقطار الأرض فاتحين محررين، إعلاء لرسالة الحق ونشرا لتعاليم الإسلام في أرجاء المعمورة، بعد أن أمدهم الإسلام بطاقة روحية هائلة.

وقد اجتذب ألق الجهاد كل المؤمنين وجميع الشعراء المسلمين، الذين استبدت بهم روح الشوق إلى ساحات الشرف والفداء، فاستجابوا لداعي الحق، وكانوا في طليعة الجيوش الإسلامية الزاحفة.

وقد ترددت المعاني الإسلامية الجديدة في أشعار أولئك المجاهدين

المنطلقين في سبيل الله، وهم يحملون في صدورهم تعاليم الإسلام، ويحدوهم الهدف النبيل الذي خرجوا من أجله، وهو النصر لإعلاء كلمة الله، أو الشهادة ودخول الجنة.

وقد عبر عن ذلك المغيرة بن شعبة حين التقى برستم قائد الفرس، فقال: يدخل من قتل منا الجنة، ومن قتل منكم النار، ويظهر من بقي منا على من بقي منكم.(*32)

وتمثل أشعار أبناء الشاعرة الكبيرة الخنساء في معركة القدسية تلك الروح العالية التي كان يحملها المجاهدون وتجسد معاني البطولة، وتصور روح الفداء والتضحية في سبيل المبادئ الخيرة، فقد حضرت الشاعرة حرب القدسية ومعها بنوها الأربعة فنصحتهم ، وحثتهم على القتال والإقدام، فلما أضاء لهم الصبح بكروا مراكزهم وانشأ أولهم يقول:-

يا أخوتي إن العجوز الناصحه
قد نصحتنا إذ دعتنا البارحه
مقالة ذات بيان واضحه
فبكروا الحرب الضروس الكالحه
وإنما تلقون عند الصائحه
من آل ساساني الكلاب النابحه
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحه
وانتم بين حياة صالحه
أو ميتة تورث غنما رابحه

وتقدم فقاتل حتى استشهد، ثم حمل الثاني وهو يقول:-

إن العجوز ذات حزم وجلد
والنظر الأوفق والرأي السدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد
نصيحة منها وبرا بالولد
فباكروا الحرب حماة في العدد
إما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عز الأبد
في جنة الفردوس والعيش الرغد

فقاتل حتى استشهد ثم حمل الثالث، وهو يقول:-

والـــلـــه لا نـــعـــصـــي الـــعـــجـــوز حـــرفـــا
قـــد أمـــرتـــنـــا حـــربـــا وعـــطـــفـــا
نـــصـــحـــا وبـــرا صـــادقـــا ولـــطـــفـــا
فـــبـــادروا الـــحـــرب الـــضـــروس زحـــفـــا
حـــتـــى تـــلـــفـــوا آل كـــســـرى لـــفـــا
أو يـــكـــشـــفـــوكـــم عـــن حـــمـــاكـــم كـــشـــفـــا
أنـــا نـــرى الـــتـــقـــصـــيـــر عـــنـــكـــم ضـــعـــفـــا
والـــقـــتـــل فـــيـــكـــم نـــجـــدة وزلـــفـــى

فقاتل حتى استشهد، ثم حمل الرابع وهو يقول:-

لـــســـت لـــخـــنـــســـاء ولا لـــلأخـــر
ولا لـــعـــمـــرو ذي الـــســـنـــاء الأقـــدم
إن لـــم أرد فـــي الـــجـــيـــش جـــيـــش الأعـــجـــم
مـــاض عـــلـــى الـــهـــول خـــضـــم خـــضـــرم
إمـــا لـــفـــوز عـــاجـــل ومـــغـــنـــم
أو لـــوفـــاء فـــي الـــســـبـــيـــل الأكـــرم

فقاتل حتى استشهد، فبلغ أمهم الخنساء الخبر فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.(*33)

ويعبر الشاعر جميل بن سعيد عن عقيدة المجاهدين الصادقين في القتال حين يقول: (*34)

ولـــســـت أبـــالـــي إن قـــتـــلـــت، لأنـــنـــي
أرجـــي بـــقـــتـــلـــي فـــي الـــجـــنـــان مـــقـــامـــي

والشاعر المجاهد عبد الله بن رواحه يتوجه لغزو الروم في مؤتى، ويودعه أصحابه قائلين: نسأل الله أن يردك سالما، فيجيبهم بقوله:-

لـــكـــنـــنـــي اســـأل الـــرحـــمـــن مـــغـــفـــرة
وضـــربـــة ذات فـــرغ تـــنـــضـــح الـــزبـــدا
أو طـــعـــنـــة بـــيـــدي حـــران مـــجـــهـــزة
بـــحـــربـــة تـــنـــفـــذ الأحـــشـــاء والـــكـــبـــدا
حـــتـــى يـــقـــولـــوا إذا مـــروا عـــلـــى جـــدثـــي

يـــا ارشـــد الـــلـــه مـــن غـــاز وقـــد رشـــدا(*35)

تلك كانت أغاني وأناشيد الشعراء في فتواتهم الإسلامية، وهى إحدى ثمرات الإسلام الشعرية. ومن ثمراته الأخرى في تلك الفتوحات لون جديد من الأشعار يتشوق فيها الشعراء إلى مواطن صباهم ، وملاعب طفولتهم التي بعدوا عنها سائحين في بلاد الله النائية، فحركت لوا عج البعاد فيهم أحاسيس الشوق، ومشاعر الحنين إلى تلك المواطن الغالية، فأرسلوا زفراتهم أشعارا مشحونة بالعواطف الرقيقة، والمشاعر الصادقة.

فهذا أحد الشعراء المجاهدين يحس بالحنين إلى موطنه نجد، متشوقا إلى أرضها، متطلعا إلى خيامها، فلا ينفك يرسل عبراته متحجرة فيقول:(*36)

اكـــرر طـــرفـــي نـــحـــو نجـــد وإنـــنـــي
بـــرغـــمـــي وان لـــم يـــدرك الـــطـــرف انـــظـــر
حـــنـــيـــنـــا إلـــى ارض كـــأن تـــرابـــهـــا
إذا أمـــطـــرت عـــود ومـــســـك وعـــنـــبـــر
بـــلاد كـــأن الأقـــحـــوان بـــروضـــه
ونـــور الأقـــاحـــي وشـــي بـــرد مـــحـــبـــر
أحـــن إلـــى ارض الحـــجـــاز وحـــاجـــتـــي
خـــيـــام بـــنـــجـــد دونـــهـــا الـــطـــرف يـــقـــصـــر
ومـــا نـــظـــري مـــن نـــحـــو نجـــد بـــنـــافـــع
اجـــل-لا-ولـــكـــنـــي إلـــى ذاك أنـــظـــر
أفـــي كـــل يـــوم نـــظـــرة ثـــم عـــبـــرة
لـــعـــيـــنـــيـــك مـــجـــرى مـــائـــهـــا يـــتـــحـــدر
مـــتـــى يـــســـتـــريـــح الـــقـــلـــب إمـــا مـــجـــاور
بـــحـــرب فـــمـــا نـــازح يـــتـــذكـــر

وقد فتقت الفتوح قرائح كثير من الآباء الشيوخ، إما تشبثا ببقاء أبنائهم معهم، أو شوقا إليهم بعد أن بعدوا عنهم وفارقوهم، وهم في اشد الحاجة إليهم .

وأشعارهم في ذلك تعبر عن قصص ومواقف إنسانية عظيمة، لم يستطع ولاة الأمور إزاءها إلا الاستجابة لندائهم المكلوم، وإرجاع أبنائهم إليهم .

ومن تلك الأشعار أبيات الشاعر المخبل السعدي الذي تطوع ابنه الوحيد

في جيش سعد بن أبي وقاص المتوجه إلى بلاد فارس، فقال:-

أيمـلـكـنـي شـيـبـان فـي كـل لـيـلـة
لـقـلـبـي مـن خـوف الـفـراق وجـيـب
ويـخـبـرني شـيـبـان إن لـم يـعـقـنـي
تـعـق إذا فـارقـتـنـي وتحـوب

ويقول فيها :-

فـان يـكـو غـصـنـي اصـبـح الـيـوم بـالـيـا
وغـصـنـك مـن مـاء الـشـبـاب رطـيـب
إذا قـال صـحـبـي يـا ربـيـع ألا تـرى؟
أرى الـشـخـص كـالـشـخـصـين وهـو قـريـب
أشـيـبـان مـا يـدريـك إن كـل لـيـلـة
غـبـقـتـك فـيـهـا والـغـبـوق حـبـيـب

وكان الشاعر المخبل قد أسن وضعف، وكاد يغلب على عقله، فعمد إلى ماله ليبيعه ويلحق بابنه، فمنعه علقمة بن هودة وأعطاه فرسا وقال له:

أنا اكلم لك عمر في رد ابنك، وتوجه إلى عمر، وانشده أبيات المخبل، فرق له عمر، وكتب إلى سعد يأمره أن يرد شيبان إلى أبيه، فرده عليه، ولم يزل عنده حتى مات.[*37]

ويهاجر كلاب بن أميه بن الأشقر إلى المدينة في خلافة عمر، ويقيم بها مدة، ثم يلقى طلحة والزبير فيسألهما: أي الأعمال افضل ؟ فيقولان له: الجهاد في سبيل الله. فيتوجه إلى الخليفة عمر ويسأله أن يغزيه، فيرسله عمر للغزو، وكان أبوه قد كبر وضعف، فلما طالت غيبة كلاب قال أبوه وكان شاعرا:

لمـن شـيـخـان قـد نـشـدا كـلابـا
كـتـاب الـلـه إن حـفـظ الـكـتـابـا
إذا هـتـفـت حـمـامـة بـطـن وج
عـلـى بـيـضـاتـهـا ذكـرا كـلابـا
وانـك والـتـمـاس الأجـر بـعـدي
كـبـاغـي المـاء يـتـبـع الـسـرابـا
تـركـت أبـاك مـرعـشـة يـداه

وأمـــك مـــا تـــصـــيـــغ لـــهـــا شـــرابـــا

وأكثر من أشعاره الباكية يتشوق فيها إلى ابنه، حتى بلغ شعره عمر، فكتب إلى سعد يأمره بإقفال كلاب، فلما قدم، أرسل عمر إلى أمية فقال له: أي شيء احب إليك ؟ قال: النظر إلى بنى كلاب، فدعاه له، فلما رآه اعتنقه وبكى بكاء شديدا، فبكى عمر، وقال: يا كلاب الزم أباك وأمك ما بقيا.(38*)

واستأثرت المشاهد الغريبة التي لم يألفها العرب من قبل، بقسط كبير من اهتمام شعراء الفتوحات الإسلامية، فصوروا تلك المشاهد تصويرا دقيقا، وأودعوا الأشعار دهشتهم واستغرابهم لتلك المناظر التي كانوا يرونها لأول مرة، ومن تلك المشاهد الغريبة الفيلة، وقد ذكرها كثير من الشعراء في أشعارهم، كقول ربيعة بن مقروم يفخر برؤيتها: (39*)

ودخـــلـــت أبـــنـــيـــة المـــلـــوك عـــلـــيـــهـــم

ولـــشـــر قـــول المـــرء مـــالـــم يـــفـــعـــل

وشـــهـــدت مـــعـــركـــة الـــفـــيـــول وحـــولـــهـــا

أبـــنـــاء فـــارس بـــيـــضـــهـــا كـــالأعـــبـــل

وكان القعقاع بن عمرو أول فارس يواجه الفيل الأعظم يوم القادسية فيقطع مشفره، ويفقأ عينه، فقال في ذلك مشبها الفيلة ذوات الأجسام الضخمة بالبيوت: (40*)

فـــان كـــنـــت قـــاتـــلـــت الـــعـــدو فـــلـــلـــتـــه

فـــإنـــي لألـــقـــى فـــي الحـــروب الـــدواهـــيـــا

فـــيـــولا أراهـــا كـــالـــبـــيـــوت مـــغـــيـــرة

اســـمّـــل أعـــيـــانـــا لـــهـــا ومـــآقـــيـــا

وأفاض الرجاز في وصف الفيلة، وأبدعوا في ذلك.(41*)

ولفتت كنائس الروم التي حلوها بالزخارف والنقوش، أنظار الشعراء، فذكروها في أشعارهم ، وأعربوا عن مشاعرهم، وهم يشهدونها لأول مرة.(42*)

ووصفوا القصور الشاهقة والقلاع الحصينة التي لم يسبق أن رأوا مثلها من قبل، فعندما وصل المسلمون إلى الحيرة من ارض العراق، ورأوا قصورها العالية، لم يتمالك الشاعر عاصم بن عمرو التميمي نفسه، وانطلق

قائلا [43*]

صبحنا الحيرة الروحاء خيلا
ورجلا فوق أثباج الركاب
حضرنا في نواحيها قصورا
مشرّعة كأضراس الكلاب

وحين كان يشد المجاهدون على أعدائهم لم يكن ذلك يلهيهم عن التوجه إلى الله، يستمدون منه العون، أو ينسيهم إن يستنزلوا النصر منه تعالى، بل كانت ألسنتهم تلهج بذكره، وقلوبهم تعمر بالتوكل عليه واليقين بنصره، فقائد المسلمين في فتح دمشق خالد بن الوليد يحمل على الروم وهو ينشد: [44*]

لك الحمد مولاي على كل نعمة
وشكرا لما أوليت من سابغ النعم
مننت علينا بعد كفر وظلمة
وأنقذتنا من حندس الظلم والظلم
وأكرمتنا بالهاشمي محمد
وكشفت عنا ما نلاقي من الغمم
فتمم اله العرش ما قد نرومه
وعجل لأهل الشرك بالبؤس والنقم

ولم يفتر لسان المجاهدين عن ذكر الله، ولا قلوبهم عن الإنابة إليه، فضرار بن الأزور يبتدر لحرب الروم في فتح دمشق، وهو يقول: [45*]

عليك ربي في الأمور المتكل
اغفر ذنوبي إن دنا مني الأجل
يا رب وفقني إلى خير العمل
وعني امح سيدي كل الزلل
أنا ضرار الفارس القرم البطل
باغ على الأعداء أضحى المتصل
اقمع بسيفي الروم حتى تضمحل
مالي سواك في الأمور من أمل

وأسهم الشعر في تحريض المؤمنين على الجهاد ومواصلة الكفاح، وكان

من ابلغ الوسائل في استنهاض الهمم، والهاب جذوة الحماس في صدور المقاتلين، فأنشده القادة يحرضون به جنودهم على المضي في الجهاد، كما انشده الجنود يستحثون به رفاقهم في السلاح والعقيدة على مواصلة الجهاد والنضال.

فكانت أشعار الفتوحات الإسلامية أناشيد رائعة تزخر بروح الإيمان والاستبسال، كقول قائد معركة اليرموك خالد بن الوليد:[(46*)]

هبوا جميع اخوتي أرواحا
نحو العدو نبتغي الكفاحا
نرجو بذاك الفوز والنجاحا
إذا بذلنا دونه أرواحا
ويرزق الله لنا صلاحا
في نصرنا الغدو والرواحا

وحين عظم النزال، واشتد أوار القتال بين المسلمين والروم في حروبهم لفتح الصعيد بمصر، خرج من بين صفوف المقاتلين الشاعر رفاعة بن زهير المحاربي، يحرض الناس على القتال وهو ينشد قائلا:[(47*)]

يا معشر الناس والسادات والهمم
ويا أهيل الصفايا معدن الكرم
فسددوا العزم لا تبغوا به فشلا
ومكنوا الضرب في الهامات والقمم
وخلفوا القوم في البيداء مطرحة
على الثرى خمشاً بالذل والنقم

وبعد: فقد كان الجهاد الذي حاول البعض أن يرد إليه انشغال العرب عن قول الشعر من أهم العوامل التي أذكت جذوة الشعر، وجعلته يسير على السنة المجاهدين سواء في غزواتهم الأولى أو في فتوحاتهم.

وان هذا الجهاد قد فتق آفاقا جديدة أمام الشعر العربي، تجلت في شعر الحنين ورثاء النفس والأعضاء واحتسابها في سبيل الله، ووصف الطبيعة الجديدة في الميادين والأمصار المفتوحة.

ويمكن أن نعد شعر الفتوحات نموذجا حيا لاستجلاء آثار الإسلام في الشعر العربي، حيث كان يعبر عن واقع حياة المسلمين آنذاك وعقيدتهم

بكل تفصيلاتها.

شعر الشكوى:-

وقد استغل بعض الولاة في ظل النظام الجديد مناصبهم ، وخرجوا على قاعدة الأمانة والنزاهة اللتين يفترض أن يتحلوا بهما، فلم يسكت الشعراء على تصرفاتهم بل كانوا يغرون الخلفاء، ويسألونهم أن يجردوا هؤلاء المسيئين من أموالهم، أو يشاطروهم فيها، وكأن الشعراء يقولون لولاة الأمور: حاسبوهم على وفق قانون «من أين لك هذا ؟»

والشعراء في كل ذلك يصدرون عن روح الإسلام وتعاليه التي تؤكد الأمانة وتحث على النزاهة وعفة اليد واللسان.

قال يزيد بن الصعق موجها شعره إلى الخليفة عمر بن الخطاب: (48*)

أبلغ أمير المؤمنين رسالة
فأنت أمين الله في النهي والأمر

وأنت أمين الله فينا ومن يكن
أمينا لرب العرش يسلم له صدري

فلا تدعن أهل الرساتيق والقرى
يسيغون مال الله في الأدم الوفر

فأرسل إلى الحجاج فاعرف حسابه
وأرسل إلى جزء وأرسل إلى بشر

ولا تنسين النافعين كليهما
ولا ابن غلاب من سراة بني نصر

وما عاصم منها بصفر عيابه
وذاك الذي في السوق مولى بني بدر

وأرسل إلى النعمان فاعرف حسابه
وصهر بني غزوان وأني لذوخبر

وشبلا فسله المال وابن محرش
فقد كان في أهل الرسانيق ذا ذكر

فقاسمهم-نفسي فداؤك-انهم
سيرضون إن قاسمتهم منك بالشطر

ولا تـــدعـــونـــي لـــلـــشـــهـــادة أنـــنـــي
أغـــيـــب ولـــكـــنـــي أرى عـــجـــب الـــدهـــر
نـــؤوب إذا آبـــوا ونـــغـــزو إذ غـــزوا
فـــأنـــىّ لـــهـــم أوفـــر ولـــســـنـــا أولـــى وفـــر

فقاسم الخليفة عمر هؤلاء الذين ذكرهم الشاعر شطر أموالهم .

وفي العصر الأموي ازدادت شكوى الشعراء لتجاوزات الولاة، ومخالفات السعاة. وحين أرهق السعاة قوم الشاعر الراعي النميري، وكلفوهم مالا يطيقون، وصبوا عليهم سياط ظلمهم ، حتى أفقروا أغنياءهم واهزلوا فقراء. رفع الشاعر الراعي النميري صوته بالشكوى إلى الخليفة عبد الملك بن مروان فقال: (49*)

أولـــي أمـــر الـــلـــه أنـــا مـــعـــشـــر
حـــنـــفـــاء نـــســـجـــد بـــكـــرة وأصـــيـــلا
عـــرب نـــرى لـــلـــه فـــي أمـــوالـــنـــا
حـــق الـــزكـــاة مـــنـــزلا تـــنـــزيـــلا
قـــوم عـــلـــى الإســـلام لمـــا يمـــنـــعـــوا
مـــا عـــونـــهـــم ويـــضـــيـــعـــوا الـــتـــهـــلـــيـــلا
فـــادفـــع مـــظـــالـــم عـــيـــلـــت أبـــنـــاءنـــا
عـــنـــا وأنـــقـــذ شـــلـــونـــا المـــأكـــولا
إن الـــســـعـــاة عـــصـــوك حـــين بـــعـــثـــتـــهـــم
وأتـــوا دواعـــي لـــو عـــلـــمـــت وغـــولا
إن الـــذيـــن أمـــرتـــهـــم أن يـــعـــدلـــوا
لـــم يـــفـــعـــلـــوا ممـــا أمـــرت فـــتـــيـــلا

وهي قصيدة طويلة يعدد فيها الشاعر مظالم الولاة، ومساوئ السعاة، مستنجدا بالخليفة ليرفع عن قومه ما لحقهم من حيف وما انزل بهم الولاة من ظلم.

ويستغيث الشاعر كعب الأشقري، وهو في خراسان، بالخليفة عمر بن عبد العزيز، ويخاطبه بشأن عماله، ويصفهم بالذئاب وبمخالفتهم أوامر الخليفة، وانهم لا يرعون حتى يعمل السيف فيهم، فيقول: (50*)

إن كـــنـــت تحـــفـــظ مـــا يـــلـــيـــك فـــإنمـــا
عـــمـــال أرضـــك بـــالـــبـــلاد ذئـــاب

لـــن يـــســـتـــجـــيـــبـــوا لـــلـــذي تـــدعـــو لـــه
حـــتـــى تجـــلـــد بـــالـــســـيـــوف رقـــاب

ويرفع الفرزدق شكواه إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك صارخا من ظلم العامل الذي أسرف في سوء معاملة الرعية وشق عليهم، فضربهم بالسياط، حتى ألجأهم إلى اخذ الربا ليوفوا له ما يطلبه، لا يهمه إن دخل هؤلاء نار جهنم، أو خلدوا في صقر، ويحاول أن يستثير الخليفة بذكر شيمه الإسلامية، فيقول:[*51]

أمـــيـــر المـــؤمـــنـــين وأنـــت تـــشـــفـــي
بـــعـــدل يـــديـــك أدواء الـــصـــدور

فـكـيـف بـعـامـل يـسـعـى عـلـيـنـا
يـكـلـفـنـا الـدراهـم فـي الـبـدور[*52]

وأنـــى بـــالـــدراهـــم وهـــي مـــنـــا
كـــرافـــع راحـــتـــيـــه إلـــى الـــعـــبـــور[*53]

إذا ســقــنــا الــفــرائــض لــم يــردهــا
وصـــد عـــن الـــشـــويـــهـــة والـــبـــعـــيـــر

إذا وضـــع الـــســـيـــاط لـــنـــا نـــهـــارا
أخـــذنـــا بـــالـــربـــا ســـرق الحـــريـــر

فـــأدخـــلـــنـــا جـــهـــنـــم مـــا أخـــذنـــا
مـــن الاربـــاء مـــن دون الـــظـــهـــور

فـــلـــو ســـمـــع الخـــلـــيـــفـــة صـــوت داع
يـــنـــادي الـــلـــه: هـــل لـــي مـــن مـــجـــيـــر؟

وأصـــوات الـــنـــســـاء مـــقـــرنـــات
وصـــبـــيـــان لـــهـــن عـــلـــى الحـــجـــور

إذا لأجـــابـــهـــن لـــســـان داع
لـــديـــن الـــلـــه مـــغـــضـــاب نـــصـــور

أمـــين الـــلـــه يـــصـــدع حـــين يـــقـــضـــي
بـــديـــن مـــحـــمـــد، وبـــه أمـــور

وشكا الشاعر عبد الله بن الزبير الأسدي الوالي ابن أم الحكم «أخت معاوية» عبد الرحمن الثقفي إلى خاله الخليفة معاوية، لأنه اشتد في أمر

الخراج، وعامل الناس بالظلم وابتعد صد عن الحق فقال بكل جرأة وشجاعة :-(*54)

ألا ابــــلـــــغ مـــعــــــاويـــــة بــــن حــــرب
فــقـــد خـــرب الـــســــواد فــــلا ســــوادا
وان جـــبــــالــــنـــا خـــربـــت وبـــادت
فــقــد تــركــت لحــالــبــهــا جــمــادا
فــهـــل لـــك أن تـــدارك مـــا لـــديــنـا
وتــرفـــع عـــن رعـــيـــتـــك الـــفــســـادا
فـــان امــــيـــنــكـــم لا الـــلـــه يـــخـــشـــى
ولا يـــــنـــــوي لأمــــتـــــكـــم ســـــدادا
إذا مـــا قــــلـــت: اقـــصــــر عــــن هــــواه
تمـــــادى فــــي ضـــــلالـــــتــــه وزادا

ورفع الشاعر عبد الله بن همام السلولي شكواه إلى عبد الله بن الزبير من عماله الذين خانوا الأمانة، وظلموا الرعية، وذكر أسماءهم الصريحة في قصيدة طويلة منها :-(*55)

يـــا ابـــن الـــزبـــيـــر، أمـــيـــر المـــؤمـــنـــين ألـــم
يـــبـــلـــغـــك مـــا فـــعـــل الـــعـــمـــال بـــالـــعـــمـــل ؟
بـــاعـــوا الـــتـــجـــار طـــعـــام الأرض واقـــتـــســـمـــوا
صـــلـــب الخـــراج، شـــحـــاحـــا قـــســـمـــة الـــنـــفـــل
وقـــدمـــوا لـــك شـــيـــخـــا خـــائـــنـــا خـــذلا
مـــهـــمـــا يـــقـــل لـــك شـــيـــخ كـــاذب، يـــقـــل
وقـــيـــل طـــالـــب حـــق ذو مـــرانـــيـــة
جـــلـــد الـــقـــوى، لـــيـــس بـــالـــوانـــي ولا الـــوكـــل
اشـــدد يـــديـــك بـــزيـــد إن ظـــفـــرت بـــه
واشـــف الأرامـــل مـــن دحـــروجـــة الجـــعـــل (*56)

وهكذا لم يقف الشعراء موقف المتفرج الصامت وهم يرون بعض العمال والولاة يميلون عن الحق، أو يتبعون الهوى، آو يجورون على من في أمرتهم من ضعاف المسلمين وفقرائهم، فكانت أشعارهم السنة حق تنادي بالعدل وتدعو ألي محاسبة المقصرين، وتحث على الالتزام بحدود الشريعة والنزوع

إلى معالجة الواقع.

الشعر السياسي:-

جاء الإسلام داعيا إلى إعلاء كلمة الله، والى تحقيق الشريعة الإلهية المتمثلة بالإسلام، الذي يدعو نظامه إلى تطبيق الحرية والمساواة والعدالة والشورى في أرجاء الأرض كافة.

فكان من الطبيعي أن يجد مناهضة شديدة من شعراء قريش، ومن والاهم من شعراء القبائل واليهود.

واحتدم الصراع بين شعراء الفريقين، وهب شعراء صدر الإسلام يذودون عن حياض الإسلام وتعاليمه، مناقشين أفكار المشركين، مسفهين آراءهم، مظهرين فساد النظام القبلي السائد في المجتمع الجاهلي، وبذلك بذرت بذرة الشعر السياسي.

وكان حسان بن ثابت أول الشعراء المسلمين الذين ابتكروا الشعر السياسي في ظل الإسلام، حيث كانت قصيدته في وفد بني تميم من أول أشعاره السياسية، يقول فيها :-(*57)

إن الذوائب من فهرو أخواتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الإله، وبالأمر الذي شرعوا

ومنها :-

كم من موال لهم نالوا كرامته
ومن عدو عليهم جاهد جدعوا

ومنها :-

أكرم بقوم رسول الله قائدهم
إذا تفرقت الأهواء والشيع

وبعد انتصار الإسلام، مضى الشعراء ينظمون أشعارهم مع الأحداث، وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وتطل بوادر الاختلاف بين المهاجرين والأنصار عمن يخلفه، ويواكب الشعر هذا الحدث الكبير، ويعبر الشعراء عن آرائهم السياسية، كل منهم يحاول تأييد من يرى جدارته

بالخلافة.

فيقول شاعر الأنصار النعمان بن العجلان:-[*58]

وكـــان خـــطـــاء مـــا أتـــيـــنـــا وأنـــتـــم
صـــوابـــاً كـــأن لا نـــريـــش ولا نـــبـــري
وقـلـتـم: حـرام نـصـب سـعـد ونـصـبـكـم
عـتـيـق بـنـي عـثـمـان حـلال أبـا بـكـر
وأهـل أبـو بـكـر لـهـا خـيـر قـائـم
وان عـلـيـا كـان اخـلـق لـلأمـر
وكـان هـوانـا فـي عـلـيّ وانـه
لأهـل لـهـا مـن حـيـث نـدري ولا نـدري
وهـذا بـحـمـد الـلـه يـشـفـي مـن الـعـمـى
ويـفـتـح آذانـا ثـقـلـن مـن الـوقـر
فـلـولا اتـقـاء الـلـه لـم تـذهـبـوا بـهـا
ولـكـن هـذا الخـيـر اجـمـع لـلـصـبـر
ولـم نـرض إلا بـالـرضـا ولـربـمـا
ضـربـنـا بـأيـديـنـا إلـى اسـفـل الـصـدر

ويجمع المسلمون على مبايعة أبي بكر بعدما حدث في سقيفة بني ساعده، وينهض شاعر المهاجرين ابن أبى عزة الجمحي مغتبطا، فيقول: مؤيدا ذلك الإجماع السياسي، مننددا بتطلعات الأنصار نحو الخلافة:-[*59]

شـكـرا لمـن هـو بـالـثـنـاء حـقـيـق
ذهـب الجـمـيـع وبـويـع الـصـديـق
مـن بـعـد مـا دحـضـت بـسـعـد نـعـلـه
ورجـا رجـاء دونـه الـعـيـوق
إن الخـلافـة فـي قـريـش مـا لـكـم
فـيـهـا ورب مـحـمـد مـعـروق

وتلوح بوادر الردة في عصر أبي بكر ويقوم الشعر بدور كبير في محاولة توحيد الأمة تحت راية الإسلام، وأعادتها إلى النظام الواحد في ظل الإسلام. , وفيما ذكرنا من أشعار تلك الحركة في شعر الوعظ والإرشاد ما يغنينا عن الآتيان بالأمثلة الشعرية هنا.

ولم تتبلور الأفكار السياسية بالمعنى الدقيق إلا بعد مقتل عثمان، وبدء الاضطرابات والفتن داخل المجتمع الإسلامي الموحد، وتوزع الناس إلى، شيع وأحزاب متنافسة، لكل منها فهمه الخاص لنظام الحكم، ووسائله في الدعاية لآرائه وفهمه، ومع ذلك فقد ظلت العقيدة الدينية محور الاختلاف والخصومة بين تلك الفئات.

وكانت الأشعار في أول الفتنة العثمانية عتابا رقيقا، ثم صارت تعنيفا شديدا فيما بعد، بسبب تأييد أو خذلان عثمان.

فلام كعب بن مالك الأنصار لقعودهم عن نصرته ونكوصهم عن الدفاع عنه، ومدح حسان بني عمرو بن عوف الذين دافعوا عن عثمان، ولكنه عنف الأنصار لموقفهم المتخاذل في تلك الفتنة.

وتتسع الهوة بين المسلمين، وتبرز المواقف المتناقضة بعد مصرع عثمان، وتعصف رياح الفرقة في عهد علي. وتتأكد اكثر في مطلع العصر الأموي، وتتبلور الأشعار السياسية المعبرة عن الاتجاهات والنظريات المختلفة.

ومع ذلك فكل الشعر السياسي الذي ازدهر في العصر الأموي كان يستمد مبادئه من هدي الإسلام وأصوله الأولى. وبخاصة فيما كان يضفي الشعراء على قادة وزعماء أحزابهم من شمائل وصفات.

ومعروف أن الناس، ومنهم الشعراء، انقسموا في هذا العصر إلى فريقين رئيسيين، فريق مؤيد للحكم، وآخر مخالف له، أي فريق الحزب الأموي في جهة، وفريق الحزب العلوي والى جانبه الأحزاب الطارئة المؤقتة كالخوارج والزبيريين في جهة أخرى.

أما شعراء الأمويين فقد حاولوا تأكيد الصلة الوثيقة بين حكم الأمويين والدين، يقول الفرزدق: [*60]

أبى الله ألا نصركم بجنوده
وليس بمغلوب من الله صاحبه
أبى الله إلا أن ملككم الذي
به ثبت الدين الشديد نصائبه

وكانوا يؤكدون في أشعارهم قدرية خلافة الأمويين، واختيار الله لهم، ولا سبيل إلى تبديل أو تغيير ما قضى الله به. [*61]

وخلعوا الصفات الدينية على زعماء الأمويين، ونسبوا إليهم كل الفضائل

والمناقب الدينية التي عرف بها العلويون والخوارج، فعندما يمدح جرير عبد الملك بن مروان يقول: [*62]

لـــولا الخـــلــيــفــة والــــقـــرآن يـــقـــرؤه

مــا قـــام لــلـــنـــاس أحـــكـــام ولا جـــمـــع

أنـــت الأمــــين أمـــين الـــلـــه لا ســـرف

فـــيـــمـــا ولـــيـــت ولا هـــيـــابـــة ورع

أنــت المـبــارك يــهــدي الــلــه شــيــعــتــه

إذا تـــفـــرقـــت الأهـــواء والـــشـــيـــع

ويمدح الفرزدق يزيد بن عبد الملك بمثل هذه المناقب فيقول: [*63]

وأنـــت غـــيـــاث الأرض والـــنـــاس كـــلـــهـــم

بـك الـلـه قـد أحـيـا الـذي كـان بـالـيـا

ومـــا وجـــد الإســـلام بـــعـــد مـــحـــمـــد

وأصـحـابـه لـلـديـن مـثـلـك راعـيـا

وحتى فكرة المهدي المنتظر التي ينادي بها العلويون، أخذها شعراء الأمويين واسبغوها على خلفائهم.[*64] أما العلويون، فكان الكميت بن زيد الأسدي، شاعر هم المعبر عن آرائهم السياسية، والمدافع عن حقهم في الخلافة، والمفند لحجج وأفكار مناوئيهم.

وتضم هاشميا ته التي تقارب ستمائة بيت تلك الأفكار والاحتجاجات كاملة.

وكان الكميت يستعين بأسلوب الاحتجاج بالقرآن الكريم، لتأكيد حق بني هاشم في الخلافة كقوله: [*65]

وجـــدنـــا لـــكـــم فـــي حـــامـــيـــم آيـــة

تـــأولـــهـــا مـــنـــا تـــقـــي ومـــعـــرب

وفـــي غـــيـــرهـــا آيـــا وآيـــا تـــتـــابـــعـــت

لـكـم نـصـب فـيـهـا لـذي الـشـك مـنـصـب

كما ناقش موضوع وراثة الأمويين للخلافة، وأكد إن كان أحد يرث رسول الله * فآل بيته بنو هاشم أولى الناس بذلك. [*66]

وقـــالـــوا: ورثـــنـــاهـــا أبـــانـــا وأمـــنـــا

ومـــا ورثـــتـــهـــم ذاك أم ولا أب

يــرون لــهــم فــضــلا عــلــى الــنــاس واجــبــا
ســفــاهــا وحــق الــهــاشــمــيــين أوجــب

ولو دققنا النظر في أفكار الهاشميات الأساسية لوجدناها محددة بفكرتين تتبعان من تعاليم الإسلام وأفكاره، وهما: فكرة المساواة بين المسلمين، وفكرة توزيع الثروة.(*67) ونرى الكميت حين يهجو الأمويين إنما يهجوهم لبعدهم عن هدي القرآن والسنة، وضلالة بدعهم التي طالما أحدثوها، كما ابتدع الرهبان ما لم ينزل به وحي.

لــهــم كــل عــام بــدعــة يــحــدثــونــهــا
أزلــوا بــهــا اتــبــاعــهــم ثــم اوجــلــوا
كــمــا ابــتــدع الــرهــبــان مــا لــم يــجــيء بــه
كــتــاب ولا وحــي مــن الــلــه مــنــزل
تحــل دمــاء المــســلــمــين لــديــهــم
ويــحــرم طــلــع الــنــخــلــة المــتــهــدل (*68)

وثمة رواية طريفة عن نظم الكميت الهاشميات تقول: لما قال الكميت الهاشميات، قدم البصرة فأتى الفرزدق فقال:-يا أبا فراس أنا ابن أخيك. قال: ومن أنت ؟ فانتسب له. فقال صدقت. فما حاجتك ؟.

قال نفث على لساني، وأنت شيخ مضر و شعرها، وأحببت أن اعرض عليك ما قلت، فان كان حسنا أمرتني بإذاعته، وان كان غير ذلك أمرتني بستره، وسترته علي.

فقال: يا ابن أخي، احسب شعرك على قدر عقلك. فتات ما قلت راشدا. فأنشده:-

طــربــت ومــا شــوقــا إلــى الــبــيــض اطــرب
ولا لــعــبــا مــنــي وذو الــشــيــب يــلــعــب
قــال: بــلــى، فــالــعــب. فــقــال:
ولــم يــلــهــنــي دار ولا رســم مــنــزل
ولــم تــطــربــنــي بــنــان مــخــضــب
قــال فــمــا يــطــربــك إذن ؟ فــقــال:
ومــا أنــا ممــن يــزجــر الــطــيــر هــمــه
أصــاح غــراب أم تــعــرض ثــعــلــب

قال: فما أنت ويحك ؟ والى من تسمو؟ فقال:

ومـا الـسـانـحـات الـبـارحـات عـشـيـة
أمـر سـلـيـم الـقـرن أم مـر اغـضـب ؟

قال: ما هذا . فقد أحسنت فيه ؟ فقال:

ولـكـن إلـى أهـل الـفـضـائـل والـنـهـى
وخـيـر بـنـي حـواء والخـيـر يـطـلـب

قال: ومن هم ويحك ؟ فقال:

إلـى الـنـفـر الـبـيـض الـذيـن بـحـبـهـم
إلـى الـلـه فـيـمـا نـابـنـي أتـقـرب

فقال: أرحني ويحك، من هؤلاء ؟ فقال:

بـنـي هـاشـم رهـط الـنـبـي فـأنـنـي
لـهـم وبـهـم أرضـى مـرارا واغـضـب

قال: لله درك يا بني أصبت فأحسنت إذ عدلت عن الزعانف والأوباش.[*69]

أما الزبيريون الذين كانوا اقل شعرا ممن سواهم، لعدم إيمان زعيمهم عبد الله بن الزبير بدور الشعر في دعوته، فقد عرف من شعرائهم المترجمين لسياستهم وأفكارهم عبيد الله بن قيس الرقيات الذي عرف بمدحه لآل الزبير بمناقب استمدها من صفات ومثاليات الإسلام، كقوله في مصعب بن الزبير:-[*70]

إنمـا مـصـعـب شـهـاب مـن الـلـه
تجـلـت عـن وجـهـه الـظـلـمـاء
يـتـقـي الـلـه فـي الأمـور وقـد افـلـح
مـن كـان هـمـه الاتـقـاء

إما الخوارج فقد اخضعوا أشعارهم كلها للمقاييس الدينية التي آمنوا بها، وصدروا في سلوكهم عنها، وافنوا حياتهم من اجل سيادتها . وقد تحدثنا عن أشعار الزهد لديهم ، ونضيف هنا بأنهم كانوا يدينون من يتخذ الشعر وسيلة لكسب أو جاه، يقول عمران ابن حطان مخاطبا الفرزدق:-[*71]

أيـهـا المـادح الـعـبـاد لـيـعـطـى
إن لـلـه مـا بـأيـدي الـعـبـاد

فاسأل الله ما طلبت إليهم
وارج فضل المقسم العواد
لا تقل في الجواد ما ليس فيه
وتسمي البخيل باسم الجواد

وقد كفر بعض شعرائهم كل من لا يدين بأفكار ومبادئ الخوارج التي يعتقدون أنها الإسلام الصحيح، وكل ما دونها ضلال. قال سبرة بن الجعد :(*72)

فمن مبلغ الحجاج أن سميره
قلى كل دين غير دين الخوارج
رأى الناس إلا من رأى مثل رأيه
ملاعين تراكين قصد المخارج

وللخوارج آراء سياسية يتفق كثير منها مع مبادئ الإسلام، وقد يخالفونه في بعضها، ولكن أشعارهم لا تجسد تلك الآراء إلا ذرات قليلة منها، كما أوضحنا سابقا. ومع ذلك فقد كان الشعر السياسي وثائق صدق للحرية التي تمتع بها الأفراد في ظل الدولة العربية الإسلامية، وأمثلة حية على قدرة الأمة على التفكير والتحرك السياسيين في إطار المسؤولية الفردية والجماعية.

الغزل العذري:

من المعروف إن الإسلام قد هذب كثيرا من مشاعر اتباعه، وصقل أحاسيسهم، وطهر نفوسهم من إدراك المجون، ونزه ألسنتهم عن فحش القول، وبعد بهم عن كل ما يشين سلوكم. وصنع جيلا من الشباب المؤمن الطاهر العفيف، البعيد عن كل ألوان الفساد.

وكانت بادية الحجاز ونجد الموطن الخصب لنشأة هذا الجيل في العصر الأموي، حي اكتملت نشأته في ظل التربية الإسلامية بتوجيه ورعاية الصحابة والتابعين.

وكان الحب العذري أثرا لهذه التربية، وصدى لتعاليم الإسلام، التي غرست الطهر والفضيلة والعفاف في نفوس هؤلاء الرجال، ووليدا طبيعيا لالتقاء العاطفة الدينية ونزعة الغريزة الجنسية في نفوس المؤمنين الصادقين.

وقد اختصت بوادي نجد والحجاز بهذا اللون من الحب لأنها الأرض التي يقطنها أبناء الجيل الذين نشأتهم الصحابة والمتابعون فاكتملت نشأتهم، ولأنها موطن المثل والتقاليد البدوية، ولأن أهل الحجاز قد جبلوا على الظرف، وشاع بينهم روح التسامح حتى بين فقهائهم الكبار، كسعيد بن المسيب مفتي المدينة، وسيد التابعين الذي وصفه الإمام احمد بن حنبل بقوله: سعيد بن المسيب افضل التابعين، وكان يفتي وأصحاب رسول الله أحياء.

لقد كان هذا العالم الجليل يجب إنشاد شعر الغزل، ويحكم بجودته أحيانا، حتى قال جامع بن مرخية الكلابي:-

سألت سعيد بن المسيب مفتي ال
مدينة هل في حب ظمياء من وزر
فقال سعيد بن المسيب: إنما
تلام على ما تستطيع من الأمر

فلما سمعها ابن المسيب قال: والله ما سألني أحد عن هذا، ولو سألني ما كنت أجيب إلا به.[*73]

وقال عبد الله بن عمر العمري: خرجت حاجا، فرأيت امرأة تتكلم بكلام أفحشت فيه، فأدنيت ناقتي ثم قلت لها: يا أمة الله، ألست حاجة ؟ أما تخافين الله ؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسنا، ثم قالت: تأمل يا عم، فإني من عناه العرجى بقوله:-

أماطت كساء الخزعن حروجهها
وأدنت على الخدين بردا مهلهلا
من اللائي لم يحججن يبغين حسبة
ولكن ليقتلن البريء المغفلا

قال: فقلت لها: فإني اسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار.

وبلغ سعيد بن المسيب، فقال: أما والله لو كان من بعض بغضاء العراق لقال لها: اغربي قبحك الله، ولكنه ظرف أهل الحجاز.[*74] وعندما قيل له: إن قوما بالعراق يكرهون الشعر. قال: نسكوا نسكا أعجميا.[*75]

ومنهم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أحد رجال المدينة السبعة المقدمين في الفقه والنسك والعبادة، وكان من شعراء الغزل العذري

في زمانه وحين قيل له: أتقول الشعر في فضلك ونسكك ؟ أجابهم : . إن المصدور إذا نفث برأ .

ومن شعره قوله:-

أأتـــرك آتـــيـــان الحـــبـــيـــب تـــأثـــمـــا

ألا إن هـــجـــران الحـــبـــيـــب هـــو الإثـــم [*76]

وغزل فقيه المدينة ومحدثها عروة بن أذينة معروف مشهور، إذ لم يعرف من شعره غير غزله، ومثله ناسك مكة وقارئها عبد الرحمن الجشمي الملقب بالقس لعبادته.

ومعظم الباحثين المعاصرين الذين تحدثوا عن ظاهرة الحب العذري وأشعاره عللوها بأثر الإسلام، وإنه أشرك بعضهم مع الإسلام عوامل أخرى ثانوية كالسياسة والفقر وجمال الطبيعة.

فالدكتور شوقي ضيف علل تلك الظاهرة بالإسلام فقال: ولا شك في أن تفسير موجة الغزل العذري يرجع إلى الإسلام الذي طهر النفوس، وبرأها من كل إثم وكانت نفوس أهل بوادي نجد والحجاز ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة في مكة والمدينة، ولا ما يطوي فيها من لهو وعبث، ومن تحلل أحيانا من قوانين الخلق الفاضل. [*77]

وأرجع الدكتور يوسف خليف هذا الغزل إلى اثر الإسلام أيضا حيث قال: كانت هذه الحياة الإسلامية سببا في أن يصبح هذا اللون من الحب اللون الأول في لوحة الحياة البدوية الإسلامية.

فالإسلام هو الذي حال بين عرب البادية وبين ألوان الحب الأخرى الحسية، فلم يجدوا لعواطفهم متنفسا إلا في هذا الحب العفيف الذي لا يحرمه الدين الجديد ولا ينكره. [*78]

ويرى الدكتور شكري فيصل أن هذا اللون من الغزل ما كان له أن يظهر إلا في العصر الأموي حيث اكتملت نشأة الجيل الذي مازجت التربية الإسلامية أعماقه وخالطت دماءه، وظللت طريقه.

ويرى أن الغزل العذري يجب أن يكون أثرا لتربية جيل جديد تربية صادقة صارمة. [*79]

فهو أذن صدى لتعاليم الإسلام التي تربى هؤلاء الشعراء في كنفها .

وقد توصل الدكتور احمد عبد الستار الجواري، بعد بحث طويل وتحقيق

دقيق، إلى إن هذا الحب ظاهرة اجتماعية جديدة نتجت عن التطور الذي أحدثه الإسلام في نفوس العرب، وير نقطة البدء في تاريخ العواطف في المجتمع الإسلامي.(*80)

ويقرر الدكتور غنيمي هلال اثر الإسلام في نشأة هذا الغزل فيقول: كان للدين تأثير في هذا الحب، وطبعه بطابعه فلم يكن ذلك النوع من الحب ليوجد لو لم يغز قلوبا عامرة بالعقيدة مؤمنة بالروح وبالدار الآخرة، تعتنق فضيلة الزهد، وتؤمن بجهاد النفس، وتنتظر الثواب على العفاف في الحب.(*81)

أما الدكتور عبد القادر القط فيرى أن نشرك عوامل أخرى مع الدين لكي نقدم صورة اكثر اكتمالا وشمولا لنشأته، فيقول:-

إن العفة لا تكفي وحدها لنعلل بها نشأة هذا الشعر بمقوماته العامة، وظهور هذه الطائفة من الشعراء الذين يدورون جميعا في فلك التجربة العاطفية وحدها، ولعلنا لو التمسنا بعض الأسباب الأخرى إلى جانب هذا السبب الديني، نستطيع أن نقدم صورة اكثر اكتمالا وشمولا لتلك النشأة.(*82)

فهو إذن يحاول التماس أسباب أخرى، وقد ذكر السبب الاجتماعي والسبب السياسي والسبب الحضاري، إلا انه لم يغفل التفسير الديني بل أعطاه الصدارة في تعليله.

وقد سبق هؤلاء جميعا الدكتور طه حسين عندما اقر بالتعليل الديني، ولكنه غلفه بالفقر أيضا، حين قال: كان أهل مكة والمدينة يائسين، ولكنهم أغنياء، فلهوا كما يلهو كل يائس، وكان أهل البادية الحجازية يائسين، ولكنهم كانوا فقراء، فلم يتح لهم اللهو، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية، وقد تأثروا بالإسلام وبالقرآن خاصة، فنشأ في نفوسهم شيء من التقوى ليس بالحضري الخالص، وليس بالبدوي الخالص، ولكن فيه سذاجة بدوية، وفيه رقة إسلامية، وانصرف هؤلاء الناس عن حروبهم وأسباب لهوهم الجاهلي، كما انصرفوا عن الحياة العملية في الإسلام إلى أنفسهم، فانكبوا عليها واستخلصوا منها نغمة لا تخلو من حزن، ولكنها نغمة زهد وتصوف، وأنا اعلم إن لفظ التصوف هنا لا يؤدي معناه الذي أريده، فقل: انهم انصرفوا إلى شيء من المثل الأعلى في الحياة الخلقية، وظهر هذا الزهد الديني الخالص الذي تجد له صدى في أشعار الخوارج.

والآخر هذا الغزل العفيف الذي هو في حقيقة الأمر مرآة صادقة لطموح هذه البادية إلى المثل الأعلى في الحب من جهة، ولبراءتها من ألوان الفساد التي كانت تغمر أهل مكة والمدينة من جهة أخرى.[*83]

وقد تحدث زميلنا الدكتور محمد حسن عبد الله في كتابه (الحب في التراث العربي) حديثا مسهبا ومفصلا عن آراء القدامى والمستشرقين والعرب المعاصرين في نشأة الحب العذري.[*84] وبالإضافة إلى اثر الإسلام في نشأة هذا اللون من الشعر، فإننا نحس في ثناياه جوا دينيا غامرا، وفي ألفاظه تأثرا إسلاميا واضحا، وفي معانيه أفكارا ومفاهيم دينية تنم عن ثقافة وعقيدة أصحابه.

إننا نشعر بنفحات دينية وجو ديني عندما نقرأ قول قيس بن ذريح: [*85]

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم أو قول جميل الذي يتضرع إلى الله شاكيا هجران حبيبته، ويدعوها إلى تقوى الله في معاملته: [*86]

إلــى الــلــه أشــكــو لا إلــى الــنــاس حــبــهــا
ولا بــــد مـــن شـــكـــوى حـــبــيـــب يــــروع
ألا تــتــقـــين الـــلـــه فـــيـــمـــن قـــتـــلـــتـــه
فـــأمــســى إلــيــكــم خـــاشــعـــا يــتـــضـــرع
فـــيـــا رب حـــبــبــنـــي إلـــيـــهـــا واعـــطـــنـــي ال
مـــودة مـــنـــهـــا، أنـــت تـــعـــطـــي وتمـــنـــع

وفي غزل ابن الطثرية لون واضح من الروح الدينية، حيث يقول: [*87]

وإنـــي لـــداعـــي الـــلـــه فـــي ســـاعـــة الـــضـــحـــى
عـــلـــيـــك وداع جــــنـــــح كـــــل أصـــيـــــل
ومـــحـــتـــضـــن ركـــن الـــيـــمـــانـــي ومـــشـــتـــك
إلـــى الجـــانـــب الـــغـــربـــي صـــعـــد عـــويـــلـــي

ويتحدث جميل عن الحدود الشرعية التي تقام على مخالف تعاليم الدين، وانه يستحق تلك الحدود إن كان في الحب حدود، حيث انه موقن بالا مخالفة في حبه، فيقول: [*88]

لـــئـــن كـــان فـــي حـــب الحـــبـــيـــب حـــبـــيـــبـــه
حـــدود لـــقـــد حـــلـــت عـــلـــى حـــدود

وتأثر هذا الغزل بالألفاظ والمصطلحات الإسلامية الجديدة واضح، فقد تكررت فيه ألفاظ الصلاة والسجود، والجنة والنار، والشرك والإيمان، والجهاد والشهيد، والشيطان والملائكة. مثل

قول جميل: (*89)

أصلي فأبكي في الصلاة لذكرها

لي الويل مما يكتب الملكان

أو قوله:-

لا والذي تسجد الجباه له

مالي بما دون ثوبها خبر

وقد ترك الإسلام أثرا واضحا في مفاهيم وتصورات وأفكار الشعراء العذريين، فهم مؤمنون بأن ما فيهم من حب هو قدر من الله مكتوب، ولا يستطيعون له ردا، يقول جميل:(*90)

لقد لامني فيها أخ ذو قرابة

حبيب إليه في نصيحته رشدي

فقال: أفق، حتى متى أنت هائم

ببثينة. فيها لا تعيد ولا تبدي ؟

فقلت له: فيها قضى الله ما ترى

عليّ، وهل فيما قضى الله من ردّ؟

ولا يكتفي قيس بن الملوح بترديد هذه الفكرة، بل يذهب إلى ابعد من ذلك، حيث يجعل هذا الحب لونا من ألوان الابتلاء الرباني، خصه الله به من بين العالمين، فيقول:-(*91)

خليلي، لا والله لا املك الذي

قضى الله في ليلى ولا ما قضى ليا

قضاها لغيري، وابتلاني بحبها

فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا

وهم مؤمنون بأنهم مجموعون مع من يحبون، يوم القيامة، موقنون بما حدث به رسول الله * «المرء مع من أحب».

وقد عبروا عن هذا اليقين في أشعارهم، فيقول عروة بن حزام الذي يعد من أوائل العذريين، حيث عاش في زمان الخليفة عثمان: (*92)

وإنـــي لأهـــوى الحـــشـــر إذ قـــيـــل أنـــنـــي

وعـــفـــراء يـــوم الحـــشـــر مـــلـــتـــقـــيـــان

ونكاد نحس بمشاعر الرضا بقدر الله، وما كتب على هؤلاء المحبين ونلمس صبر المؤمنين على ما ينزل بهم من ماس، ويصب عليهم من مصائب. كقولهم (*93)..

فـوالـلـه مـا أبـكـي عـلـى يـوم مـيـتـتـي

ولـكـنـنـي مـن وشـك بـيـنـك اجـزع

فـصـبـراً لأمـر الـلـه إن حـان يـومـنـا

فـلـيـس لأمـر حـمـه الـلـه مـدفـع

وفي أبيات قيس بن ذريح فهم عميق لحقيقة إرادة الله، وشعور فياض بالقناعة والرضا اللذين أشاعهما الإسلام في نفوس اتباعه، حيث يقول: (*94)

تـبـكـي عـلـى لـبـنـى وان تـركـتـهـا

وكـنـت كـآت غـيـه وهـو طـائـع

فـلا تـبـكـين فـي اثـر شـيء نـدامـة

إذا نـزعـتـه مـن يـديـك الـنـوازع

فـلـيـس لأمـر حـاول الـلـه جـمـعـه

مـشـت، ولا مـا فـرق الـلـه جـامـع

ومما سبق يتضح بأن التدين أو الزهد أو المكانة العلمية الشرعية، كل ذلك لم يقف حائلا دون الاستماع إلى الغزل العف الطاهر الرقيق، والتأثر به، بل حتى نظمه وإنشاده من قبل الفقهاء أحيانا. وان الإسلام قد ترك بصمات واضحة في أشعار فريق من شعراء الغزل المسمى بالعذري، ويتضح ذلك في الألفاظ والتعبير، وفي التصورات والأفكار.

أما الأغراض التقليدية التي كانت معروفة عندما جاء الإسلام، كالفخر والهجاء والمديح والرثاء، فقد استمر الشعراء ينظمون فيها، مع تغيير واضح طرأ على الأهداف وتعديل كبير ادخل على الألفاظ والمعاني، وتحكيم مقياس جديد لكل تلك الأغراض وهو الإسلام وتعاليمه، والنقلة الحضارية الكبيرة التي انتقل إليها المجتمع العربي. ويتجلى اثر الإسلام الكبير في تلك الأغراض كالآتي:-

الفخر والحماسة:

كانت أشعار الفخر والحماسة في صدر الإسلام اكثر الأغراض الشعرية صلة بالإسلام، لما للجهاد من مكانة في الحياة الإسلامية الجديدة، إذ كان معظم الشعراء من الأبطال المحاربين، شاركوا في المعارك بسيوفهم وأشعارهم.

وقد تطور هذا الفن الشعري على أيدي الشعراء الإسلاميين تطورا كبيرا، يمكن أن نلمسه عندما ننظر إلى المآثر التي فخر بها أولئك الشعراء.. . فلم يعد الشاعر يفخر بإعلاء كلمة القبيلة أو رفع شأنها، ولا بكسب المغنم أو سبي الأعداء. بل صار يفخر بنيل الشهادة في سبيل الله، وبتأييد الملائكة لجند الله، وبانتصار المؤمنين الصادقين، نحو قول كعب بن مالك:-(*95)

ويوم بدر لقيناكم لنا مدد
فيه مع النصر ميكال وجبريل
أن تقتلونا فدين الله فطرتنا
والقتل في الحق عند الله تفضيل

كما فخروا بالدين الجديد، وبهداية الله، يقول العوام بن جهيل:-(*96)

من مبلغ عنا شآمي قومنا
ومن حلّ بالأجواق سراً وجهرا
بأنا هدانا الله للحق بعدما
تهود منا حائر وتنصرا

ولم يعد الشاعر يفخر بقومه على أساس قبلي، وإنما صار الفخر بقوم الشاعر باعتبارهم أنصار الإسلام، وحملة دعوته الأوائل، الذين اختارهم الله من بين البرية، ليقودوا الناس من الظلمة إلي النور، يقول حسان:-(*97)

الله أكرمنا بنصر نبيه
وبنا أقام دعائم الإسلام
وبنا اعز نبيه ووليه
وأعزنا بالنصر والإقدام
نحن الخيار من البرية كلها
ونظامها وزمام كل زمام

وكرر قيس بن سعد بن عبادة هذا اللون الجديد من الفخر، فأكد فضل

قومه الأنصار: (*98)

هــذا الــلـواء الــذي كــنــا نــخــصّ بــه
مــع الــنــبــي وجــبــريــل لــنــا مــدد
مــاضــر مــن كــانــت الأنــصــار عــيــبــتــه
أن لا يــكــون لــه مــن غــيــرهــم أحــد

وتعد قصيدة النعمان بن العجلان سجلا كاملا لمفاخر الأنصار التي خدموا بها الإسلام ومنها: (*99)

نــصــرنــا وآويــنــا الــنــبــي ولــم نــخــف
صــروف الــلــيــالــي والــعــظــيــم مــن الأمــر
وقــلــنــا لــقــوم هــاجــروا: مــرحــبــاً بــكــم
وأهــلا وســهــلا قــد آمــنــتــم مــن الــفــقــر
نــقــاســمــكــم أمــوالــنــا وديــارنــا
كــقــســمــة أيــســار الجــذور عــلــى الــشــطــر
ونــكــفــيــكــم الأمــر الــذي تــكــرهــونــه
وكــنــا أنــاســا نــذهــب الــعــســر بــالــيــســر

وكان العباس بن مرداس اكثر الشعراء إلحاحا على تأكيد الفخر بقومه، على أساس إسلامي جديد، فقد نظم في يوم حنين العديد من القصائد التي تزخر بالاعتزاز بقومه، وتفيض بالإشادة بفضائلهم، وبما قدموا في سبيل الإسلام، كقوله: (*100)

دع مــا تــقــدم مــن عــهــد الــشــبــاب فــقــد
ولــىّ الــشــبــاب وزار الــشــيــب والــزعــر
واذكــر بــلاء ســلــيــم فــي مــواطــنــهــا
وفــي ســلــيــم لأهــل الــفــخــر مــفــتــخــر
قــوم هــم نــصــروا الــرحــمــن واتــبــعــوا
ديــن الــرســول وأمــر الــنــاس مــشــتــجــر (*101)

وظل يردد هذا اللون من الفخر في حنين، حتى بلغت أشعاره تسع قصائد في مائة واثنين وثلاثين بيتا. وكان الشعراء يفخرون بنعمة الإسلام التي خصهم الله بها، واسبغها عليهم، ثوب عز في الدنيا، ونعيما مقيما في الآخرة، كما يقول النابغة الجعدي: (*102)

وعــمــرت حــتــى جــاء احــمــد بــالــهــدى
وقـــوارع تـــتـــلـــى مـــن الـــقـــرآن
ولـــبـــســـت الإســـلام ثـــوبـــا واســـعـــا
مـــن ســـيـــب لا حـــرم ولا مـــنـــان

وكانت صلة الشاعر أو قومه برسول اللهﷺ، وحضورهم أو حضور آبائهم بين يدي رسول الله *، أو مبايعته، شرفا لهؤلاء الشعراء، أنطقهم بالفخر، ودعاهم إلى الزهو، يقول عبد الرحمن بن صفوان مزهوا بمكانة أبيه لدى رسول الله *:-[*103]

وأنــا ابــن صــفــوان الــذي ســبــقــت لــه
عــنــد الــنــبــي ســوابــق الإســلام

ويفخر بحر بن ضبع بمبايعة جده، ومصافحته رسول الله *:[*104]

وجــدي الــذي عــاطــى الــرســول يمــيــنــه
وخــبــت إلــيــه مــن بــعــيــد رواحــلــه

ويؤكد العباس بن عصيم هذا الشرف، ويزداد شرفا بموقف عمه أيضا :[*105]

عــصــيــم أبــى زار الــنــبــي مــحــمــداً
وعــمــي ســواء قــل هــذا الــتــفــاخــر
ولمــا دعــا داع لــديــن مــحــمــد
وفــدنــا فــمــنــا كــان ايمــن زائــر

وفي العصر الأموي واصل الشعراء النظم في هذا المنحى أيضا، فقال الفرزدق:-[*106]

ومــنــا رســول الــلــه أرســل بــالــهــدى
وبــالحــق جــاءت بــالــيــقــين نــوادره

وقال في موضع آخر من شعره:-

ومــنــا نــبــيّ الــلــه يــتــلــو كــتــابــه
بــه دوخــت أوثــانــهــا ويــهــودهــا

ويؤكد عروة بن أذينة هذا الشرف العظيم في مواضع عديدة من قصائده، فيقول: [*107]

مــنــا الــرســول نــخــيــر الــنــاس كــلــهــم

ولا نــحـــاشــي مـــن الأقـــوام إنـــســـانـــا

ويقول أيضا:

مـنــا الـرسـول وأهـل الـفـضـل أفـضـلـهـم

مــنــا وصــاحــبــه الــصــديــق فــي الــغــار

وصار الدين وازعا قويا جديدا يردع الناس عن التردي في الرذيلة، ويسموهم ويدفعهم إلى مكارم الأخلاق والفضيلة، واعترف الشعراء بأثر هذا الوازع الجديد، وفخروا به دافعا جديدا يضاف إلى العادات الحسنة، وتقاليدهم الخيرة.

قال الشاعر بيهس بن صهيب:-[(*108)]

مـا يـنـبـح الـكـلـب ضـيـفـي، قـد أسـب إذاً

ولا أقـــول لأهـــل: أطـــفـــئـــوا الـــنـــارا

مـــن خـــشـــيـــة أن يـــراهـــا جـــائـــع صـــرد

إنـــي أخـــاف عـــقـــاب الـــلـــه والـــنـــار

ويبرز أبو الأسود الدؤلي اثر الإسلام في ردعه عن الجهل والغواية، فيقول: [(*109)]

إنـــي لـــيـــثـــنـــيـــنـــي عـــن الجـــهـــل والخـــنـــا

وعـــن شـــتـــم ذي الـــقـــربـــى خـــلائـــق أربـــع

حـــيـــاء وإســـلام وبـــقـــيـــا، وأنـــنـــي

كـــريم، ومـــثـــلـــى قـــد يـــضـــر ويـــنـــفـــع

ويسير على خطاه شاعر أموي هو البحتري بن أبى صفرة فيقول: [(*110)]

وأنـــي لـــتـــنـــهـــانـــي خـــلائـــق أربـــع

عـــن الـــفـــحـــش فـــيـــهـــا لـــلـــكـــريم روادع

حـــيـــاء وإســـلام وشـــيـــب وعـــفـــة

ومـــا المـــرء إلا مـــا حـــبـــتـــه الـــطـــبـــائـــع

ويقول شاعر أموي آخر مفتخرا، وهو زيد بن الحكيم : [(*111)]

شـريـت الـصـبـا والجـهـل بـالحـلـم والـتـقـى

وراجـــعـــت عـــقـــلـــي والحـــلـــيـــم يـــراجـــع

أبـــى الـــشـــيـــب والإســـلام أن اتـــبـــع الـــهـــوى

وفـــي الـــشـــيـــب والإســـلام لـــلـــمـــرء وازع

المديح:

كانت نظرة المسلمين في صدر الإسلام إلى المديح بأنه مظهر من مظاهر الأبهة والتعاظم والكبرياء، وهي صفات نهى عنها الدين، بل أوصى بضدها، ولذلك قل ما وصل إلينا من شعر المديح في تلك الفترة بالنسبة إلى الأغراض الأخرى.

وحينما اختلفت الحياة بعد الإسلام عما كانت عليه في الجاهلية، واصبح للمسلمين قائد هو الرسول ﷺ ومن بعده الخليفة في عصر الراشدين والأمويين، كان لا بد آن يتوجه المدح إلى شخص القائد أولا، ثم من يليه من الحكام، ولا بد أن يكون ثمة فرق بين أن يمدح الشاعر الجاهلي شيخ القبيلة، وان يمدح الشاعر الإسلامي الرسول أو الخليفة أو الوالي المسلم ، فقد تغيرت أسس الحكم والقيادة وتبدلت كثير من القيم الأخلاقية والاجتماعية.

ومع أن الرسول ﷺ كان راغبا عن مدح الشعراء وموجها كل همه إلى صرف الشعراء نحو تأكيد أسس الدين الجديد، والى نشر الرسالة بين الناس، والتمكين لها في أرجاء الأرض، فان بعض الشعراء أبوا إلا مدحه، وكانت مدائحهم له اقرب إلى الشعر السياسي منها إلى المدح التقليدي، فقد حاول هؤلاء الشعراء من خلال مديحهم تأكيد جملة من المبادئ والأسس الإسلامية التي أراد رسول الله أرساها في أذهان الناس عند بدء الدعوة، تلك الأسس والمفاهيم المتجسدة في سيرته الشريفة، منها هداية الرسالة الإسلامية التي بشر بها رسول الله قومه قريشا والعرب المحيطين به أولا، ثم البشرية كافة بعد ذلك على نحو ما نرى في قول كعب بن مالك وهو يمدح الرسول ﷺ: (*112)

فينا الرسول شهاب ثم يتبعه
نور مضيء له فضل على الشهب
بدا لنا فاتبعناه نصدقه
وكذبوه فكنا اسعد العرب

وقول اسيد بن أناس فيه: (*113)

وأنت الفتى تهدي معداً لدينها
بل الله يهديها وقال لك اشهد

وحاولوا تأكيد صلة الرسالة الإسلامية بالسماء، وأنها وحي من الله، انزل على محمد لتبليغ الناس، قال كعب بن مالك: (114*)

وفـــيـــنـــا رســـول الـــلـــه نـــتـــبـــع أمـــره

إذا قـــال فـــيـــنـــا الـــقـــول لا نـــتـــطـــلـــع

تـــدلـــى عـــلـــيـــه الـــروح مـــن عـــنـــد ربـــه

يـــنـــزل مـــن جـــو الـــســـمـــاء ويـــرفـــع

ويؤكد الشاعر أصيد بن سلمة هذه الصلة، وان الله هو الذي بعث محمدا ليبلغ رسالة الرحمة إلى من في الأرض: (115*)

إن الـــذي ســـمـــك الـــســـمـــاء بـــقـــدرة

حـــتـــى عـــلا فـــي مـــلـــكـــه فـــتـــوحـــدا

بـــعـــث الـــذي لا مـــثـــلـــه فـــيـــمـــا مـــضـــى

يـــدعـــو لـــرحـــمـــتـــه الـــنـــبـــي مـــحـــمـــدا

أما الأمر الثالث الذي حاول شعراء الإسلام تأكيده من خلال مدحهم رسول الله، فهو صلاحية الرسالة التي كان يبشر بها، فهي هداية للناس في الدنيا، وإنقاذ لهم من سوء المصير في الآخرة، وفي ذلك طرف من الدعاية للدين الجديد، ونشر لمفاهيمه بأسلوب مبتكر يقول كعب بن مالك:-

فـــمـــن يـــتـــبـــعـــه يـــهـــد لـــكـــل رشـــد

ومـــن يـــكـــفـــر بـــه يـــجـــز الـــكـــفـــور

ويقول في قصيدة أخرى:-(116*)

الحـــق مـــنـــطـــقـــه والـــعـــدل ســـيـــرتـــه

فـــمـــن يـــجـــبـــه إلـــيـــه يـــنـــج مـــن تـــبـــب

أما حين كان الشعراء يمدحون الخلفاء من بعد الرسول، فانهم كانوا يصورون الجوانب المضيئة من سيرتهم ، حين يطبقون تعاليم القرآن، ويسيرون على هدي سيرة الرسول. فعندما أراد عمرو بن عاصم أن يمدح الخليفة عثمان بن عفان، قال:-(117*)

إن ابـــن عـــفـــان الـــذي جـــربـــتـــم

فـــطـــم الـــلـــصـــوص بمـــحـــكـــم الـــفـــرقـــان

مـــازال يـــعـــمـــل بـــالـــكـــتـــاب مـــهـــيـــمـــنـــا

فـــي كـــل عـــنـــق مـــنـــهـــم أو بـــنـــان

وفعلوا الشيء نفسه مع بقية الممدوحين من غير الحكام، وعدوا اقتداء الممدوح بالرسول، والسير على مناهجه، من اعظم المناقب التي يمدح بها الرجال. قال حسان يمدح الزبير بن العوام:[(118*)]

أقــام عــلــى عــهــد الــنــبــي وهــديــه

حــواريــه والــقــول بــالــفــعــل يــعــدل

أقــام عــلــى مــنــهــاجــه وطــريــقــه

يــوالــي ولــي الحــق والحــق اعــدل

وفي العصر الأموي حاول الشعراء إبراز الجوانب الدينية في ممد وحيهم من الحكام، للصلة الوثيقة بين الحاكم والدين، ولأن الحاكم كان يمثل السلطة الدينية والدنيوية في آن واحد، فتباروا في إبراز تلك الصفات الرفيعة في الممدوحين، حتى وان افتقروا الويها، ولعلهم كانوا يقصدون إلى رسم النموذج الإسلامي الذي يجب أن يتحلى به الحاكم المسلم ، ليتعمق في سلوك من يطبقه منهم فعلا، وليقترب منه من كان بعيدا عنه من الحكام، وأشعارهم في ذلك دعوة صريحة لكل المسلمين الذين يستمعون إليهم ، ليتحلوا بتلك الصفات وليعملوا على نشرها بين صفوف مجتمعهم .

فعندما أراد عبد الله بن الحشرج أن يمدح أحد الأمراء الأمويين قال:[(119*)]

أقــام لأهــل الأرض ديــن مــحــمــد

وقــد أدبــروا وارتــاب كــل مــضــلــل

فــمــا زال حــتــى قــوم الــديــن ســيــفــه

وعــزّ بــحــزم كــل قــرم مــحــجــل

أما شعراء الأحزاب السياسية فكانوا يتسابقون إلى إضفاء اكبر مقدار من المناقب الدينية على ممد وحيهم ، من قادة ورجال الأحزاب التي يؤيدونها .

فشعراء الحزب الأموي الحاكم بالغوا إلى درجة كبيرة في إثبات تلك المناقب لرجال بني أمية فقال الفرزدق يمدح يزيد بن عبد الملك:[(120*)]

ولــو كــان بــعــد المــصــطــفــى مــن عــبــاده

نــبــي لــهــم مــنــهــم، لأمــر الــعــزائــم

لــكــنــت الــذي يــخــتــاره الــلــه بــعــده

لحــمــل الأمــانــات الــثــقــال الــعــظــائــم

ويقول في الأمويين:-

ورثـتـم خـلـيـل الـلـه كـل خـزانـة
وكـل كـتـاب بـالـنـبـوة قـائـم
بـحـكـم الـذي فـوق الـسـمـاوات عـرشـه
بمـا فـي ثـري سـبـع مـن الأرض عـالـم

ويمدح سليمان بن عبد الملك فيقول:[121*]

وبـالمـسـجـد الأقـصـى الإمـام الـذي اهـتـدى
بـه مـن قـلـوب المـمـتـريـن ضـلالـهـا
بـه كـشـف الـلـه الـبـلاء وأشـرقـت
لـه الأرض والآفـاق نـحـس هـلالـهـا

وينتقل إلى مدح الأمويين فيقول:-

وجـدنـا بـنـي مـروان أوتـاد ديـنـنـا
كـمـا الأرض أوتـاد عـلـيـهـا جـبـالـهـا
وانـتـم لـهـذا الـديـن كـالـقـبـلـة الـتـي
بـهـا أن يـضـل الـنـاس يـهـدي ضـلالـهـا

ويصور النابغة الشيباني يزيد بن عبد الملك بأنه الإمام التقي الورع الذي يقطع الليل نحيبا وابتهالا، وتلاوة للقران، فيقول:[122*]

وحـبـاه المـلـيـك تـقـوى وبـرا
وهـو مـن سـوس نـاسـك وحـمـال
يـقـطـع الـلـيـل آهـة وانـتـحـابـا
وابـتـهـالا لـلـه أي ابـتـهـال
تـارة راكـعـا وطـورا سـجـودا
ذا دمـوع تـنـهـل أي انـهـلال
ولـه نـحـبـة إذا قـام يـتـلـو
سـوراً بـعـد سـورة الأنـفـال

ويمدح جرير الوليد بن عبد الملك بمثل هذه المناقب: [123*]

فـأنـت لـرب الـعـالمـين خـلـيـفـة
ولـي لـعـهـد الـلـه بـالحـق عـارف
هـداك الـذي يـهـدي الخـلائـق لـلـتـقـى

وأعطيت نصراً لم تنله الخلائف

وكان عمر بن عبد العزيز أوفر الخلفاء الأمويين حظا في تلك المدائح، لما عرف عنه من عدل وصلاح وتقوى، وتطبيق للشريعة، وتزخر اكثر دواوين الشعراء الأمويين الذين أدركوا عصره، بمدحه وتجسيد مناقبه الإسلامية.

ومن تلك المدائح قول كثير عزة، وهو معروف باتجاهه العلوي:(*124)

وأظهرت نور الحق فاشتد نوره
على كل لبس بارق الحق مظلم

وصدقت بالفعل المقال مع الذي
أتيت فأمسى راضيا كل مسلم

تكلمت بالحق المبين وإنما
تبين آيات الهدى بالتكلم

وما زلت تواقا إلى كل غاية
بلغت بها أعلى البناء المقدم

فلما أتاك الملك عفوا ولم يكن
لطالب دنيا بعده من تكلم

تركت الذي يفنى وان كان مونقا
وآثرت ما يبقى برأي مصمم

ومنها قول جرير فيه أيضا: (*125)

أنت المبارك والمهدي سيرته
تعصي الهوى وتقوم الليل بالسور

أصبحت للمنبر المعمور مجلسه
زينا وزين قباب الملك والحجر

نال الخلافة إذ كانت له قدرا
كما أتى ربه موسى على قدر

أما مديح الخوارج فنادرا ما يوجه إلى شخص بذاته، وإنما كان يوجه إلى المجموع، لأنهم قوم تشابهوا في سلوكهم، وتوحدوا في خصالهم، فحين يمدح مجموع الخوارج فإنما يعني ذلك مدح كل واحد منهم .

وطبيعي أن تكون المناقب التي يمدحون بها تعبيرا عن تقواهم، وعبادتهم وحبهم للموت، وكراهيتهم للحياة الناعمة المترفة، يقول عمر بن الحصين

العنبري:-(*126)

فـي فـتـيـة صـبـروا نـفـوسـهـم
للـمـشـرفـيـة والـقـنـا الـسـمـر
مـتـأهـبـون لـكـل صـالـحـة
نـاهـون مـن لاقـوا عـن الـنـكـر
إلا تجـيـئـهـم فـانـهـم
رجـف الـقـلـوب بـحـضـرة الـذكـر
مـتـأوهـون كـأن جـمـر غـضـى
لـلـمـوت بـين ضـلـوعـهـم يـجـري
تـلـقـاهـم، ألا كـأنـهـم
لخـشـوعـهـم صـدروا عـن الحـشـر(*127)
فـهـم كـأن بـهـم جـوى مـرض
أو مـسـهـم طـرف مـن الـسـحـر
لا لـيـلـهـم لـيـل فـيـلـبـسـهـم
فـيـه غـواشـي الـنـوم بـالـسـكـر
كـم مـن أخ لـك قـد فـجـعـت بـه
قـوام لـيـلـتـه إلـى الـفـجـر
مـتـأوهـا يـتـلـو قـوارع مـن
آي الـكـتـاب، مـقـرّح الـصـدر
نـصـب تجـيـش بـنـات مـهـجـتـه
م الخـوف، جـيـش مـشـاشـة الـقـدر
ظـمـآن وقـدة كـل هـاجـرة
تـرّاك لـذتـه عـلـى قـدّر

وعندما ندقق النظر في مدائح شعراء العلويين نجدها صورا ناطقة بالمناقب الدينية التي اسبغها الشعراء على رجال بني هاشم ، على نحو ما نرى في مديح ايمن بن خريم الأسدي للهاشميين، وكان يتشيع لهم:(*128)

نـهـاركـم مـكـابـدة وصـوم
ولـيـلـكـم صـلاة واقـتـراء

ولــيــتــم بــالــقــرآن و بــالــتــزكــي
فــأســرع فــيــكــم ذاك الــبــلاء
أأجــعــلــكــم وأقــوامــاً ســواء
وبــيــنــكــم وبــيــنــهــم الــهــواء
وهــم أرض لأرجــلــكــم وانــتــم
لأرؤســهــم وأعــيــنــهــم ســمــاء

وسبق أن تحدثنا عن هاشميات الكميت، التي كرس شعره فيها لمدح بني هاشم ، اصل الحزب العلوي والشيعي فيما بعد. وهي زاخرة بالمناقب الدينية التي اقتبسها الشاعر من القرآن الكريم.

والى جانب هذا اللون السياسي من المديح، استحدث لون جديد من المديح، توجه به الشعراء إلى الذات الإلهية، معترفين بقدرته، مشيدين بأفضله، مقرين بإنعامه على المخلوقات كافة، وهو اقرب إلى الدعاء منه إلى المديح، فقد اتخذ الشعراء من الأساليب والألفاظ التي يرددها المؤمنون في صلواتهم وعباداتهم وسيلة لذلك المديح، كالذي نراه في قول حسان: (*129)

وأنــت الــه الخــلــق ربــي وخــالــقــي
بــذلــك مــا عــمــرت فــي الــنــاس اشــهــد
تــعــالــيــت ربّ الــنــاس عــن قــول مــن دعــا
ســواك إلــهــاً أنــت أعــلــى وامــجــد
لــك الخــلــق والــنــعــمــاء والأمــر كــلــه
فــإيــاك نــســتــهــدي وإيــاك نــعــبــد

ومثله قول عبد الله بن أبي رهم: (*130)

وأقــول إذ طــرق الــصــبــاح بــغــارة
ســبــحــانــك الــلــهــم رب مــحــمــد
ســبــحــان ربــي لا إلــه غــيــره
رب الــعــبــاد ورب مــن يــتــورد

وابتكر الشعراء لونا جديدا من المديح اختصوا به رسول الله ﷺ بعد وفاته، تعبيرا عن عواطفهم الدينية، وتقربا إلى الله تعالى بنشر محاسن الدين، والثناء على شمائل الرسول، أطلق عليه المدائح النبوية، ومن المعروف أن ما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء، ولكنه في الرسول يسمى مدحا كأنهم

لحظوا أن الرسول ﷺ موصول الحياة، وانهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء. [131*]

وثمة ألفاظ تتكرر في هذه المدائح كأنها مصطلحات يجب الالتزام بها في هذا اللون من المدائح الذي يسمى أحيانا (البديعات) أيضا، من مثل وصف الرسول ب (الهدى) ولفظة (الطريقة) وجملة (صلى الإله) وكلمة (طيبة). [132*]

وتسود أشعار المدائح النبوية نزعة صوفية حيث يبدي الشعراء رغبة صادقة في أن ينالوا الثواب على تلك الأشعار، وأن يجمعهم الله مع حضرة الرسول الكريم في جنة الخلد، ليأنسوا بجواره، ويتشرفوا بلقائه، ويسعدوا بمصاحبته كقول حسان: [133*]

يا رب فاجمعنا معا ونبينا
في جنة تثني عيون الحسد
في جنة الفردوس فاكتبها لنا
يا ذا الجلال وذا العلا والسؤدد

وتضرع إلى الله أن يحقق له تلك الأمنية العزيزة في قصيدة أخرى حيث قال: [134*]

وليس هوائي نازعاً عن ثنائه
لعليّ به في جنة الخلد اخلد
مع المصطفى أرجو بذاك جواره
وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

وحسان خليق بأن يسمى رأس البديعيين، فهو الذي بدأ الشعر في المديح النبوي [135*] وبعده كعب بن زهير بن أبي سلمى. وقد سارت مديحه كعب على الزمان، وقلدها كثير من الشعراء على مر العصور. فعارضوها وشطروها وخمسوها، وكثرت شروحها. الهجاء:

سبق أن ذكرنا أن الرسول * كان يشجع شعراء المسلمين في صراعهم مع مشركي قريش.

فحين التحم الفريقان باللسان والسنان، ودفع كل فريق بشعرائه إلى المعركة، ندب من توسم فيهم القدرة من أصحابه لهجاء المشركين، ووجههم إلى حيث يؤثرون فيهم ، ويشفون صدور المؤمنين.

لقد اقترن الهجاء بالقتال في سبيل الدعوة كما قال حسان: [*136]

لــــنـــا فـــي كـــل يــــوم مـــن مــــعـــدٍّ

ســبــاب أو قــتــال أو هــجــاء فــنــحــكــم

بــالــقــوافــي مــن هــجــانــا ونــضــرب

حــيــن تــخــتــلــط الــدمــاء

فازدهر فن الهجاء بنوعيه، الفردي والجماعي، وبرز شعراء مسلمون في هذا الميدان، ولكنه اختلف عن الهجاء القديم، إذ لم يكن تسرعا بالشعر إلى إعراض الناس، ولا قذفا بألوان الشتائم والمساوئ، وإنما كان هجاء لمن ضل عن طريق الحق وتنكب سبيل الهداية.

ومع ذلك فلم يترسم الشعراء طريقة القرآن في هجاء المشركين والمنافقين واليهود.

فالقرآن قد هجاهم بأسلوب جديد، يعتمد تسفيه معتقداتهم ، ومناقشة حججهم ثم إبطالها بعد كشف زيفها وتهافتها، وفضح ما يسرون وما كانوا به يتآمرون.

فمن هجاء القرآن للمشركين أن أمية بن خلف كان إذا رأى رسول الله * همزه ولمزه، فأنزل الله تعالى فيه: «ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالا وعدده، يحسب أن ماله أخلده، كلا لينبذن في الحطمة، وما أدراك ما الحطمة، نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة. إنها عليهم مؤيدة في عمد ممدة» [*137]

وقصة أبى لهب وزوجته مشهورة في كتب السيرة، فنزلت بحقه وحق زوجته أم جميل بنت حرب (حمالة الحطب) سورة «تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى نارا ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد» فلما سمعت أم جميل ما نزل فيها، وفي زوجها أتت أبا بكر، وفي يدها فهر (حجر) فقالت: يا أبا بكر: أين صاحبك ؟ فقد بلغني انه) يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله أني لشاعرة، ثم قالت:-

مـــــذممّـــــاً عـــــصـــــيـــــنـــــا

وأمـــــــره أبـــــــيـــــــنـــــــا

وديــــنـــه قــــلـــيـــنـــا

ثم انصرفت.[*138]

ومما هجي به المنافقون بعد أن خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ. فقال عبد الله بن أبى وكان رأس النفاق: انظروا كيف أرد عنكم هؤلاء السفهاء فذهب وكان رأس النفاق: انظروا كيف أرد عنكم هؤلاء السفهاء فذهب فأخذ بيد أبى بكر، فقال: مرحبا بالصديق، سيد بني تيم ، وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله في الغار، الباذل نفسه وماله لرسول الله، ثم اخذ بيد عمر، فقال: مرحبا بسيد بني عدي بن كعب الفاروق القوي في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله، ثم اخذ بيد علي، فقال: يا بن عم رسول الله وختنه، سيد بني هاشم ، ما خلا رسول الله ثم افترقوا ، فقال ابن أبي لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت، فإذا رأيتموني فافعلوا كما فعلت، فأثنوا عليه خيرا ، فرجع المسلمون إلى النبي * واخبروه بذلك. فنزلت الآيات في هجائهم ، وهي:-

«وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إننا معكم ، إنما نحن مستهزئون، الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم، وما كانوا مهتدين».. . إلى آخر الآيات.[*139]

أما اليهود فمما هجوا به، انهم كانوا يستفتحون على الأوس، والخزرج برسول الله * قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، كفروا وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم بعض المسلمين: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد، ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه بصفته.

فقال سلام بن مشكم أحد بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر، فانزل الله: «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما انزل الله بغيا أن ينزل الله فضله على من يشاء من عباده، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين. وإذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله، قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه، وهو الحق مصدقا لما معهم ، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين، ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم

العجل من بعده وانتم ظالمون».(140*)

وبمثل هذه المناقشات المنطقية والحجج الدامغة كان القرآن يهجو أعداء الإسلام جميعا، ويلزمهم الدليل، ويظهرهم بمظهر السفيه.

ويتلخص أسلوب القرآن الجديد في هجائهم بطريقتين تختلفان في أسلوبهما، وان كانتا تنتهيان إلى غاية واحدة. يناقش حجتهم بالدليل العقلي وبالمنطق، فيورد أقوالهم ثم ينقضها عليهم ، مبينا تفاهتها وضعف ما تستند إليه.

والطريقة الثانية اعتماده على التاريخ، يروي منه ما يكسو خصومه العار، ويصور أن ضلالتهم واعتمادهم ليس بالشيء الجديد. وقد يعتمد على تصوير الحال وإبرازه مجسما بالتمثيل أو بإلقاء الضوء على ما يتآمرون به في الظلام.(141*)

فهل أفاد الشعراء من هذا الأسلوب الرائع في هجاء أعداء الإسلام؟ وهل استطاعوا أن يتمثلوا صور الهجاء القرآني، وهي ماثلة أمام أعينهم، ويتلوها المسلمون صباح مساء.

إن ما وصل إلينا من هجاء شعراء الإسلام لا ينبئ عن انتفاعهم من تلك الصور والأساليب إلا في القليل النادر. فمعظم اهاجيهم كانت استمرارا لأسلوب الجاهليين في التعيير بالألقاب والأخلاق الشخصية، وفي الحروب والأنساب لأنهم وجدوا أن الاستمرار بتلك الطريقة هو السبيل المؤثر في نفوس الأعداء.

فتصدى لهجاء المشركين وحلفائهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهما بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان اشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان اشد القول عليهم قول ابن رواحة.(142*)

ويظهر أن الرسول ﷺ لم ينه شعراءه عن هذا النهج من الهجاء بل كان يأمرهم به ويحثهم على سلوكه بمثل قوله:

«قولوا لهم مثل ما يقولون لكم» (143*)

وفعلا كانت طريقة حسان وكعب هي التي تؤذي القرشيين المكيين، ولو

انهما رمياهم بالشرك وعبادة الأوثان لما نالا منهم، إذ كانت تلك عقيدتهم، وكانوا يعتزون بها.[*144] ومع ذلك فثمة ذرات إسلامية يمكن أن نلمسها في أشعار بعضهم ، متأثرين بمنهج القرآن في هجاء الخصوم، فعيروهم بالشرك وعبادة الأوثان، وسوء المصير والمنقلب، وبالصد عن هدي الرسول، كقول كعب بن مالك، يهجو قريشا. [*145]

فـكـبّ أبـو جـهـل صـريـعـا لـوجـهـه
وعـتـبـة قـد غـادرنـه وهـو عـاثـر
وشـيـبـة والـتـيـمـى غـادرن فـي الـوغـى
ومـا مـنـهـم إلا بـذي الـعـرش كـافـر
فـأمـسـوا وقـود الـنـار في مـسـتـقـرهـا
وكـل كـفـور فـي جـهـنـم صـائـر
وكـان رسـول الـلـه قـد قـال: اقـبـلـوا
فـولّـوا وقـالـوا: إنمـا أنـت سـاحـر

وقوله في هجاء اليهود من بني النضير، حيث ناقشهم بما أوتوا من علم الكتاب، وبكفرهم وبإنكارهم نبوة محمد وتكذيبه. [*146]

لـقـد خـزيـت بـغـدرهـا الحـبـور
كـذاك الـدهـر ذو صـرف يـدور
وذلـك انـهـم كـفـروا بـرب
عـزيـز أمـره أمـر كـبـيـر
وقـد أوتـوا مـعـاً فـهـمـاً وعـلـمـا
وجـاءهـم مـن الـلـه الـنـذيـر
فـقـالـوا: مـا أتـيـت بـأمـر صـدق
وأنـت بمـنـكـر مـنـا جـديـر
فـقـال: بـلـى، لـقـد أدّيـت حـقـاً
يـصـدقـنـي بـه الـفـهـم الخـبـيـر
فـلـمـا أشـربـوا غـدراً وكـفـراً
وحـاد بـهـم عـن الحـق الـنـفـور
أرى الـلـه الـنـبـيَّ بـرأي صـدق
وكـان الـلـه يـحـكـم لا يـجـور

فـــأيـــده وســـلـــطـــه عـــلـــيـــهـــم
وكـــان نـــصـــيـــره نـــعـــم الـــنـــصـــيـــر
فـــتـــلـــك بـــنـــو الـــنـــضـــيـــر بـــدار ســـوء
أبـــارهـــم بـــمـــا اجـــتـــرمـــوا المـــبـــيـــر

وحاول حسان بن ثابت أن يمزج بين المنهجين في هجاء أبى سفيان بن الحارث، فقال له:-

ولـــســـت بـــذي ديـــن ولا ذي أمـــانـــة
ولـــســـت بـــحـــر مـــن لـــؤي ولا كـــعـــب
ولـــكـــن هـــجـــين ذو دنـــاة لمـــقـــرف
مـــجـــاجـــة مـــلـــح غـــيـــر صـــاف ولا عـــذب

وهو نادرا ما ينفرد بالنهج الإسلامي الجديد في الهجاء، كقوله يعير قريشا بتغرير إبليس إياهم، وبموالاتهم له وطاعته حيث قال:

ســـرنـــا وســـاروا إلـــى بـــدر لحـــيـــنـــهـــم
لـــو يـــعـــلـــمـــون يـــقـــين الـــعـــلـــم مـــا ســـاروا
دلاّهـــم بـــغـــرور ثـــم أســـلـــمـــهـــم
إن الخـــبـــيـــث لمـــن والاه غـــرّار
وقـــال: إنـــي لـــكـــم جـــار فـــأوردهـــم
شـــرّ المـــوارد فـــيـــه الخـــزي والـــعـــار[*147]

ومثل قوله يعير قريشا بطاعة الشيطان، وبنداء الشرك وشعاره:-[*148]

طـــاوعـــوا الـــشـــيـــطـــان إذ أخـــزاهـــم
فـــاســـتـــبـــان الخـــزي مـــنـــهـــم والـــفـــشـــل
حـــين صـــاحـــوا صـــيـــحـــة واحـــدة
مـــع أبـــي ســـفـــيـــان قـــالـــوا: اعـــل هـــبـــل

وهذا شاعر إسلامي آخر يعير المشركين بالعكوف على الأوثان، فيقول:[*149]

لحـــا الـــلـــه أقـــوامـــا أرادوا مـــحـــمـــداً
بـــســـوء، ولا أســـقـــاهـــم ثـــوب مـــاطـــر
عـــكـــوفـــا عـــى الأوثـــان لا يـــتـــركـــونـــهـــا
وقـــد أم ديـــن الـــلـــه أهـــل الـــبـــصـــائـــر

ووجد شعراء الإسلام المخلصون في حركة الرزة، ونكوص المرتدين عن فرائض الإسلام وواجباته مدعاة للهجاء بأسلوب جديد، كقول عمارة بن قريط يهجو قومه بني عامر، لإبطالهم فريضة الصلاة، وامتناعهم عن أداء الزكاة:-(150*)

ثـقـلـت صـلاة المـؤمـنـين عـلـيـكـم
بـنـي عـامـر والحـق جـد ثـقـيـل
واتـبـعـتـمـوهـا بـالـزكـاة وقـلـتـم
ألا لا تـقـروا مـنـهـمـا بـفـتـيـل
فـلا يـبـعـد الـلـه المـهـيـمـن غـيـركـم
سـبـيـلـكـم فـي كـل شـر سـبـيـل

وسار معاذ بن يزيد العامري على هذا النهج في هجاء قومه المرتدين، فقال: (151*)

بـنـي عـامـر أيـن الـفـرار
مـن الـلـه والـلـه لا يـغـلـب
مـنـعـتـم فـرائـض أمـوالـكـم
وتـرك صـلاتـكـم اعـجـب
وكـذبـتـم الحـق فـيـمـا أتـى
وان المـكـذب لـلأكـذب

وقد نهى الإسلام عن الهجاء المقذع الذي يعتمد الفحش والقذف والسب الذي يقبح نشره، فقد جاء في الحديث الشريف:

«-من قال في الإسلام شعرا مقذعا فلسانه هدر»

ونهى عن رواية هذا الشعر فقال: من روى هجاء مقذعا فهو أحد الشاتمين. أي أن إثمه كإثم قائله.(152*)

وعندما أقذع ضابىء بن حارث البرجمي في هجاء جدول بن نهشل، وقال:-

وأمـكـم لا تـتـركـوهـا وكـلـبـكـم
فـان عـقـوق الـوالـديـن كـبـيـر

فرمى أمهم بالكلب، استعدوا عليه عثمان بن عفان، فحبسه وقال: لو أن رسول الله * حي أتحسبنه نزل فيك قرآن. وما رأيت أحدا رمى قوما بكلب

قبلك. [153*]

ولعمر بن الخطاب موقف معروف من الهجاء المقذع، وتفسير خاص لمصطلح، يضيف لمعناه السابق معنى آخر، فهو يعني عنده التفضيل والمقارنة، إذ يدخل الشاعر بين الرجلين المتنافسين ليمدح واحدا، ويهجو الآخر، فيزهو الأول ويغلي الثاني حقدا، فيشتبك الرجلان ثم يقع بين حييهما مالا تحمد عقباه من الشرور والفتن.

وقد نهى الخطيئة عنه، ثم سجنه لتماديه فيه، وحين أخرجه من السجن قال له: إياك وهجاء الناس. قال الخطيئة: إذا يموت عيالي جوعا، هذا مكسبي ومنه معاشي. قال فإياك والمقذع من القول. قال: وما المقذع. قال: أن تخير بين الناس فتقول:

فلان خير من فلان، وال فلان خير من آل فلان، قال: فأنت-والله- أهجي مني. [154*]

وفي العصر الأموي تواجهنا كثير من أشعار الهجاء المتأثرة إلى حد بعيد بمثالية الإسلام، إذ كان الشعراء يهجون خصومهم بالبعد عن الدين، وبالانحراف عن مبادئه القويمة، كالذي نراه في هجاء جرير آل المهلب حيث رماهم بالتفريط في دينهم ، وبطغيانهم طغيان ثمود، فأهلكوا بالطاغية:

آل المهلب فرطوا في دينهم
وطغوا كما فعلت ثمود فباروا

وعندما هجا الفرزدق، عير فالبعد عن مواطن العبادة، وبضعف الدين ورقته:-

ألا قبح الفرزدق كلما
أهلّ مصل للصلاة وكبرا
فلا يقربن المروتين ولا الصفا
ولا مسجد الله الحرام المطهرا
فانك لو تعطي الفرزدق درهما
على دين نصرانية لتنصرا

وعير بني قفيرة بارتكاب اكبر المحرمات وأعظمها، فلا يتقون منها شيئا:-

أخزى الإله بني قفيرة انهم
لا يتقون من الحرام كؤودا

أما في هجائه للأخطل وقومه بني تغلب، فكان يعيرهم بنصرا نيتهم ، وبما وصفهم القرآن، فيقول:-

عـبـدوا الـصـلـيـب وكـذبـوا بمـحـمـد
وبـجـبـرئـيـل وكـذبـوا مـيـكـالا

ويقارن بين صلاح قومه، وبعد قوم الأخطل عن الصلاح، وبين مصير قوم الأخطل في الآخرة، ومصير قومه، فيقول:-

تـغـشـى الملائـكـة الـكـرام وفـاتـنـا
والـتـغـلـبـي جـنـازة الـشـيـطـان
يـعـطـى كـتـاب حـسـابـه بـشـمـالـه
وكـتـابـنـا بـأكـفـنـا الأيمـان [(*155)]

والهجاء بين الأحزاب السياسية لم يعد إثارة الأحقاد في النفوس، بل صار نقاشا يدور بين شعراء تلك الأحزاب السياسية، وجانبا مهما من جوانب الدعاية السياسية ضد الأحزاب المناوئة، والاتجاهات المخالفة.

فعبيد الله بن قيس الرقيات، يعي خصومه بعدم الالتزام بكتاب الله أو الانتهاء عما نهى عنه، ويحاججهم بعدم خضوعهم لله أو تقواه، فيقو ل: [(*156)]

أيـهـا المـسـتـحـل لحـمـي كـلـه
مـن ورائـي ومـن ورائـك الحـسـاب
تـخـتـل الـنـاس بـالـكـتـاب فـهـلا
حـين تـغـتـابـنـي نـهـاك الـكـتـاب
لـسـت بـالمخـبـت الـتـقـي ولا المـح
ض الـذي لا تـذمـه الأنـسـاب

وحين يهجو الفرزدق خصوم الأمويين المحاربين إياهم، يرميهم بمثالب البعد عن الدين، ويجردهم من الإيمان، ويهددهم بسوء المنقلب والمصير، حين يقول وهو ينظر إلى أسلوب القرآن وآياته: [(*157)]

لا بـارك الـلـه فـي قـوم، ولا شـربـوا
إلا أجـاجـا، أتـونـا مـن سـجـسـتـانـا
مـنـافـقـين اسـتـحـلـوا كـلّ فـاحـشـة
كـانـوا عـلـى غـيـر تـقـوى الـلـه أعـوانـا

ألـم يــكــن مــؤمــن فــيــهــم فــيــنــذرهــم
عــذاب قــوم أتــوا لــلــه عــصــيــانــا
وكـم عـصـى الـلـه مـن قـوم فـأهـلـكـهـم
بـالـريـح، أو غـرقـا بـالمـاء طـوفـانـا

وعندما قتل مصعب بن الزبير زوجة المختار، ابنة الصحابي النعمان ابن بشير، لم يعيره سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بالمثالب التي كانت شائعة بين الشعراء وفق المقاييس القديمة، وإنما راح يعرض سيرة هذه المرأة الطاهرة، ويسرد فضل وسابقة قومها الأنصار في الإسلام، ثم خلص إلى القول بخروج قتلتها على الإسلام، وهذا الهجاء لون من الدعاية السياسية ضد الزبيريين، قتلة هذه المرأة الأنصارية. قال:-(158*)

أتـى راكـب بـالأمـر ذي الـنـبـأ الـعـجـب
بـقـتـل ابـنـة الـنـعـمـان ذي الـديـن والحـسـب
بــقــتــل فــتــاة ذات دلّ ســتــيــرة
مــهــذبــة الأخــلاق والخــيــم والــنــســب
مــطــهــرة مــن نــســل قــوم أكــارم
مـن المـؤثـريـن الخـيـر فـي سـالـف الحـقـب
خـلـيـل الـنـبـي المـصـطـفـى ونـصـيـره
وصـاحـبـه فـي الحـرب والـضـرب والـكـرب
أتــانــي بــأنّ المــلــحــديــن تــوافــقــوا
عـلـى قـتـلـهـا فـتـجـنـبـوا الـقـتـل والـسـلـب
فـلا هـنـأت آل الـزبـيـر مـعـيـشـة
وذاقــوا لــبــاس الــذل والخــوف والحــرب
كــأنــهــم إذ أبــرزوهــا وقــطــعــت
بـأسـيـافـهـم فـازو بمـمـلـكـة الـعـرب
ألـم تـعـجـب الأقـوام مـن قـتـل حـرة
مـن المحـصـنـات الـديـن محـمـودة الأدب
مـن الـغـافـلات المـؤمـنـات بـريـئـة
مـن الـذم والـبـهـتـان والـشـك والـكـذب

وهجاء الخوارج الأمويين ينم عن تأثر كبير بأسلوب القرآن، وفهم دقيق

لمعانيه، فلما قسا عبيد الله بن زياد على الخوارج، وقتل منهم جماعة بينهم عروة بن أدية، خرج أخو عروة مرداس في أربعين رجلا وأرسل إليهم ابن زياد ألفين فهزمهم مرداس، فقال قيس بن فاتك في ذلك:(*159)

أألفا مؤمن-فيما زعمتم-
ويقتلهم ب (آسك) أربعونا ؟
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم
ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة قد علمتم
على الفئة الكبيرة ينصرونا

وتأثر النص بأفكار الإسلام ومعانيه واضح، ويمكن أن نرى ذلك في كثير من النماذج الهجائية الأخرى سواء في الألفاظ أو المفاهيم .

النقائض :

سبق إن أشرنا في الصراع الشعري بين مكة والمدينة في عصر الرسالة إلى استغلال الشعراء فن النقائض في ذلك الصراع.

ومعروف إن النقائض لون من ألوان الهجاء الملتزم وان أهم ما يعتمد عليه الشاعر في نقائضه نقض المعاني التي ترد في قصيدة الشاعر الآخر، وهناك عدة طرق يسلكها الشاعر للوصول إلى هذا الغرض، ليصل إلى الهجاء، منها :-

وطريقة التوجيه: يفسر فيها الشاعر الحادثة بما يؤيد موقفه.

فعندما فخر عمرو بن العاص بنصر قريش في أحد، وعجز المسلمين عن تحقيق هذا النصر، فقال: (*160)

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا
مع الصبح من رضوى الحبيك المنطق
تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا
لدى جنب سلع والأماني تصدق
فما راعهم بالشر إلا فجاءة
كراديس خيل في الأزقة تمرق

أرادوا لـكـمـا يـسـتـبـيـحـوا قـبـابـنـا
ودون الـقـبـاب الـيـوم ضـرب مـحـرق
كـان رؤوس الخـزرجـيـين غـدوة
وإيمـانـهـم بـالمـشـرفـيـة بـروق

ناقضه كعب بن مالك، وسلك طريقة التوجيه، ولى يتخاذل لعدم انتصار المسلمين في أحد، بل صور صبرهم وبلاءهم في تلك المعركة، وأكد اعتزاز المسلمين بقيادة الرسول ﷺ، قال: (*161)

ألا ابـلـغـا فـهـراً عـلـى نـأي دارهـا
وعـنـدهـم مـن عـلـمـنـا الـيـوم مـصـدق
بـأن غـداة الـسـفـح مـن بـطـن يـثـرب
صـبـرنـا ورايـات المـنـيـة تـخـفـق
صـبـرنـا لـهـم والـصـبـر مـنـا سـجـيـة
إذا طـارت الإبـرام نـسـمـو ونـرتـق
لـنـا حـومـة لا تـسـتـطـاع يـقـودهـا
نـبـي أتـى بـالحـق عـف مـصـدق
ألا هـل أتـى إفـنـاء فـهـر بـن مـالـك
مـقـطـع أطـراف وهـام مـفـلـق

وطريقة المقابلة: أن يضع الشاعر إزاء كل ما يدعيه الشاعر الأول من مفاخر ما يقابله.

فلما افتخر أبو سفيان بن حرب بتقتيل المسلمين في أحد، وقال: (*162)

وسـلـي الـذي قـد كـان فـي الـنـفـس إنـنـي
قـتـلـت مـن الـنـجـار كـلَّ نجـيـب
ومـن هـاشـم قـرمـا كـريمـا ومـصـعـبـا
وكـان لـدى الـهـيـجـاء غـيـر هـيـوب
ولـو إنـنـي لـم اشـف نـفـسـي مـنـهـم
لـكـانـت شـجـا فـي الـقـلـب ذات نـدوب

تصدى له حسان سالكا طريقة المقابلة وراح يعدد من قتل من إشراف قريش في بدر، مقابلة لمن ذكر أبو سفيان من كبار المسلمين. قال:-

ذكـرت الـقـروم الـصـيـد مـن آل هـاشـم
ولـسـت لـزور قـلـتـه بـمـصـيـب
أتـعـجـب أن قـصـدت حـمـزة مـنـهـم
نجـيـبـا وقـد سـمـيـتـه بـنـجـيـب
ألـم يـقـتـلـوا عـمـرا وعـتـبـة وابـنـه
وشـيـبـة والحـجـاج وابـن حـبـيـب
غـداة دعـا الـعـاصـي عـلـيـاً فـراعـه
بـضـربـة غـضـب بـلـه بـخـضـيـب

وطريقة التهديد والوعيد والشماتة: يهدد فيها الشاعر وقومه، ويشمت بما ينزل بهم من مصائب ونكبات:

ومثاله حين فخر هبيرة بن أبى وهب بانتصار المشركين في أحد، وبتقتيل المسلمين، بعد تجميع قريش القبائل العربية ضدهم فقال:

سـقـنـا كـنـانـة مـن أطـراف ذي يمـن
عـرض الـبـلاد عـلـى مـا كـان يـزجـيـهـا
قـالـت كـنـانـة: أنـى تـذهـبـون بـنـا ؟
قـلـنـا: الـنـخـيـل، فـأمـوهـا ومـن فـيـهـا
نـحـن الـفـوارس يـوم الحـر مـن أحـد
هـابـت مـعـدٌ فـقـلـنـا نـحـن نـأتـيـهـا
ثـمـت رحـنـا كـأنـا عـارض بـرد
وقـام هـام بـنـي الـنـجـار يـبـكـيـهـا

فأجابه حسان بن ثابت سالكا طريقة التهديد والوعيد، فكثرة العدد، والجموع التي خاض بها هبيرة، جعلها كعب سبة عليهم، لأنهم أوردوها حياض الموت في الدنيا، ومصيرها النار في الآخرة. قال:-

سـقـتـم كـنـانـة جـهـلا مـن سـفـاهـتـكـم
إلـى الـرسـول فـجـنـد الـلـه مـخـزيـهـا
أوردتـمـوهـا حـيـاض ضـاحـيـة
فـالـنـار مـوعـدهـا، والـقـتـل لاقـيـهـا (163*)

وطريقة القلب: أن يقلب الشاعر المعاني على قائلها.

ففي بدر توعد ضرار بن الخطاب المسلمين بجولة أخرى، وأنكر على

الأنصار الفخر بالانتصارات التي حققها المسلمون، محاولا أن يعلل الانتصار بوجود قيادة الرسول * ومن معه من المهاجرين، وهم من قريش. فقال:

فـــان تـــكُ قـــتـــلـــى غـــودرت مـــن رجـــالـــنـــا

فـــإنـــا رجـــال بـــعـــدهـــم ســـنـــغـــادر

ووســـط بـــنـــي الـــنـــجـــار ســـوف نـــكـــرهـــا

لـــهـــا بـــالـــقـــنـــا والـــدار عـــين زوافـــر (*164)

إلى إن يقول:-

فـــإن تـــظـــفـــروا فـــي يـــوم بـــدر فـــإنـــمـــا

بـــأحـــمـــد، أمـــســـى جـــدّكـــم وهـــو ظـــاهـــر

وبـــالـــنـــفـــر الأخـــيـــار هـــم أولـــيـــاؤه

يـــحـــامـــون فـــي الـــلأواء والمـــوت حـــاضـــر

يـــعـــد أبـــو بـــكـــر وحـــمـــزة فـــيـــهـــم

ويـــدعـــى عـــلـــيٌّ وســـط مـــن أنـــت ذاكـــر

ويـــدعـــي أبـــو حـــفـــص وعـــثـــمـــان مـــنـــهـــم

وســـعـــد إذا مـــا كـــان فـــي الحـــرب حـــاضـــر

أولـــئـــك لا مـــن نـــتـــجـــت فـــي ديـــارهـــا

بـــنـــو الأوس والـــنـــجـــار حـــين تـــفـــاخـــر

فتناول كعب بن مالك هذين المعنيين، وسلك في نقض المعنى الأول سبيل التكذيب، إذ جمع المشركون في بدر، وحشدوا كل ما استطاعوا ومع ذلك كان النصر حليف المسلمين فعلام هذا الادعاء الكاذب والضجيج الصاخب الذي آثاره ضرار؟ فقال:-

عـــجـــبـــت لأمـــر الـــلـــه والـــلـــه قـــادر

عـــلـــى مـــا أراد، لـــيـــس لـــلـــه قـــاهـــر

قـــضـــى يـــوم بـــدر أن نـــلاقـــي مـــعـــاشـــراً

بـــغـــوا وســـبـــيـــل الـــبـــغـــي بـــالـــنـــاس جـــائـــر

وقـــد حـــشـــدوا واســـتـــنـــفـــروا مـــن يـــلـــيـــهـــم

مـــن الـــنـــاس حـــتـــى جـــمـــعـــهـــم مـــتـــكـــاثـــر

وسلك لنقض المعنى الثاني سبيل القلب، ففخر بالرسول *، وبتأييد الأنصار له، وعير قريشا بالصد عن سبيل الهداية، والتولي عن الاستجابة

لما دعاهم الرسول من الخير والحق:-

وفــيـــنـــا رســـول الـــلـــه والأوس حـــولـــه

لـــه مـــعـــقـــل مـــنـــهـــم عـــزيـــز ونـــاصـــر

وجـــمـــع بـــنـــي الـــنـــجـــار تحـــت لـــوائـــه

يمـــشـــون فـــي المـــأذيّ والـــنـــقـــع ثـــائـــر(165*)

وبعد إن فخر بشجاعة المسلمين النادرة، وإقدامهم الشجاع قال:-

وكـــان رســـول الـــلـــه قـــد قـــال: اقـــبـــلـــوا

فـــولّـــوا وقـــالـــوا: إنمـــا أنـــت ســـاحـــر(166*)

وقد تطور فن النقائض في العصر الأموي، حتى وصل إلى اوجه على أيدي جرير والفرز دق و الأخطل والراعي النميري، بسبب الظروف الاجتماعية والسياسية ومع ذلك فلم يخل من التأثر بالإسلام والاقتباس من معاني القرآن ومفاهيمه الجديدة. كقول الفرزدق في إحدى نقائضه:-

ولـــســـت بمـــأخـــوذ بـــلـــغـــو تـــقـــولـــه

إذا لـــم تـــعـــمـــد عـــاقـــدات الـــعـــزائـــم

فانه قد أفاد من قوله تعالى:

﴿لا يؤاخذكمْ اللهُ باللغو في إيمانكمْ ، ولكنَّ يؤاخذَكُمْ بما عقدْتمُ الأيمان﴾

ومن نقائض الفرزدق لجرير قوله: (167*)

ضـــربـــت عـــلـــيـــك الـــعـــنـــكـــبـــوت بـــنـــســـجـــهـــا

وقـــضـــى عـــلـــيـــك بـــه الـــكـــتـــاب المـــنـــزل

نظر في معنى البيت إلى قوله تعالى **﴿وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾**

واستغل جرير نصرانية الاخطل في نقائضه له، لينفذ من ذلك إلى التعيير، حيث يقول له: (168*)

رجـــس يـــكـــون إذا صـــلـــوا آذانـــهـــم

قـــرع الـــنـــواقـــيـــس لا يـــدرون مـــا الـــســـور

ومـــا لـــتـــغـــلـــب إن عـــدّت مـــســـاعـــيـــهـــا

نجـــم يـــضـــيء ولا شـــمـــس ولا قـــمـــر

الـــضـــاحـــكـــين إلـــى الخـــنـــزيـــر شـــهـــوتـــه

يـــا قـــبـــحـــت تـــلـــك أفـــواهـــا إذا كـــشـــروا

والمقرعين على الخنزير ميسرهم
بئس الجذور وبئس القوم إذ يسروا
ما كان يرضى رسول الله دينهم
والطيبان أبو بكر ولا عمر
جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا
وهل يضير رسول الله أن كفروا

ويسير على هذا النهج في كثير من نقائضه، وكان يقول: اعنت عليه بكفره. ويقول أيضا :-

أعانتني عليه خصلتان: كبر سن، وخبث دين. (169*)

الرثاء:

من المعروف أن الشعراء يسلكون في رثائهم إحدى ثلاث طرق هي:-

الندب: وهو بكاء الفقيد، فيئن الشاعر ويتفجع وتتفجر دموعه مدرارا، وكأنها لا تريد أن تجف، وتتدفق كلماته بكية حزينة، ثم تنتظم أشعارا تفيض بالحزن والألم .

التأبين: وهو ليس نواحا ولا نشيجا، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص، فالشاعر فيه لا يعبر عن أحزانه هو، وإنما يعبر عن أحزان الجماعة، وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها، ولذلك يسجل فضائله ويلح في هذا التسجيل، وكأنه يريد أن يحفرها في ذاكرة التاريخ حفرا، حتى لا تنسى على مر الزمان.

العزاء: وتعني هذه الطريقة أن ينفذ الشاعر من حادثة الموت الفردية، التي هو بصددها، إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة، وقد ينتهي به هذا التفكير إلى معان فلسفية عميقة. (170*)

وقد رثى شعراء صدر الإسلام من فقد منهم في السلم أو الحرب، وسلكوا كل هذه الطرق، ولكن حظ مراثيهم من طريقة العزاء كان قليلا، مع إن الإسلام قد وجههم إليها، وحثهم على سلوكها، لأن الحياة في نظره ظل زائل، وعلى المسلم أن يقبلها كما هي، دار فناء وانتقال، والإنسان اضعف من أن يغير سنة الله في الكون، فلتقم نظرته على التسليم بقضاء الله وقدره وليصبر على الاختبار احتسابا وطلبا للأجر. قال تعالى: « .. . وبشر

الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إن لله وإن إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون» (171*)

وقد تغيرت بعد الإسلام مناقب التأبين، وتبدلت الشمائل التي يعددها الشعراء في مراثيهم، إذ أخضعوها للمقاييس الإسلامية الجديدة، فتحدثوا بسيرة لم تكن تعرفها الجاهلية. فيها المجد والتقوى والإيمان، وفيها الخير والبر والوفاء وفيها الرحمة والهداية والنقاء، وبهذه المآثر الكريمة والمناقب الأصيلة، كانت مصيبة الشاعر حسان في فقد رسول الله *، وانتقاله إلى الملأ الأعلى، حيث رثاه بقوله مؤبنا : (172*)

بالله ما حملت أنثى ولا وضعت
مثل النبي رسول الرحمة الهادي
ولا مشى فوق ظهر الأرض من أحد
أوفى بذمة جار أو بميعاد
من الذي كان نوراً يستضاء به
مبارك الأمر ذا حزم وإرشاد
مصدقا للنبيين الأُلى سلفوا
وأبذل الناس للمعروف للجادي

وينتقل خليفة رسول الله * أبو بكر الصديق إلى جوار ربه، فيسيل الشعر على لسان الشعراء مؤبنا إياه، بخصاله الكريمة، ومناقبه الفاضلة، ويقول حسان:-(173*)

إذا تذكرت شجوا من أخي ثقة
فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية اتقاها وأعدلها
بعد النبي وأوفاها بما حملا
والثاني الصادق المحمود مشهده
وأول الناس منهم صدق الرسلا
عاش حميداً لأمر الله متبعاً
بهدي صاحبه الماضي وما انتقلا

وتمتد يد مجوسية حاقدة لتغتال عمر بن الخطاب، فيرثيه الشماخ بن ضرار الغطفاني، ويؤبنه بمناقب إسلامية خالصة ساس بها المسلمين ورعى

أمورهم فيها بالعدل:-(*174)

جــزى الــلــه خــيــرا مــن إمــام وبــاركــت
يــــد الـــلـــه فــــي ذاك الأديم المـــمـــزق
فــمــن يــجــرؤ يــركــب جــنــاحــي نــعــامــة
لــيــدرك مــا قــدّمــت بــالأمــس يــســبــق
قــضــيــت أمـــوراً ثــم غــادرت بــعــدهــا
بــوائــج فــي أكــمــامــهــا لــم تــفــتــق

ويسقط عثمان بن عفان شهيدا، نتيجة خطأ في فهم قتلته، وسؤ في التقدير، فيتوارد الشعراء على تأبينه بحامده الإسلامية ومناقبه الدينية فقال حسان: (*175)

إنــي رأيــت أمــين الــلــه مــضــطــهــداً
عــثــمــان رهــنــا لــدى الأجــداث والــكــفــن
يــا قــاتــل الــلــه قــومــا كــان شــأنــهــم
قــتــل الإمــام الأمــين المــســلــم الــفــطــن
مـــا قـــتـــلـــوه عـــلـــى ذنـــب ألـــم بـــه
إلا الــذي نــطــقــوا إفــكــاً ولــم يــكــن
إذا تـــذكـــرتـــه فـــاضـــت بـــأربـــعـــة
عــيــنــي بــدمــع عــلــى الخــديــن مــحــتــتن

ويستشهد علي بن أبى طالب-كرم الله وجهه-فينهض الشعراء يؤ بنونه بما فقدوا من أخلاقه الإسلامية، وخصاله الدينية الخيرة، فهو حب رسول الله، وخير قريش حسبا ودينا، يقيم الحق، ويحكم بالعدل، ويفيض بالعلم، ولا يتبختر تباهيا، كما يقول أبو الأسود الدؤلي:-(*176)

أفــي شــهــر الــصــيــام فــجــعــتــمــونــا
بــخــيــر الــنــاس طــراً أجــمــعــيــنــا؟
فـــكـــل مـــنـــاقـــب الخـــيـــرات فـــيـــه
وحـــب رســـول رب الـــعـــالمـــيـــنـــا
لــقــد عــلــمــت قــريــش حــيــث كــانــت
بـــأنـــك خـــيـــرهـــا حـــســـبـــا وديـــنـــا
وكـــنـــا قـــبـــل مـــقـــتـــلـــه بـــخـــيـــر

نـــرى مـــولـــى رســـول الـــلـــه فـــيـــنـــا
يـــقـــيـــم الحـــق لا يـــرتـــاب فـــيـــه
ويـــعـــدل فـــي الـــعـــدا والأقـــربـــيـــنـــا
ولـــيـــس بـــكـــاتم عـــلـــمـــاً لـــديـــه
ولـــم يـــخـــلـــق مـــن المـــتـــجـــبـــريـــنـــا

وهكذا كان يعرض الشعراء مآثر المرثي الدينية، ويسجلون مناقبه الإسلامية الجديدة، وهو تطور طرأ على شعر الرثاء في صدر الإسلام، وامتد إلى أشعار الرثاء في العصر الأموي أيضا، ويتضح ذلك اكثر في أشعار الخوارج، كقول عيسى بن فاتك يؤبن قتلى ا لخوارج: (*177)

ألا فـــي الـــلـــه لا فـــي الـــنـــاس شـــالـــت
بـــداود واخـــوتـــه الجـــذوع
مـــضـــوا قـــتـــلا وتمـــزيـــقـــا وصـــلـــبـــا
تحـــوم عـــلـــيـــهـــم طـــيـــر وقـــوع
إذا مـــا الـــلـــيـــل اظـــلـــم كـــابـــدوه
فـــيـــســـفـــر عـــنـــهـــم وهـــم ركـــوع
أطـــار الخـــوف نـــومـــهـــم فـــقـــامـــوا
وأهـــل الأمـــن فـــي الـــدنـــيـــا هـــجـــوع
يـــعـــالـــون الـــنـــحـــيـــب إلـــيـــه شـــوقـــا
وان خـــفـــضـــوا فـــريـــهـــم ســـمـــيـــع

ومع ما قلناه من قلة المراثي التي تمثلت منهج الإسلام عند حدوث المصائب وتوجيهه في مواجهة مصيبة الموت بالصبر والرضا بقدر الله وقضائه، فقد وصلت إلينا بعض المراثي المتأثرة بهذا التوجيه السامي، ولعل قصيدة أبي ذؤيب الهزلي في رثاء أبنائه الخمسة، الذين صرعهم الوباء مرة واحدة، ما يمثل هذه الطريقة، التي تقوم على الرضا بقضاء الله، والتسليم والتفويض إليه، والإيمان بحتمية الموت حيث يقول: (*178)

أودى بـــنـــيّ وأعـــقـــبـــونـــي غـــصـــة
بـــعـــد الـــرقـــاد، وعـــبـــرة لا تـــقـــلـــع
ولـــقـــد أرى أن الـــبـــكـــاء ســـفـــاهـــة
ولـــســـوف يـــولـــع بـــالـــبـــكـــاء مـــن يـــفـــجـــع

سبقوا هويّ وأعنقوا لهواهم
فتخرموا ولكل جنب مصرع
فغبرت بعدهم بعيش ناصب
وإخال أني لاحق مستتبع [179*]
ولقد حرصت بان أدافع عنهم
فإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع
والدهر لا يبقي على حد ثانه
جون السراء له جدائد أربع [180*]

وتشيع في مرثية الشاعر الأموي عبد الرحمن بن إسماعيل الملقب بوضاح اليمن، روح السماحة والرضا، والصبر على قضاء الله وقدره، والإيمان بفناء كل حي: [181*]

سأصبر للقضاء فكل حي
سيلقى سكرة الموت المذوق
فما الدنيا بقائمة وفيها
يلف ختامها سوقاً بسوق

وعندما رثى الشاعر محمد بن خالد بن الوليد عمر بن عبد العزيز جسد أسلوب الإسلام في عزائه، حيث تحدث عن فناء الدنيا، واستحالة الخلود، وعن الأجل المكتوب، وذكر بمن ذهب من الملوك ليستخلص الأحياء منهم العبرة، لأنهم على طريقتهم سائرون وبهم لاحقون قال:-

هل في الخلود إلى القيامة مطمع
أم للمنون عن ابن آدم مدفع
هيهات ما للنفس من متأخر
عن وقتها لو أن علما ينفع
أين الملوك وعيشهم فيما مضى
وزمانهم فيه وما قد جمعوا
ذهبوا ونحن على طريقة من مضى
منهم فمفجوع به ومفجع

عــثــر الــزمــان بــنــا فــأوهــي عــظــمــنــا
إن الــزمــان بمــا كــرهــنــا مــولــع (*182)

وظهر لون جديد من الرثاء لم يألفه الشعر العربي من قبل، هو رثاء الشهداء، فقد صور الشعراء القتل بيد الأعداء هو الشهادة التي طالما كان المقاتلون يحلمون بها، وهي الغاية التي يجاهد المؤمنون للوصول إليها، وهي اصدق استجابة لدعوة الله المؤمنين إلى الجنة.

قال حسان يرثي حمزة بن عبد المطلب الذي استشهد في أحد :-(*183)

أســائــلــة أصــحــاب أحــد مــخــافــة
بــنــات أبــى مــن أعــجــم وخــبــيــر
فــقــلــت لــهــا: إن الــشــهــادة راحــة
ورضــوان رب يــا أمــام غــفــور
فــان أبــاك الخــيــر حــمــزة فــاعــلــمــي
وزيــر رســول الــلــه خــيــر وزيــر
دعــاه إلــه الخــلــق ذو الــعــرش دعــوة
إلــى جــنــة يــرضــى بــهــا وســرور
فــذلــك مــا كــنــا نــرجــي ونــرتجــي
لحــمــزة يــوم الحــشــر خــيــر مــصــيــر

ومن الجديد الذي لم نألفه في الرثاء الجاهلي، أن يرثي الشاعر نفسه، وان يبكيها بعد أن يصاب بجروح قد تقربه من نهايته.

وقد وصلت إلينا قصائد رائعة من هذا الرثاء، من ذلك قصيدة الشاعر مالك بن الريب التميمي الذي مرض في مدينة (مرو) من أرض فارس، وهو في جيش المسلمين لتحرير الفرس من العبودية.

وأحس بالموت، فقال قصيدته، يرثي نفسه، وهي من غرر الشعر العربي، وعدتها (58) بيتا، تفيض بالمشاعر الإسلامية، وتكاد تقطر رقة وعذوبة، ولكنها تعبر عما كان يحس به أبناء الصحراء العربية من الغربة والابتعاد عن مواطنهم ، وهم يسيحون في أقطار الأرض، لتحرير البشرية من الكفر والشرك والطغيان والظلم ، وتعبر عما كان يعانيه أبناء العروبة من أزمة نفسية وهم ينتقلون من حضارة قديمة إلى حضارة جديدة وبيئات جديدة، ومطلعها :-

ألا لــيــت شــعــري هــل أبــيــتن لــيــلــة

بجنب الغضى أزجني القلاص النواجيا

ومنها قوله مصوراً لحظات الموت الأخيرة، وهو ينقل إلينا بأمانة ما يدور بينه وبين المحيطين به، وهو يقابل مأساة الموت، ويحس بالنهاية المحتومة: (*184)

ولمــا تــراءت عــنــد مــرو مــنــيــتــي

وخــلَّ بــهــا جــســمــي وحــانــت وفــاتــيــا

أقــول لأصــحــابــي ارفــعــونــي فــانــه

يــقــرّ بــعــيــنــي أن ســهــيــل بــدالــيــا

فــيــا صــاحــبــي رحــلــي دنــا المــوت فــانــزلا

بــرابــيــة أنــي مــقــيــم لــيــالــيــا

أقــيــمــا عــلــيّ الــيــوم أو بــعــض لــيــلــة

ولا تــعــجــلانــي قــد تــبــين شــانــيــا

وقــومــا إذا مــا اســتــلّ روحــي فــهــيــئــا

لــي الــســدر والأكــفــان عــنــد فــنــائــيــا

وخــطــاّ بــأطــراف الأســنــة مــضــجــعــي

وردّا عــلــى عــيــنــيّ فــضــل ردائــيــا

ولا تحــســدانــي بــارك الــلــه فــيــكــمــا

مــن الأرض ذات الــعــرض أن تــوســعــا لــيــا

خــذانــي فــجــرانــي بــثــوبــي إلــيــكــمــا

فــقــد كــنــت قــبــل الــيــوم صــعــبــاً قــيــاديــا

وهي تسير على هذه الطريقة من المحاورة المحكمة النسج، والصور الموحية، والأفكار المؤلمة، إلى أن يقول في آخرها مصورا غربته الموحشة، وتشوقه إلى بيئته، وأهل بيته:-

غــريــب بــعــيــد الــدار ثــاوٍ بــقــفــرة

يــد الــدهــر مــعــروفــاً بــأن لا تــدانــيــا

اقــلــب طــرفــي حــول رحــلــي فــلا أرى

بــه مــن عــيــون المــؤنــســات مــراعــيــا

وبــالــرمــل مــنــا نــســوة لــو أشــهــدنــنــي

بـكـين وفـدّيـن الـطـبـيـب المـداويـا
ومـا كـان عـهـد الـرمـل عـنـدي وأهـلـه
ذمـيـمـاً ولا ودعـت بـالـرمـل قـالـيـا
فـمـنـهـن أمـي وابـنـتـاي وخـالـتـي
وبـاكـيـة أخـرى تـهـيـج الـبـواكـيـا

ومثل هذا اللون من الرثاء قصيدة الشاعر كثير بن الغريزة النهشلي، في رثاء شهداء المسلمين بمعارك الطالقان وجوز جان من ارض فارس، في عهد عمر بن الخطاب حيث أودعها رثاء رائعا لنفسه، عندما أحس بدنو اجله، بعد أن افتقد أصحابه من الشهداء وهو متأكد من حتمية الموت، منها :-(185*)

فـلا تـسـتـبـعـدا يـومـي فـانـي
سـأوشـك مـرة أن تـفـقـدانـي
ويـدركـنـي الـذي لا بـد مـنـه
وإن أشـفـقـت مـن خـوف الجـنـان
وتـبـكـيـنـي نـوائـح مـعـولات
تـركـن بـدار مـعـتـرك الـزمـان
حـبـائـس بـالـعـراق مـنـهـنـهـات
سـواجـي الـطـرف كـالـبـقـر الـهـجـان
اعـاذلـتـيّ مـن لـوم: دعـانـي
ولـلـرشـد المـبـين فـاهـديـانـي
وعـاذلـتـي صـوتـكـمـا قـريـب
ونـفـعـكـمـا بـعـيـد الخـيـروان
فـردا المـوت عـنـي إن أتـانـي
ولا وأبـيـكـمـا لا تـفـعـلان

فهو يختم قصيدته بخلاصة فلسفة الشاعر في موقفه من الموت، وهي فلسفة الإسلام، ونظرته إلى حقيقة الموت، وأحقية وقوعه.

وثمة لون جديد من الرثاء استحدثته الحياة الإسلامية الجديدة وما ساد فيها من مفاهيم الدين الإسلامي، حيث كان يرثي الشعراء المسلمون ما يفقدون من أعضاء جسدهم في ساحات القتال، ومعارك الفتح، وهو

رثاء مفعم بالاستهانة بفقد تلك الأعضاء واحتسابها في سبيل الله، والفخر بما أوقعت بالأعداء قبل فقدها.

فلما فقد عثمان بن مطعون عينه من لطمة أودت بها، قال: (186*)

فــان تــك عــيــنــي فــي رضــا الــرب نــالــهــا
يــدا مــلــحــد فــي الــديــن لــيــس بمــهــتــد
فــقــد عــوض الــرحــمــن عــنــهــا ثــوابــه
ومــن يــرضــه الــرحــمــن يــا قــوم يــســعــد

وقطعت رجل عبيدة بن الحارث في معركة بدر، فاحتسبها في سبيل الله، وعدها وسيلته للوصول إلى مبتغاة، وهو الجنة، ليسعد فيها، ويعيش بهناء، إذ قال: (187*)

فــان تــقــطــعــوا رجــلــي فــإنــي مــســلــم
أرجــي بــهــا عــيــشــا مــن الــلــه دانــيــا
مــع الحــور أمــثــال الــتــمــاثــيــل أخــلــصــت
مــع الجــنــة الــعــلــيــا لمــن كــان عــالــيــا
وبــعــت بــهــا عــيــشــا تــعــرّقــت صــفــوه
وعــالجــتــه حــتــى فــقــدت الأدانــيــا
فــأكــرمــنــي الــرحــمــن مــن فــضــل مــنــه
بــثــوب مــن الإســلام غــطــى المــســاويــا
ومــا كــان مــكــروهــا الــيّ قــتــالــهــم
غــداة دعــا الأكــفــاء مــن كــان داعــيــا

وفي فتح بلاد فارس يطعن علياء بن جحش العجلي في بطنه، وتندلق أمعاؤه فلا يجزع، ولم يتردد، ودفع بها إلى داخل بطنه، وانشد وهو يجود بأنفاسه الأخيرة: (188*)

أرجــو بــهــا مــن ربــنــا ثــوابــا
قــد كــنــت ممــن احــســن الــضــرابــا

ويفقد المهلب بن أبي صفرة عينه أثناء فتح سمرقند، فيرثيها بأسلوب إسلامي جديد، نحس به عمق الإيمان وصدق اليقين، فيقول: (189*)

إذا ذهــبــت عــيــنــي لــقــد بــقــيــت نــفــســي
وفــيــهــا بــحــمــد الــلــه عــن تــلــك مــا يــنــســى

إذا جـاء أمـر الـلـه اعـيـا خـيـولـنـا

ولا بـدّ إن تـعـمـى الـعـيـون لـدى الـرمـس

وأخيرا فمما تميز به أسلوب الرثاء بعد الإسلام وفي العصر الأموي، ما يردد الشعراء من مصطلحات إسلامية جديدة في غمرة رثائهم ، مثل صلاة اله وسلامه على المتوفى. أو صلاة الملائكة والمؤمنين وسلامهم عليه.

وقد انتشرت هذه الظاهرة في بداية عصر الرسالة، فقال حسان وهو يرثي حمزة:-(190*)

صـلـى عـلـيـك الـلـه فـي جـنـة

عـالـيـة مـكـرمـة الـداخـل وكـرر

ذلـك فـي رثـاء شـهـداء الـرجـيـع:-

صـلـى الإلـه عـلـى الـذيـن تـتـابـعـوا

يـوم الـرجـيـع فـأكـرمـوا وأثـيـبـوا

وقال كعب بن مالك في رثاء شهداء مؤتة: (191*)

صـلـى الإلـه عـلـيـهـم مـن فـتـيـة

وسـقـى عـظـامـهـم الـغـمـام المـسـبـل

ويتضح هذا الاتجاه في رثاء الشعراء رسول الله * اكثر من أي رثاء أخر كقول صفية بنت عبد المطلب:-(192*)

أفـاطـم صـلـى الـلـه رب مـحـمـد

عـلـى جـدث أمـسـى بـطـيـبـة ثـاويـا

وقول أبي بكر الصديق:-(193*)

فـصـلـى المـلـيـك ولـي الـعـبـا

دورب الـبـلاد عـلـى أحـمـد

وواصل شعراء العصر الأموي هذا الاتجاه في رثائهم، فقال جرير يرثي زوجته: (194*)

صـلـى المـلائـكـة الـذيـن تـخـيـروا

والـصـالـحـون عـلـيـك والأبـرار

وعـلـيـك مـن صـلـوات ربـك كـلـمـا

نـصـب الـحـجـيـج مـلـبـديـن وغـاروا

وقال محارب بن دثار يرثي عمر بن عبد العزيز:-(195*)

سلام الله والصلوات منه
على عمر ترحن وتغتدينا

وقال مالك المزموم يرثي زوجته أم العلاء: (*196)

صلى الإله عليك من مفقودة
إذ لا يلائمك المكان البلقع

ومع سلوك الشعراء كل طرق الرثاء المعروفة ندبا وعزاء وتأبينا فانهم طوروا الرثاء فيما أوردوا من مناقب إسلامية جديدة لم يعرفها الشعراء من قبل.

وتمثل بعض الشعراء روح الإسلام وتوجيهاته عند نزول المصائب ووقوع الرزايا، فوصلت إلينا مراث نحس فيها سماحة الإسلام وروح الرضا والصبر والطمأنينة التي أشاعها الإيمان الجديد في نفوس أتباعه.

الشعر التاريخي:

سبق أن تحدثنا في مقدمة الكتاب عن مكانة الشعر عند العرب قبل الإسلام وبعده، وتبين لنا بأن العرب قد فطروا على حب الشعر وقوله، وهم لا يستطيعون الاستغناء عنه كما قال الرسول ﷺ: لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين.

والشعر هو العلم الذي لم يكن للعرب علم اصح منه، كما قال عمر بن الخطاب، ولولاه لضاعت كثير من الأحداث وطمست العديد من مناقب الرجال ومفاخرهم، وقد قيل: «لولا الشعراء ما عرف جود حاتم، وكعب بن إمامة، وهرم تجن سنان، وأولاد جفنه، وإنما أشاد بذكرهم الشعر». (*197)

فهو إذن الكتاب الجامع لتأريخ العرب ، والمسجل لكل أحداثهم ، والشاهد العدل على كل تصرفاتهم ، يحفظونه في صدورهم، ويروونه عن أسلافهم إلى أبنائهم ، ولذلك قالوا: (*198) لما رأت العرب المنثور يند عليهم، وينفلت من أيديهم، ولم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم ، تدبروا الأوزان والأغاريد، فأخرجوا الكلام احسن مخرج، بأساليب الغناء، فجاءهم مستويا، ورأوه باقيا على مر الأيام، فألفوا ذلك وسموه الشعر.

فلا غرابة أن نجد بعد ذلك الشعر الإسلامي سجلا لأحداث المجتمع الجديد، ووثائق صدق لتاريخ هذه الأمة المجيدة في أزهى عصورها وفي

احلك ساعاتها، لا يترك حادثة ذات شأن وتأثير في مجرى التاريخ الإسلامي إلا سجلها.

ومن هنا كانت كتب التاريخ زاخرة بالأشعار المعبرة عن المواقف والاتجاهات إزاء الأحداث.

فكتاب السيرة النبوية، وهو يبحث في موضوع خاص هو سيرة رسول الله * فقط، دون التطرق إلى موضوعات التاريخ العام، هذا الكتاب يضم بين صفحاته اكثر من (850) قصيدة ومقطوعة شعرية لما يربو على (320) شاعرا.

ولو أحصينا ما في كتب التاريخ الإسلامي العام لوجدنا أضعاف هذه الأعداد، إذ كان المؤرخون يتبعون كل حدث تاريخي بمجموعة كبيرة من الأشعار التي أنشدت في مناسبة ذلك الحدث توثيقا له، وتوضيحا لجميع جوانبه.

وتعد قصيدة الشاعر الإسلامي صرمة بن قيس الأنصاري اشمل القصائد التي أرخت للدعوة الإسلامية بأسلوب تاريخي وفني رفيع، حتى إن عبد الله بن عباس، الذي كان يلقب ب (حبر الأمة) لسعة علمه، كان يختلف إلى الشاعر الأنصاري يتعلم منه تلك القصيدة التي قال فيها:-
(199*)

ثوى في قريش بضع عشرة حجة
يذكر لو يلقى صديقا مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه
فلم ير من يؤوي ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه
فأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وألفى صديقاً واطمأنت به النوى
وكان له عونا من الله، باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه
وما قال موسى إذ أجاب المناديا
فاصبح لا يخشى من الناس واحدا
قريباً ولا يخشى من الناس نائيا

بذلنا له الأموال من حلّ ما لنا
وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
ونعلم أن الله لا لشيء غيره
ونعلم أن الله افضل هاديا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم
جميعا وان كان الحبيب المصافيا

وهي تسير على هذا النهج الدقيق في استقصاء الأحداث، وسرد الوقائع بأسلوب يمتزج بالعاطفة الدينية والفخر الإسلامي الجديد.

كما حاول الشعراء استقصاء غزوات الإسلام الأولى وإحصاءها، فنظم حسان بن ثابت ويقال: ابنه عبد الرحمن، قصيدة طويلة استقصى فيها تلك الغزوات في معرض فخره بقومه الأنصار، الذين شهدوا جميع تلك الغزوات وأبلوا فيها بلاء حسنا، قال في تلك القصيدة:(*200)

ألست خير معد كلها نفرا
ومعشراً إن هم عموا وإن حصلوا
قوم هم شهدوا بدراً بأجمعهم
مع الرسول فما آلو وما خذلوا
وبايعوه فلم ينكث به أحد
منهم ولم يك في إيمانهم دخل
ويوم صبحهم في الشعب من أحد
ضرب رصين كحر النار مشتعل
ويوم ذي قرد يوم استشار بهم
على الجياد فما خاموا ولا نكلوا
وذا العشيرة جالسوها بخيلهم
مع الرسول عليها البيض والأسل
ويوم ودان أجلوا أهله رقصا
بالخيل حتى نهانا الحزن والجبل
وغزوة يوم نجد ثم كان لهم
مع الرسول بها الأسلاب والنفل

ولــيــلــة بــحــنــين جــالــوا مــعــه
فــيــهــا يــعــلــهــم بــالحــرب إذ نــهــلــوا
وغــزوة الــقــاع فــرقــنــا الــعــدو بــه
كــمــا تــفــرق دون المــشــرب الــرســل
وغــزوة الــفــتــح كــانــوا فــي ســريــتــه
مــرابــطــين فــمــا شــاطــوا ومــا عــجــلــوا
ويــوم خــيــبــر كــانــوا فــي كــتــيــبــتــه
يمــشــون كــلــهــم مــســتــبــســل بــطــل
ويــوم ســار رســول الــلــه مــحــتــســبــا
إلــى تــبــوك وهــم رايــاتــه الأول

وهكذا يستمر في تعداد الأيام الإسلامية. فكان شعره وثيقة صادقة لأحداث تلك الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام. وفي كتب السيرة والتاريخ عشرات القصائد الطويلة التي قيلت في كل غزوة من تلك الغزوات، وأتت على تفصيلاتها حيث كان الشعراء من أبطالها المشاركين فيها بألسنتهم وألسنتهم ، فكانت أشعارهم أصدق شاهد على مجرياتها وأحداثها.

وأجتزئ من قصيدة كعب بن مالك الأنصاري، التي قاربت الخمسين بيتا بعض الصور التي رسمها لوصف معركة أحد، حيث مزج الشاعر فيها بين المفاهيم الإسلامية الجديدة، والموروث الفني القديم، الذي تأصل لدى الشعراء في صورهم وتعبيراتهم ، حيث قال:-[(*201)]

وقــال رســول الــلــه لمــا بــدوا لــنــا
ذروا عــنــكــم هــول المــنــيــات واطــمــعــوا
وكــونــوا كــمــن يــشــري الحــيــاة تــقــربــا
إلــى مــلــك يــحــيــا لــديــه ويــرجــع
ولــكــن خــذوا أســيــافــكــم وتــوكــلــوا
عــلــى الــلــه إن الأمــر لــلــه اجــمــع
فــســرنــا إلــيــهــم جــهــرة فــي رحــالــهــم
ضــحــيــا عــلــيــنــا الــبــيــض لا نــتــخــشــع
فــجــئــنــا إلــى مــوج مــن الــبــحــر وســطــه
أحــابــيــش مــنــهــم حــاســر ومــقــنــع

ثـــلاثـــة آلاف ونـــحـــن نـــصـــيـــة
ثـلاث مـــئـــين إن كـــثـــرنـــا وأربـــع [*202]
فـلـمـا تـلاقـيـنـا ودارت بـنـا الـرحـى
ولـيـس لأمـر حـمـه الـلـه مـدفـع
ضـربـنـاهـم حـتـى تـركـنـا سـراتـهـم
كـأنـهـم بـالـقـاع خـشـب مـصـرع
لـدن غـدوة حـتـى اسـتـفـقـنـا عـشـيـة
كـأن ذكـانـا حـرّ نـار تـلـفـع
فـنـلـنـا ونـال الـقـوم مـنـا وربـمـا
فـعـلـنـا ولـكـن مـا لـدى الـلـه أوسـع
ودارت رحـانـا واسـتـدارت رحـاهـم
وقـد جـعـلـوا كـلّ مـن الـشـر يـشـبـع
شـددنـا بـحـول الـلـه والـنـص شـدة
عـلـيـكـم وأطـراف الأسـنـة شـرّع
تـكـر الـقـنـا فـيـكـم كـأنّ فـروعـهـا
عـزالـى مـزاد مـاؤه يـتـهـزع
عـمـدنـا إلـى أهـل الـلـواء ومـن يـطـر
بـذكـر الـلـواء فـهـو فـي الـحـمـد أسـرع
فـخـانـوا وقـد أعـطـوا وتـخـاذلـوا
أبـى الـلـه إلا أمـره وهـو أصـنـع [*203]

وهي طويلة تسير على هذه الوتيرة من الحماس البطولي المتدفق المتحصن بروح العقيدة، والملتزم بالفكر الإسلامي الرشيد، بحيث استطاع الشاعر أن يرسه ا لنا صورة فنية رائعة لتلك المعركة وينقلنا إلى جو القتال الذي كان يعايشه بنفسه.

وفي أثناء مراحل الصراع الطويل المرير بين المسلمين والمشركين، وقبل أن يتحقق النصر النهائي للمؤمنين، صادف الإسلام الكثير من العثرات، وجوبه المسلمون بصور متعددة من الغدر والخيانة، فسقط عشرات من الضحايا في طريق المسيرة الطويلة الشاقة قبل الوصول إلى الهدف الأخير.

ومن صور الغدر والخيانة التي تحدث عنها شعر تلك الفترة ما حدث للصحابي الشهيد خبيب بن عدي الأنصاري، حيث قدم بعد غزوة أحد، رهط من قبيلتي عضل والقارة، وقابلوا رسول الله ﷺ، وقالوا له: يا رسول الله إن فينا إسلاما، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث معهم نفرا من أصحابه، فيهم حبيب، حتى إذا كانوا على الرجيع غدروا بهم ، وخرجوا بحبيب حتى إذا جاءوا إلى التنعيم ليصلبوه قال لهم : إن رأيتم أن تدعوني حتى اركع ركعتين فافعلوا ؟ قالوا: دونك فاركع، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم اقبل على القوم فقال: أما والله، لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة، ثم رفعوه على خشبه فلما أوثقوه قال: اللهم إن قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يصنع بنا . ثم قال: اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحداً

ثم قتلوه وقتلوا بعده بقية النفر الذين معه. وقد أنشد حبيب قبيل استشهاده أبياتا رقيقة تفيض، بالإيمان، ووصف مؤرخا ما جرى له بالتفصيل فقال:-(*204)

لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا
قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم يبدي العداوة جاهداً
عليّ لأني في وثاق بمضيع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم
وقربت من جذع طويل ممنع
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي
ومما جمع الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبرني على ما أصابني
فقد بضعوا لحمي وقد ضل مطمعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع (*205)
وقد عرضوا بالكفر والموت دونه
وقد ذرفت عيناي من غير مدمع

ومـــا بـــي حـــذار المـــوت إنـــي لمـــيـــت
ولـــكـــن حـــذاري حـــر نـــار تـــلـــفـــع
فـلـــســـت بمـــبـــدٍ لـــلـــعـــدوّ تـــخـــشـــعـــاً
ولا جـــزعـــاً، أنـــي إلـــى الـــلـــه مـــرجـــعـــي
ولـــســـت أبـــالـــي حـــين اقـــتـــل مـــســـلـــمـــا
عـــلـــى أيّ جـــنـــب كـــان فـــي الـــلـــه مـــصـــرعـــي

وهكذا عبرت هذه الأبيات عن عمق إيمان الشاعر، ورباطة جأشه، واعتصامه بالله في أدق الظروف وأحرج المناسبات، فلم يرض لنفسه المساومة ولم يتنازل عن عقيدته أنملة، وظلت عقيدته، السور الذي يحميه في لحظاته الأخيرة وهج يودع الدنيا، ويقابل ربا كريما، وهذا أمر يثير العجب، ويدعو إلى الدهشة، فكيف تمكنت العقيدة من قلب هذا الشاعر وسيطرت على تفكيره بمثل هذه الصورة التي رأيناها في أبياته، وهو لما يزل في بداية مراحل الدعوة. انه الإسلام الذي غير النفوس وصقل الطباع، وصادف أرضا خصبة في معادن العرب، فكان خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام.

وتتوالى الأيام، ويعم نور الإسلام أرجاء المعمورة بعد أن أدى رسول اللهﷺ الأمانة، وبلغ الرسالة بصدق وأمانة، وتأتي آخر أيام الرسول *، فتتمكن الحمى من جسده الشريف، وتتصعد حرارتها في سائر أوصاله، ثم تبدأ قواه بالتلاشي، وتحين ساعة الأجل، ثم تقع المصيبة يوم الاثنين لاثنتي عشرة مضت من ربيع الأول، ويلحق الرسولﷺ بجوار ربه.

فتضج المدينة بالنشيج، ويعلو البكاء في كل أرجائها، وترتفع أصوات الشعراء لتصور هول ذلك اليوم وتعبر عن لوعة المسلمين وحرقة أفئدتهم بهذا المصاب الجلل، وتصل إلينا عشرات القصائد، تؤرخ لتلك المناسبة الحزينة، نكتفي بنص قصير يصور تلك المصيبة، ويؤرخ للحدث الجلل، الذي حل بالمسلمين. فقد قال حسان من قصيدة طويلة-[*206]

تـــهـــيـــل عـــلـــيـــه الـــتـــرب أيـــدٍ وأعـــين
عـــلـــيـــه وقـــد غـــارت بـــذلـــك أســـعـــد
لـــقـــد غـــيـــبـــوا حـــلـــمـــاً وعـــلـــمـــاً ورحـــمـــة
عـــشـــيـــة عـــلـــوه الـــثـــرى لا يـــوســـد

وراحـوا بـحـزن لـيـس فـيـهـم نـبـيـهـم
وقـد وهـنـت مـنـهـم ظـهـور وأعـضـد
يـبـكـون مـن تـبـكـي الـسـمـاوات يـومـه
ومـن قـد بـكـتـه الأرض فـالـنـاس، كـمـد
فـبـيـنـاهـم فـي ذلـك الـنـور إذ غـدا
إلـى نـورهـم سـهـم مـن المـوت مـقـصـد
فـأصـبـح مـحـمـودا إلـى الـلـه راجـع
يـبـكـيـه حـتـى المـرسـلات ويـحـمـد(*207)
وأمـسـت بـلاد الحـرم وحـشـا بـقـاعـهـا
لـغـيـبـة مـا كـانـت مـن الـوحـي تـعـهـد
قـفـاراً سـوى مـعـمـورة الـلـحـد أضـافـهـا
فـقـيـد يـبـكـيـه بـلاط وغـرقـد(*208)
ومـسـجـده فـالمـوحـشـات لـفـقـده
خـلاءٌ فـيـه مـقـام ومـقـعـد

وما كاد ينتهي الناس من تجهيز رفات رسول الله * الطاهر حتى تتجه أنظارهم إلى سقيفة بني ساعدة وتتعلق قلوبهم بها، حيث اجتمع وجوه المسلمين ليقرروا من يخلف رسول الله ﷺ. وأوشكت الفتنة أن تعصف بوحدة المسلمين لاختلاف القوم داخل السقيفة، لولا أن تداركها إرادة الله وحكمة كبار الصحابة، فاهتدوا إلى مبايعة أبى بكر الصديق، فأخمدت الفتنة في مهدها ولم يتخلف الشعر عن تصوير هذا الحدث، فقد نهض الشعراء بواجباتهم وأدلوا بدلوهم في هذا المقام، فقال حسان بن ثابت مصورا ما حدث في ذلك اليوم: (*209)

تـنـادى سـهـيـل وابـن حـرب وحـارث
وعـكـرمـة الـشـانـي لـنـا ابـن أبـي جـهـل
قـتـلـنـا أبـاه وانـتـزعـنـا سـلاحـه
فـأصـبـح بـالـبـطـحـا أذل مـن الـنـعـل
أولـئـك رهـط مـن قـريـش تـبـايـعـوا
عـلـى خـطـة لـيـسـت مـن الخـطـط الـفـضـل
واعـجـب مـنـهـم قـابـلـو ذاك مـنـهـم

كأنا اشتملنا من قريش على ذحل

وكلهم ثان عن الحق عطفه

يقول اقتلوا الأنصار بئس من فعل

فكان جزاء الفضل منا عليهم

جهالتهم حمقا وما ذاك بالعدل

وطبيعي كان حسان يمثل رأي الأنصار في اجتماع السقيفة، ويتبنى استحقاقهم الخلافة، فبلغ شعر حسان قريشا، فأمروا ابن أبي عزة الجمحي شعرهم أن يجيبه، فقال معبرا عن رأي المهاجرين: (210*)

معشر الأنصار خافوا ربكم

واستجيروا الله من شر الفتن

إنني ارهب حربا لاقحاً

يشرق المرضع فيها باللبن

جرّها سعد وسعد فتنة

ليت سعد بن عباده لم يكن

ليس ما قدر سعد كائنا

ما جرى البحر وما دام حضن

ليس بالقاطع منا شعرة

كيف يرجى خير أمر لم يحن

ليس بالمدرك منها أبداً

غير أضغاث أماني الوسن

ولما اجمع المسلمون على مبايعة الصديق رأى الهاشميون في ذلك صرفا للخلافة عن مستحقها علي بن أبي طالب، وعبر شعرهم عن ذلك، مشيدا بفضائل الإمام علي، وماضيه في الإسلام فقال: (211*)

ما كنت احسب أن الأمر منصرف

عن هاشم، ثم منها عن أبي حسن

أليس أول من صلى لقبلتكم

واعلم الناس بالقرآن والسنن

واقرب الناس عهدا بالنبي ومن

جبريل عون له في الغسل والكفن

مـــا فـــيـــه مـــا فـــيــهـــم لا يمـــتـــرون بـــه
ولـيـس فـي الـقـوم مـا فـيـه مـن الحـســن
مـــاذا الـــذي ردّهـــم عـــنـــه فـــتـــعـــلـــمـــه
هـــا إنّ ذا غـــبـــنـــنـــا مـــن اعـــظـــم الـــغـــبن

فبعث إليه الإمام علي فنهاه، وأمره ألا يعود، وقال: الدين احب إلينا من غيره. وما إن تولى الخلافة أبو بكر حتى أطلت فتنة المرتدين برأسها، فانتفضت اكثر القبائل العربية، ولم يثبت على الإسلام غير قريش وثقيف والمدينة، وكانت ردة العرب مختلفة، فمنهم من قال: لو كان نبيا ما مات، ومنهم من قال: انقضت النبوة بموت محمد، فلا نطيع أحدا أبدا، ومنهم من قال: نؤمن بالله ونشهد أن محمدا رسول الله، ونصلي ولكن لا نعطي أموالنا. (212*)

وجهز الخليفة الصديق أحد عشر لواء لمحاربة المرتدين، واستنفرت تلك الألوية من كانوا يمرون به من المسلمين، وحقق الله النصر على أيدي تلك الألوية المؤمنة، وهزمت فلول الردة والكفر أمام جحافل الحق، لتختفي من الأرض العربية إلى الأبد.

وكان من الطبيعي أن يواكب الشعر هذا الحدث الرهيب، وان ينقل الشعراء ما كان يدور في مجتمعهم مفصلا، فروى الشعراء مواقف من ثبت على إسلامه في مجتمعات كانت تموج بالردة والكفر، ومع ذلك صمدوا ولم يجرفهم ذلك التيار الهادر، وتجلت بطولات الشعراء في إنكارهم على أقوامهم الردة، ووصمهم إياهم بالكفر والغدر.

فحين ارتدت كندة ثبت منها رجال صادقون وفوا بما عاهدوا الله عليه، وبينهم عدد كبير من الشعراء مثل ثور بن مالك وعبد الله بن زيد وعبد الرحمن بن حبيب، ومن شعراء بني عامر عبد الله بن خنيس وعمارة بن قريط وعبد الله بن مرة، ومن شعراء بني أسد عبد الرحمن ابن الأزور وعبد الرحمن بن حبيش.

إن هؤلاء الشعراء، وغيرهم كثير في القبائل المرتدة، كانوا يمثلون طليعة الإيمان الصادق، وخلاصة الفكر الثاقب وأصالة الوفاء الحق، لعقيدتهم ولمصلحة قومهم . فقد كانت أشعارهم وثائق صادقة، تروي بكل أمانة ما دار من أحداث في تلك المؤامرة التي استهدفت العقيدة والنظام.

والأشعار في تلك الحركة كثيرة جدا، منها قصيدة زيد الخيل الطائي، التي بعث بها إلى الخليفة مصدرة بقوله: [(213*)]

أمــام أمــا تــخــشــين بــنــت أبــي نــصــر
فــقــد قــام بــالأمــر الجــلــي أبــو بــكــر
نجــيّ رســول الــلــه فــي الــغــار وحــده
وصــاحــبــه الــصــدّيــق فــي مــعــظــم الأمــر

وكان عمرو بن العاص أميرًا على الأرض، فاستأذن سادتهم في الرجوع إلى المدينة خشية ارتدادهم عن الإسلام، فوقف شاعر الأزد مجفية بن النعمان العتكي، معبرا له عن أصدق الإخلاص، واعمق الفهم لروح الإسلام، معربا في شعره عن مدى تمسكه بالإسلام، وبسنة النبي * في حياته وبعد فراقه، فأنشد قائلا: [(214*)]

يــا عــمــرو إن كــان الــنــبــيّ مــحــمــد
قــد أتــى الأمــر الــذي لا يــدفــع
فــقــلــوبــنــا قــرحــى ومــاء دمــوعــنــا
جــار وأعــنــاق الــبــريــة خــضــع
يــا عــمــرو إنّ حــيــاتــه كــوفــاتــه
فــيــنــا ونــنــظــر مــا يــقــول ونــســمــع
فــأقــم فــإنــك لا تــخــاف رجــوعــنــا
يــا عــمــرو ذاك هــو الأعــز الأمــنــع

ومن الأحداث التاريخية التي استأثرت باهتمام الشعراء وفجرت أشعارهم، الفتنة التي اندلعت في أواخر أيام الخليفة عثمان، تلك الفتنة التي ذهب ضحيتها الخليفة نفسه، فقد وثب عليه الشعراء مراحل تطورها بدقة.

فالشاعر كعب بن مالك الأنصاري يصور لنا ما كان يدور في داخل الدار التي حوصر فيها الخليفة ومن معه من الصحابة المهاجرين والأنصار، حيث كان هؤلاء الرجال المحاصرون يريدون أن يقاتلوا الأعداء الذين حاصروهم، ولكن الخليفة عزم عليهم إن لا يفعلوا وقال لهم: اعزم على كل من رأي لي عليه سمعا وطاعة أن يكف يده، ويلقي سلاحه، وقال لأبي هريرة:-

عزمت عليك يا أبا هريرة إلا رميت سيفك، فإنما تراد نفسي، وسأقي المؤمنين بنفسي، يقول كعب مصورا موقف الخليفة الشجاع المخلص، الحريص على دماء المسلمين، والمضحي من أجلهم : [*215]

فــكــف يــديــه ثــم أغــلــق بــابــه
وأيــقــن أن الــلــه لــيــس بــغــافــل
وقــال لمــن فــي داره: لا تــقــاتــلــوا
عــفــا الــلــه عــن كــل امــرئ لــم يــقــاتــل
فــكــيــف رأيــت الــلــه صــبّ عــلــيــهــم الــع
داوة والــبــغــضــاء بــعــد الــتــواصــل
وكــيــف رأيــت الخــيــر أدبــر عــنــهــم
وولــىّ كــأدبــار الــنــعــام الجــوافــل

ويؤرخ حسان بن ثابت جانبا آخر من تلك الفتنة، فيصف خذلان الأنصار لعثمان، وما عاناه عثمان من عنت، وما سوف يلاقي القتلة من مطالبتهم بدماء قتلى الدار قال: [*216]

اتــركــتــمــوه مــفــرداً بمــضــيــعــة
تــنــتــابــه الــغــوغــاء فــي الأمــصــار
لــهــفــان يــدعــو غــائــبــا أنــصــاره
يــا ويــحــكــم يــا مــعــشــر الأنــصــار
هــلا وفــيــتــم عــنــدهــا بــوعــودكــم
وفــديــتــم بــالــســمــع والأبــصــار
جــيــرانــه الأدنــون حــول بــيــوتــه
غــدروا وربّ الــبــيــت ذي الأســتــار
إن لــم تــروا مــدداً لــه وكــتــيــبــة
تــهــدي أوائــل جــحــفــل جــرّار
طــاوعــتــم فــيــه الــعــدو وكــنــتــم
لــو شــئــتــم فــي مــعــزل وقــرار
لا يــحــســبن المــرجــفــون بــأنــهــم
لــن يــطــلــبــوا بــدمــاء أهــل الــدار

ويصور الشاعر حنظلة بن الربيع التميمي، كاتب رسول الله ﷺ، نوايا

الذين أشعلوا تلك الفتنة، وانهم يريدون الانقضاض على نظام الحكم المتمثل بالخلافة حيث كانوا يريدون زوالها، فهم لا يختلفون في ذلك عن أعداء الإسلام آنذاك من اليهود والنصارى، فكل فريق منهم قد ضل الطريق الصحيح، فقال: [217*]

عـجـبـت لمـا يـخـوض الـنـاس فـيـه
يـرومـون الخـلافـة أن تـزولا
ولـو زالـت لـزال الخـيـر عـنـهـم
ولاقـوا بـعـدهـا ذلاً ذلـيـلا
وكـانـوا كـالـيـهـود أو الـنـصـارى
سـواء كـلـهـم ضـلـوا الـسـبـيـلا

ويتولى الخلافة الإمام علي، وتندلع الحرب بين المسلمين يوم الجمل، حيث خرجت السيدة عائشة راكبة جملا، مطالبة بدم عثمان، والاقتصاص من القتلة، وتطورت الأمور وتعقدت، وحاول كثير من العقلاء الإصلاح، فلم تفلح جهودهم، واشتعلت الحرب بين الفريقين، وسالت دماء المسلمين على أيدي المسلمين، وكان الشعر العين الساهرة لتسجيل وقائع تلك الأيام السوداء من تاريخ المسلمين، ومن تلك الصفحات التاريخية التي حفظها الشعر أن محمد بن طلحة كان في جيش السيدة عائشة، فجعل لا يحمل عليه أحد إلا حمل عليه وهو يردد: حم لا ينصرون.

فتقدم إليه أحد أنصار علي فطعنه طعنة قاتلة، ثم قال أبياتا مزج فيها بين رأي جماعته السياسي ، وبين ما عرف من تعاليم الدين، حيث وصف ضحيته بالتدين وقلة الأذى للآخرين، فالشاعر يعرض هنا الصراع النفسي الذي كان يعانيه المقاتلون، لان الطرفين في القتال من المسلمين. يقول: [218*]

وأشـعـث قـوام بـآيـات ربـه
قـلـيـل الأذى فـيـمـا تـرى الـعـين مـسـلـم
هـتـكـت لـه بـالـرمـح جـيـب قـمـيـصـه
فـخـرّ صـريـعـا لـلـيـديـن ولـلـفـم
يـذكـرني حـم والـرمـح شـاجـر
فـهـلا تـلاحـم قـبـل الـتـقـدم

علــى غــيـر شــيء غــيـران لــيـس تــابــعــا
عــلــيــاً، ومـــن لا يـــتــبــع الحـــق يـــنــدم

وما تكاد تنتهي أيام الجمل السوداء حتى تقرع وقعة صفين الدامية (أبواب الفتنة من جديد، وتطول أيامها وتتوالى ضحاياها من الفريقين المسلمين، وكلما طالت هذه الأيام كانت تمدنا بأشعار جديدة تؤرخ أحداثها وترسم صورا لشراسة القتال فيها، وقد كثرت فيها المرتجزات والأشعار بصورة ملفتة للنظر، ويزخر كتاب وقعة صفين لابن مزاحم بتلك الأرجاز والأشعار.

ومن الشعراء الذين برزوا في صفين قيس بن عمرو بن مالك النجاشي، وكان من شعراء الإمام علي، ومن شعره قوله يصف جيش الإمام، مهددا معاوية بشجعان العراق والحجاز: (*219)

دعــــن مــــعــــاوي مــــا لـــــن يـــــكـــــونـــا
فــــقـــد حـــقـــق الــــلــــه مـــا تحــــذرونـــا
أتــــاكـــم عـــلـــــيّ بـــأهـــل الـــعـــــراق
وأهـــل الحـــجـــاز فـــمـــا تـــصـــنـــعـــونـــا؟
يـــرون الـــطـــعـــان خـــلال الـــعـــجـــاج
وضـــرب الـــقـــوانـــس فـــي الـــنـــقـــع ديـــنـــا
هـــم، هـــزمـــوا الجـــمـــع جـــمـــع الـــزبـــيـــر
وطـــلـــحـــة والمـــعـــشـــر الـــنـــاكـــثـــيـــنـــا
فـــإن يـــكـــره الـــقـــوم مـــلـــك الـــعـــراق
فـــقـــدمـــاً رضـــيـــنـــا الـــذي تـــكـــرهـــونـــا

وكان في الصف الآخر شاعر بني أمية كعب بن جعيل التغلبي يهاجي شعراء علي ويرد عن الأمويين، ويناقض كل خصومهم . ومعظم أشعار الشاعرين تتخللها الأفكار السياسية إلا أنها ترسم صورة تاريخية لأيام صفين الطويلة، ومعاركها المتتابعة القاسية.

أما الثورات التي اشتعلت في خلال حكم الأمويين، فان الشعر قد حفظ لنا كثيرا من أحداثها وابرز العديد من مواقف المفجرين لها أو المتصدين لهم من الحكام ومؤيديهم.

وقد تصدرت ثورة الإمام الحسين كل تلك الثورات، وتطوراتها معروفة،

حيث آلت إلى نهايتها المفجعة في العاشر من المحرم من سنة إحدى وستين، ولا بد أن تكون الأشعار قد صورت تلك المأساة المؤلمة، إلا أن ما وصل إلينا من أشعارها قليل لا يتناسب مع أهميتها وعمق تأثيرها بعد تلك النهاية الحزينة.

ويعتذر أبو الفرج الأصفهاني مؤرخ (مقاتل الطالبين) عن تلك الظاهرة بقوله: [*220] «وقد رثى الحسين بن علي-صلوات الله عليه-جماعة من متأخري الشعراء، استغني عن ذكرهم في هذا الموضع كراهية الإطالة.

وأما من تقدم فما وقع إلينا شيء رثي به، وكانت الشعراء لا تقدم على ذلك مخافة من بني أمية وخشية منهم».

ولعل من أروع ما حفظ لنا من أشعار هذه الثورة تلك الأرجوزة القصيرة التي كان ينشدها الطرماح بن عدي على فرسه حينما كان يقود أربعة نفر قد اقبلوا من الكوفة على رواحلهم حيث قال: [*221]

يا ناقتي لا تذعري من زجري

وشمري قبل طلوع الفجر

بخير ركبان وخير سفر

حتى تحلي بكريم النجر

الماجد الحرّ رحيب الصدر

أتى به الله لخير أمر

ثم أبقاه بقاء الدهر

فلما انتهوا إلى الحسين انشدوه هذه الأبيات فقال لهم: أما والله أني لأرجو أن يكون خيرا ما أراد الله بنا، قتلنا أم ظفرنا.

وهذا الراجز لا يتحدث عن الثورة وأهدافها وصلتها بالإسلام، وإنما يبث مشاعره الصادقة تجاه الضيف العزيز الذي حل في أرضهم ، مع إشارة خفيفة لمكانته الدينية. ولما أتى أهل المدينة مقتل الحسين خرجت ابنة عقيل بن أبى طالب، ومعها نساؤها وهي حاسرة تلوي بثوبها وهي تقول: [*222]

ماذا تقولون أن قال النبي لكم

ماذا فعلتم وانتم آخر الأمم

بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي

منهم إساري، ومنهم ضرجوا بدم ؟

ويصور الشاعر عبد الله بن الحر الجعفي الكوفي عمق المأساة التي كان يحس بها خاذلو الحسين، ويرسم شعره عظم الحسرة التي كان يشعر بها هؤلاء، وهم يتفرقون من حوله، ويسلمونه لأعدائه بمفرده، مع آل بيته فقط ؛(*223)

يـــا لـــك حـــســـرة مـــا دمـــت حـــيـــاً
تـــردد بـــين حـــلـــقـــي والـــتـــراقـــي
حـــســيـــنـــا حـــين يـــطـــلـــب بـــذل نـــصـــري
عـــلـــى أهـــل الـــعـــداوة والـــشـــقـــاق
ولـــو أنـــي أواســـيـــه بـــنـــفـــســـي
لـــنـــلـــت كـــرامـــة يـــوم الـــتـــلاقـــي
مـــع ابـــن المـــصـــطـــفـــى نـــفـــســـي فـــداء
فـــيـــا لـــلـــه مـــن ألـــم الـــفـــراق
غـــداة يـــقـــول لـــي بـــالـــقـــصـــر قـــولا:
أتـــتـــركـــنـــا وتـــزمـــع بـــانـــطـــلاق ؟
فـــلـــو فـــلـــق الـــتـــلـــهـــف قـــلـــب حـــيّ
لـــهـــمّ الـــيـــوم قـــلـــبـــي بـــانـــفـــلاق
فـــقـــد فـــاز الأولـــى نـــصـــروا حـــســـيـــنـــاً
وخـــاب الآخـــرون أولـــو الـــنـــفـــاق

وهذه القصيدة الرائعة وغيرها مما قاله هذا الشاعر محاولة للتكفير عما ارتكبه أهل الكوفة من خطأ فادح، حين خذلوا الحسين بعد أن دعوه للثورة.

وهكذا ظل الشعراء يعزفون مثل هذا اللحن الباكي الحزين، ويؤرخون تلك المأساة التي ألمت بالمسلمين حين استشهد الإمام الحسين والعديد من آل بيته الطيبين.

وتتوالى الثورات بعد هذه الثورة، فتتفجر ثورة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي سنة أربع وستين، ثأرا لمقتل الحسين، وتكفيرا عن تخليهم عنه في ثورته، ثم المختار الثقفي في سنة ست وستين، فثورة عبد الرحمن بن محمد الأشعث الكندي في سنة إحدى وثمانين، وهي ثورة قاد فيها ابن الأشعث العراقيين ضد حكم الحجاج، وطالت أيامها إلى أن انتهت بهزيمة

ابن الأشعث، وقتله سنة خمس وثمانين.

وقد أثرت هذه الثورة تأثيرا عميقا في الشعر الأموي، ونالت اهتماما كبيرا لدى الشعراء،حيث سار في ركابها عدد منهم، أمثال أبي جلدة بن عبيد الله اليشكري والطفيل بن عامر بن وأثلة الكناني، وعبد الرحمن بن عبد الله المعروف بأعشى همدان.

كان هؤلاء الشعراء يتصدرون جيوش ابن الأشعث وثورته، ويحرضون الناس على تأييد الثورة، و يحمسونهم للقتال مع ابن الأشعث، فقد كان الأعشى يسير بين يدي ابن الأشعث وهو راكب فرسه، في الطريق إلى العراق، قادمين من سجستان وهو يردد : (224*)

شطت نوى من داره بالإيوان
إيوان كسرى ذي القرى والريحان
من عاشق أمسى بزا بلستان
إنّ ثقيفا منهم الكذّابان
كذّابها الماضي وكذّاب ثان
أمكن ربي من ثقيف همدان
يوماً إلى الليل يسليّ ما كان
إنا سمونا للكفور الفتّان
حين طغى في الكفر بعد الإيمان
بالسيد الغطريف عبد الرحمن

وهي تسير على هذا النمط من الحماسة الحربية، والمقارنة بين إيمان ابن الأشعث واتباعه وكفر الحجاج وأتباعه.

ويروى أن الشاعر الطفيل بن عامر كان ينشد وهو قادم مع ابن الأشعث من كرمان في طريقهم لقتال الحجاج، أبياتا تسير على نهج القصيدة السابقة، في التهديد والاحتجاج بإيمان ابن الأشعث وضلال الحجاج حيث كان يقول: (225*)

ألا طرقتنا بالغريّين بعدما
كللنا على شحط المزار جنوب
أتوك يقودون المنايا وإنما
هدتها بأولانا إليك ذنوب

ولا خـيـر فـي الـدنـيـا لمـن لـم يـكـن لـه
مـن الـلـه فـي دار الـقـرار نـصـيـب
ألا أبـلـغ الحـجـاج أن قـد أظـلـه
عـذاب بـأيـدي المـؤمـنـين مـصـيـب

وما قيل من هذه الأشعار يرسم لنا كثيرا من جوانب تلك الثورة، التي سالت فيها دماء إسلامية غزيرة، وزهقت بسببها نفوس مؤمنة كثيرة.

وبعد حرب صفين اشتعلت نار العصبية القبلية من جديد بعد أن أخمدها الإسلام طيلة العصر الإسلامي، واشتعل أوارها أكثر بتقدم السنين في العصر الأموي، وقد واكب الشعر تطوراتها، بل كان في كثير من الأحيان مفجرا لتلك العصبيات.

ومعروف أن النقائض الشعرية الأموية قد ازدهرت في ظل العصبية القبلية، وأنها كانت إحدى ثمراتها، وقد عدت نقائض جرير والفرزدق من اصدق الوثائق لأيام العرب وقبائلها، في الجاهلية والإسلام.

وقد ارتفعت بعض الأصوات الشعرية منكرة على الناس تلك العصبية، مندِّدة بالفخر بالأنساب والتعلق بها، وتتجلى تلك الأصوات بصورة خاصة. لدى شعراء الخوارج، الذين قامت دعوتهم على المساواة بين الناس، التي دعا إليها الإسلام، من ذلك قول شاعر هم عمران بن حطان حين نزل بقوم من الأزد في سواد الكوفة فرحبوا به، ثم سألوه عن نسبه، فقال:[(226*)]

نـزلـنـا بـحـمـد الـلـه فـي خـيـر مـنـزل
نـسـرّ بمـا فـيـه مـن الأنـس و الخـفـر
نـزلـنـا بـقـوم يـجـمـع الـلـه شـمـلـهـم
ولـيـس لـهـم دعـوى سـوى المجـد يـعـتـصـر
مـن الأزد إنّ الأزد أكـرم مـعـشـر
أتـونـي فـقـالـوا: مـن ربـيـعـة أو مـضـر
أم الحـيّ قـحـطـان، فـتـلـكـم سـفـاهـة
كـمـا قـال لـي روح وصـاحـبـه زفـر
ومـا مـنـهـم إلا يـسـرّ بـنـسـبـة
تـقـربـنـي مـنـه وان كـان ذا نـفـر

فنحن بنو الإسلام والله واحد
وأولى عباد الله بالله من شكر(*227)

وارتفعت أصوات أخرى من خارج صفوف الخوارج، تناهض العصبية القبلية، وتدعو إلى الانتماء إلى الإسلام، فهو خير الأنساب وأكرمها عند الله.

من ذلك صوت الشاعر نهار بن توسعة من بني بكر بن وائل، وشاعر بكر في خراسان، الذي فخر بنسبته إلى الإسلام بدل بكر أو تميم حيث قال:(*228)

أبي الإسلام لا أب لي سواه
إذا هتفوا ببكر أو تميم
دعيّ القوم ينصر مدّعيه
فيلحقه بذي النسب الصميم
وما كرم ولو شرفت جدود
ولكن التقيّ هو الكريم

إلا أن هذه الأصوات الضعيفة الخافتة ضاعت وسط الضجيج المتعالي لإشعار العصبية، التي كانت تصدر من كل جانب، حكاما ومحكومين، ويشارك في تغذيتها معظم شعراء العصر الأموي وخصومهم.

وفي غمار انشغال حكام العروبة وبنائها بتلك العصبيات أطلت الشعوبية بوجهها الكريه من بين ركام الفرقة الناتجة عن العصبية القبلية.

وحاول بعض الشعراء تدارك الأمر قبل فوات الأوان، لمعرفتهم بنوايا تلك الفئات التي تدعو إلى تفريق الصفوف والى محو كل أمجاد الأمة وما تعتز به من فضائل، وتعمل على زرع الشك واليأس في نفوس أبناها، فدعا هؤلاء الشعراء المخلصون إلى إعادة الوحدة بين القبائل العربية، لمواجهة الأخطار والمؤامرات التي يحيكها الحاقدون على العروبة والإسلام، تمهيدا للانقضاض على الدولة والنظام الذي بناه حكم الإسلام.

ومن ابرز تلك الصيحات المؤمنة الصادقة قصيدة نصر بن سيار، والي خراسان والتي بعث بها إلى هشام بن عبد الملك بعد أن خبر أحقادهم في أثناء ولايته:-

أرى خلل الرماد وميض نار
ويوشك أنْ يكون لها ضرام

فــإن الــنــار بــالــعــوديــن تــذكــى
وإنّ الحــرب أولــهــا الــكــلام
فــإن لــم تــطــفــئــوهــا تجــن حــربــاً
مــشــمــرة يــشــيــب لــهــا الــغــلام
أقــول مــن الــتــعــجــب لــيــت شــعــري
أأيــقــاظ أمــيــة أم نــيــام
فــإن يــك قــومــنــا أضــحــوا نــيــامــا
فــقــل: قــومــوا فــقــد حــان الــقــيــام
فــفــرّي عــن رحــالــك ثــم قــولــي:
عــلــى الإســلام والمــعــرب الــســلام

وقال في قصيدة أخرى، محذرا القبائل العربية المتناحرة فيما بينها، من شرور الشعوبية، ودعاها إلى نبذ الاختلافات والتوجه ضد العدو المشترك الذي لا يدين إلا بتقتيل العرب، ومحوهم من الوجود :-[*229]

مــا بــالــكــم تــلــقــحــون الحــرب بــيــنــكــم
كــأن أهــل الحــجــا عــن رأيــكــم عــزب
وتــتــركــون عــدوا قــد أحــاط بــكــم
ممــن تــأشــب لا ديــن ولا حــســب
قــدمــا يــديــنــون ديــنــا مــا ســمــعــت بــه
عــن الــرســول ولــم تــنــزل بــه الــكــتــب
فــمــن يــكــن ســائــلا عــن أصــل ديــنــهــم
فــإنّ ديــنــهــم أن تــقــتــل الــعــرب

إن هذه الصيحات المؤمنة-مع الأسف-لم تجد الآذان الصاغية، والقلوب الواعية، ووقع ما تنبأ به الشاعر، عندما قويت شوكة أعداء العرب والمسلمين.

وهكذا ظل الشعر يواكب الأحداث التي كانت تلم بالمجتمع الإسلامي والأمة العربية، طيلة العصريين الإسلامي والأموي، يرصد الأحداث ليسجلها، ويصور وقائع تطوراتها السريعة المتلاحقة، ليحدد أطرها ويوضح أهدافها.

وتكمن أهمية تلك الأشعار وقيمتها في أنها كانت تصدر عن رجال شاركوا في صنع تلك الأحداث بأنفسهم ، وأرخوها بأشعارهم ، لتكون

أصدق الوثائق التاريخية والفنية لتلك المرحلة من مراحل تأريخنا السياسي والأدبي..

الرجز:

وإذا أتينا على الرجز الإسلامي نجده يختلف عما كان عليه قبل الإسلام، فلم يكن نوابغ الشعراء الجاهليين يكثرون من النظم فيه. وكأنه أقل من منزلتهم الشعرية، ولو تصفحنا دواوين الفحول كالنابغة وزهير وطرفة، لما كدنا نجد للرجز مكانا فيه، كما أن الرجز الجاهلي لم يكن إلا قطعا قصيرة يقولها الشاعر في الحروب أو الهجاء. أما في صدر الإسلام والعصر الأموي فنظم فيه كثير من الفحول، وتناولوا معظم الأغراض الشعرية، وبأراجيز طويلة.

قال أبو عبيده.:-إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك، إذا حارب أو شاتم أو فاخر،حتى كان العجاج أول من أطاله وقصره، ونسب فيه، وذكر الديار، واستوقف الركاب عليها، ووصف فيها، وبكى على الشباب، ووصف الراحلة، كما فعلت الشعراء بالقصيد، فكان في الرجاز كامرئ القيس في الشعراء.

وقال غيره:-أول من طول الرجز الأغلب المجلي. [*230] وهو شاعر مخضرم استشهد في نهاوند سنة 21 هـ.

ويقول محمد بن حبيب: كانت العرب تقول الرجز في الحرب والحداد والمفاخرة وما جرى هذا المجرى، فتأتي منه بأبيات يسيرة، فكان الأغلب أول من قصد الرجز، ثم سلك الناس بعد طريقته.

ويؤيد ابن قتيبة هذا الرأي فيقول: إن الأغلب هو أول من شبه الرجز بالقصيد وأطاله. [*231]

وقد طبعت الأراجيز الإسلامية بأفكار الإسلام ومعانيه، وصدر فيها الشعراء عن روح جديدة ونفس ديني واضح.

فجعفر بن أبي طالب كان يقاتل الروم ببسالة في معركة مؤتة التي استشهد فيها، وهو يردد تلك المعاني بقوله: [*232]

يا حبذا الجنة واقترابها

طيبةً وبارداً شرابها

والــــروم روم قــــد دنــــا عـــــذابـــــهـــــا
كـــــافـــــرة بـــــعـــــيـــــدة أنـــــســــابــــهــــا
عـلـيّ إذ لاقـيـتـهـا ضـرابـهـا

ويسلم عمرو بن الجموح الأنصاري، ويثور على الأصنام، ويعلن شكره لله أن هداه وأنقذه قبل أن يكون في ظلمة القبر:

الحــــمــــد لـــــلـــــه الـــــعـــــلـــــي ذي المــــنن
الــــواهـــــب الــــرزّاق ديــــان الـــــديـــــن
هــــذا الـــــذي أنـــــقـــــذنـــــي مـــــن قـــــبـــــل أن
أكـــون فـــي ظـــلـــمـــة قـــبـــر مـــرتـــهـــن
بـأحـمـد المـهـدي الـنـبـي المـرتـهـن [(233*)]

وقد استوعب عبد الله بن رواحة مفاهيم الإسلام ومعانيه في أرجوزة أخرى بمؤتة أيضا، فعبر عن معاني حب الاستشهاد في سبيل الله، وعن اصل خلق الإنسان من نطفة كما ورد في القرآن، حيث قال عندما أحس بتردد نفسه بعض التردد:-

أقـــســـمـــت يـــا نـــفـــســـي لـــتـــنـــزلـــنـــه
لـــتـــنـــزلـــنّ أو لـــتـــكـــرهـــنـــه
إن أجـــلـــب الـــنـــاس وشـــدّوا الـــرّنـــه
مـــالـــي أراك تـــكـــرهـــين الجـــنـــه
قـــد طـــالمـــا قـــد كـــنـــت مـــطـــمـــئـــنـــه
هـــل أنـــت إلا نـــطـــفـــة فـــي شـــنـــه [(234*)]

وتسود رجز الحروب الإسلامية الأولى روح إسلامية جديدة، وعاطفة دينية، صدى لمفاهيم الإسلام وأفكاره.

قال أبو دجانة الأنصاري:-

أنـــا الـــذي عـــاهـــدنـــي خـــلـــيـــلـــي
ونـــحـــن بـــالـــســـفـــح لـــدى الـــنـــخـــيـــل
ألا أقـــوم الـــدهـــر فـــي الـــكـــبـــول
أضـــرب بـــســـيـــف الـــلـــه والـــرســـول [(235*)]

ويردد الشعراء ألفاظ الإسلام الجديدة ومصطلحاته في أرجازهم، فعندما يحقق الله النصر للمسلمين على الفرس يوم جلولاء، يقول شاعر

المسلمين:-

يـــا ربِّ مـــهـــر حـــســـن مـــطـــهـــم

يـــحـــمـــل أثـــقـــال الـــغـــلام المـــســـلـــم

يـــنـــجـــو إلـــى الـــرحـــمـــن مـــن جـــهـــنـــم

يـــوم جـــلـــولاء ويـــوم رســـتـــم

ويـــوم زحـــف الـــكـــوفـــة المـــقـــدم

ويـــوم لاقـــى ضـــيـــقـــة مـــهـــزّم

وخـــرَّديـــن الـــكـــافـــريـــن لـــلـــفـــم (236*)

وفي حرب صفين كان الرجز سجالا بين المتحاربين، يتبارون في المعاني والأفكار الإسلامية، فتناول عبد الله بن بديل الخزاعي فكرة التوكل والإيمان بقضاء الله وقدرته، فقال:-

لـــم يـــبـــق إلا الـــعـــبـــد والـــتـــوكـــل

وأخـــذك الـــتـــرس وســـيـــفـــا مـــقـــصـــل

ثـــم الـــتـــمـــشـــي فـــي الـــرعـــيـــل الأول

مـــشـــي الجـــمـــال فـــي حـــيـــاض المـــنـــهـــل

والـــلـــه يـــقـــضـــي مـــا يـــشـــاء ويـــفـــعـــل (237*)

ويعبر عدي بن حاتم الطائي عن رجائه الله، وخوفه من ذنوبه، وانه لا يعدل بعفو الله شيئا:-

أرجـــو إلـــهـــي وأخـــاف ذنـــبـــي

ولـــيـــس شـــيء مـــثـــل عـــفـــو ربـــي (238*)

ويرتجز رجل من همدان، معبرا عن حرص الأعداء على المال ونكوصهم عن طاعة الله وما نص عليه الإسلام:-

قـــد قـــتـــل الـــلـــه رجـــال حـــمـــص

حـــرصـــاً عـــلـــى المـــال وأيّ حـــرص

غـــروا بـــقـــول كـــذب وخـــرص

قـــد نـــكـــص الـــقـــوم وأي نـــكـــص

عـــن طـــاعـــة الـــلـــه وفـــحـــوى الـــنـــص (239*)

وجسد شعراء الخوارج معاني الإسلام في الشهادة والتقوى، والزهد في الدنيا.

قـــال قـــطـــري بـــن الـــفـــجـــاءة:

حـتـى مـتـى تـخـطـئـنـي الـشـهـاده

والمــوت فـــي أعـــنـــاقـــنـــا قـــلاده

لــيــس الــفــرار فـي الــوغــى بــعـــاده

يـــا ربِّ زدنـــي فـــي الـــتـــقـــى عـــبـــاده

وفـــي الحـــيـــاة بـــعـــدهـــا زهـــاده [*240]

وشاعت في أراجيز العصر الأموي نفحات دينية وأنفاس إسلامية، فديوان العجاج يزخر بالأراجيز الإسلامية ذات المعاني والأفكار الجديدة، التي لم يشهدها الرجز من قبل، قال العجاج: أنشدت أبا هريرة قصيدتي التي أولها: [*241]

الحـــمـــد لـــلـــه الـــذي اســـتـــقـــلـــت

بـــإذنـــه الـــســـمـــاء واطـــمـــأنـــت

بـــإذنـــه الأرض فـــمـــا تـــعـــنـــت

ومـــدّهـــا بـــالـــراســـيـــات الـــثـــبـــت

قال: حتى أتيت على آخرها. فقال: أشهد أنك لمؤمن.

وهذه الأرجوزة تبلغ سبعة وعشرين شطرا. كلها تسير على هذا المنهج الديني. [*242] وله أرجوزة طويلة تسمى الغراء. تبلغ مائة وثمانين شطرا، تزخر أيضا بالمعاني الإسلامية، ومثلها ميمية تبدأ بقوله فالحمد لله العلي الأعظم ذي الجبروت والجلال الأفخم [*243] وتستمر على هذه الوتيرة حتى تبلغ اثنين وثلاثين شطرا.

وحتى الشاعر ذو الرمة، الذي لا نجد أثرا للإسلام في شعره، تأثر في رجزه بالألفاظ والمعاني الدينية، فقال في آخر أرجوزة له:

فـــقـــلـــت: لا و المـــبـــدىء والمـــعـــيـــد

الـــلـــه أهـــل الحـــمـــد والـــتـــمـــجـــيـــد

مـــادون وقـــت الأجـــل المـــعـــدود

مـــوعـــود ربٍّ صـــادق الـــوعـــود

هـــل اغـــدون فـــي عـــيـــشـــة رغـــيـــد

والـــلـــه أدنـــى لـــي مـــن الـــوريـــد

والمـوت يـلـقـى أنـفـس الـشـهـود. [*244]

وهكذا استطاع الرجز استيعاب المعاني الإسلامية، ولم يعد كما كان في العصر الجاهلي مقتصرا على موضوعات خاصة بالحروب وما يتفرع عنها من فخر أو هجاء. وأصبح فنا من الفنون الشعرية المستقلة، لا مقطعات قصيرة يأنف النظم فيه فحول الشعراء.

الحواشي

(*1) جمهرة أشعار العرب 19

(*2) الديوان 305 «طبعة سيد حنفي»

(*3) الديون 1/ 473

(*4) الاستيعاب 4 / 158

(*5) الديوان 112

(*6) الصابة 1/208

(*7) م.ن 1/370

(*8) م.ن 3/120

(*9) الصبح المنير

(*10) الديوان 102 وهي منسوبة للنابغة الجعدي في الشعر والشعراء 294

(*11) سيرة عمر بن عبد العزيز 142

(*12) الديوان 82

(*13) المفضليات 145

(*14) الديوان 63

(*15) معجم الشعراء49

(*16) البيان والتبيين3/ 365

(*17) تاريخ دمشق 6/ 4

(*18) شعراء أمويون 1/ 225

(*19) عيون الأخبار 2/ 304

(*20) م.ن 2/ 302

(*21) الديوان (صبح الأعشى) أنق: فرح وسرور، الحنوط: طيب يتخذ للميت

(*22) ابن عساكر 6/ 43

(*23) كتاب التوابين 139

(*24) الديوان 577 (ط الصاوي)

(*25) الديوان 123

(*26) الديوان 228

(*27) الديوان 30

(*28) شعراء الخوارج 38

(*29) الطبري 7/100

(*30) الأخبار الطوال 138

(*31) سورة النساء. آية 74

(*32) الطبري 4/ 83

(*33) الاستيعاب 298/4
(*34) فتوح الشام 98/2
(*35) ربيع الأبرار 332/3 والحران: العطشان يريد به هنا العطشان إلى الدماء
(*36) معجم البلدان 747/4
(*37) الأغاني 190/13 والإصابة 164/2
(*38) الإصابة 78/1
(*39) الحيوان 77/ 263 والأعبل: حجارة بيض.
(*40) الطبري 3/ 557
(*41) انظر الحيوان 7 / 172
(*42) الإصابة 1/ 318
(*43) معجم البلدان 2/ 328
(*44) فتوح الشام 1/ 209
(*45) فتوح الشام 2/ 160. أضحى المتصل: ظاهر الانتساب.
(*46) م. ن1/115
(*47) م.ن2/174
(*48) فتوح البلدان 473
(*49) شعر الراعي النميري 55
(*50) شعراء أمويون 2/ 390
(*51) الديوان 1/285
(*52) أي يكلفنا جمع الدراهم وأداءها إليه في مطالع الأهلة.
(*53) العبور: كوكب يطلع في الجوزاء.
(*54) انساب الأشراف 4/ 1 / 141
(*55) م. ن 1/4/ 400 و5/332
(*56) يريد مرثد بن شرحبيل، كان أساء في البيع، وزيد مولى عتاب بن ورقاء كان خازنه، ودحروجة الجعل عامر بن مسعود، لقب بذلك لقصره.
(*57) الديوان 238
(*58) الاستيعاب 3/ 521 والأخبار الموفقيات592
(*59) الاستيعاب 2/ 246 وشرح نهج البلاغة 6/8
وسعد: هو سعد بن عبادة الأنصاري الذي دعا لخلافة الأنصار
العيوق: نجم عال.
(*60) الديوان 1/ 88، المصائب: الواحدة نصيبه: الحجارة وأراد بها هنا أساس الملك
(*61) انظر مثلا ديوان جرير 24, 474، والأخطل 21
(*62) الديوان 1/ 295
(*63) الديوان 2 / 352
(*64) انظر مثلا ديوان جرير275, 432
(*65) الهاشميات 37
(*66) الهاشميات 37

(*67) انظر تفصيل ذلك في شعر الكميت، ط. بغداد ج 1 ق 1/ 59

(*69) الهاشميات 92

(*69) مروج الذهب 3/ 242

(*70) الديوان 92

(*71) شعر الخوارج 20

(*72) مروج الذهب 5/ 316

(*73) ربيع الأبرار 3/ 129

(*74) الأغاني 1 / 403

(*75) العمدة 1/ 29

(*76) الأغاني 8/ 91

(*77) العصر الإسلامي 359

(*78) الحب المثالي عند العرب 65

(*79) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام 250

(*80) الحب العذري، نشأته وتطوره 55

(*81) ليلى والمجنون في الأدبيين العربي والفارسي 16

(*82) في الشعر الإسلامي والأموي 81

(*83) حديث الأربعاء 1/188

(*84) ينظر كتابه في سلسلة عالم المعرفة (36)

(*85) قيس ولبنى 144

(*86) ديوانه 117

(*87) شعر يزيد بن الطثرية 92

(*88) الديوان 67

(*89) الديوان 200, 89

(*90) الديوان 73

(*91) ديوان مجنون ليلى293

(*92) كشف الخفاء 2/ 202 وشعر عروة بن حزام ص15

(*93) ديوان مجنون ليلى 189

(*94) قيس و لبنى 103

(*95) الديوان 255

(*96) الإصابة 3/ 41

(*97) ديوان حسان 43 (اسيد حنفي)

(*98) أسد الغابة 4 / 216

(*99) الاستيعاب 3/ 521

(*100) ابن هشام 2/ 466 وما بعدها

(*101) الزعر: قلة الشعر. ومشتجر: مختلف

(*102) شعر النابغة 270

(*103) الإصابة 2/183

(*104) أسد الغابة 1/ 166
(*105) الإصابة 2 / 476
(*106) الديوان 1/ 322 , 159
(*107) شعره وحياته 39 و 63
(*108) ابن عساكر 3/ 323
(*109) الديوان 56
(*110) الأماني 2/134
(*111) تاريخ الإسلام 4/ 69
(*112) الديوان 174
(*113) أسد الغابة 1/ 89
(*114) الديوان 224
(*115) أسد الغابة 1/ 101
(*116) الديوان 203 و 174
(*117) الطبري 4/ 272
(*118) الديوان 294 (البرقوقي)
(*119) الأغاني (الدار) 12 / 30
(*120) الديوان 2 / 282
(*121) الديوان 2 / 72
(*122) الديوان 68
(*123) الديوان 2/686
(*124) الديوان 334
(*125) الديوان 1/416
(*126) شعر الخوارج 84
(*127) ألا: من آل يئل، أي أن وحن ورفع صوته بالدعاء
(*128) الأغاني 21/ 10 (بولاق)
(*129) الديوان 338
(*130) الإصابة 3/ 83
(*131) المدائح النبوية في الأدب العربي 17
(*132) انظر ديوان حسان 379 وطبقات ابن سعد 2/ 309 و225 و 330
(*133) الديوان 259
(*134) م. ن 206
(*135) تاريخ الأدب العربي-فروخ 1/ 326
(*136) الديوان 74
(*137) ابن هشام 1/ 356 واسباب النزول812
(*138) ابن هشام 1/ 355
(*139) أسباب النزول ه
(*140) أسباب النزول 21.

(*141) الهجاء والهجاءون 189 وما بعدها.
(*142) الأغاني 4/137
(*143) العقد الفريد 6/ 145
(*144) العصر الإسلامي 50
(*145) الديوان 251
(*146) الديوان 203
(*147) الديوان 111 و 388.
(*148) البداية والنهاية 4/ 61.
(*149) الإصابة 3/ 195.
(*150) الإصابة 2/ 112
(*151) اللسان (قذع)
(*152) الإصابة 2 / 207
(*153) الأغاني 2/ 52(طبعة ساسي)
(*154) ديوان جرير 1/647 و481 و 338 و 52 و 1015
(*155) الديوان 86
(*156) الديوان 2 / 328
(*157) الطبري 6/ 113
(*158) الكامل في الأدب 2/ 162
(*160) ابن هشام 2/143 سلع: جبل في المدينة، البروق: نبات له أصول تشبه البصل.
(*161) م. ن 2/144. الإبرام: اللئام، نرتق: نصلح.
(*162) الطبري 2/ 523. القرم والمصعب: الفحل الكريم من الإبل يريد به حمزة.
(*163) ابن هشام 2/ 131
(*164) زافر: حاملات الثقل
(*165) الماذي: الدروع اللينة. والنقع الغبار.
(*166) ابن هشام 2/ 13
(*167) الديوان 2/ 155
(*168) الديوان 1/ 157
(*169) الأغاني 8/ 306
(*170) انظر الرثاء ص 6
(*171) سورة البقرة آية 155- 157
(*172) الديوان 208 والجادي. طالب المعروف
(*173) الديوان 211.
(*174) الاستيعاب 2/ 465 البوائج: جمع بائجة،وهي الداهية.
(*175) الديوان 213، محتتن: متتابع
(*176) الاستيعاب 3/ 66
(*177) شعر الخوارج 12
(*178) ديوان الهذليين 1/

(*179) غب : بقيت. ناصب: متعب
(*180) يريد حمار الوحش. والجون: الأسود. والسراه: أعلى الظهر. جدا ئد: أتن وقد اعتبر الشاعر في حدثان الدهر بحمار الوحش، لما ذكروا من انه يعمر مائتي سنة أو اكثر
(*181) الأغاني 6/ 299
(*182) معجم الشعراء 345
(*183) الديوان 186
(*184) شعراء أمويون 1/ 41
(*185) الأغاني 11/ 278(طبعة الدار)
(*186) حلية الأولياء 1/ 104
(*187) ابن هشام 2/ 24
(*188) الطبري 2310/5(الأوربية)
(*189) وفيات الأعيان 4 / 434
(*190) الديوان 221 و 173
(*191) الديوان 167
(*192) الاستيعاب 1/ 14
(*193) طبقات ابن سعد5/ 319
(*194) الديوان 2/ 864
(*195) أخبار القضاة 3/ 33
(*196) شعر الخوارج 60
(*197) الممتع في علم الشعر وعمله 24.
(*198) م.ن
(*199) ابن هشام 1/ 512
(*200) ديوان حسان 94.
(*201) ديوان كعب 224
(*202) نصية: الخيار من القوم
(*203) ذكانا: اشتعال نار حربنا. وتلفع: يشتمل حرها على من يدنو منها
(*204) الفروع: الطعنات المتسعة. وعزالى جمع عزلاء وهي فم السقاء. يتمزع: يتقطع.
(*205) ابن هشام 2/ 172 و 183 وأسد الغابة 2/ 104
(*206) الشلو: البقية. الممزع: المقطع
(*207) ديوان حسان 378
(*208) المرسلات: يريد هنا الملائكة
(*209) أضافها: نزل بها. وبلاط: مستو من الأرض. الغرقد: الشجر
(*210) الأخبار الموفقيات 585
(*211) الأخبار الموفقيات 586
(*212) الأخبار الموفقيات 580
(*213) انظر الفتوحات الإسلامية ص3
(*214) الإصابة 1/ 556- وانظر أشعار من ذكرنا من الشعراء في هذا المصدر أيضا، حيث ترجم

لهم جميعا .
(*215) الإصابة 4/345
(*216) ديوان كعب بن مالك 264
(*217) ديوان حسان 214
(*218) الطبري 4/ 386
(*219) ن. م 4/526
(*220) وقعة صفين 153
(*221) مقاتل الطالبين 81
(*222) الطبري 5 / 405
(*223) الطبري 5/ 466
(*224) شعراء أمويون 1/ 109 .والبيت الأول مخزوم في قوله. ويا لك حسرة .
(*225) الطبري 6/ 337
(*226) الطبري 6/ 343
(*227) شعر الخوارج 24
(*228) روح بن زنباع الجذامي، سيد اليمانية في الشام وقائدها، توفي سنة 84 هـ، وزفر بر الحارث الكلابي
(*229) العقد الفريد 5/ 241 و 224، كان كبير قيس في زمانه، وتوفي سنة75 ه، أما عمران بن حطان شاعر النص ففد توفي في سنة 84 ه، ويظهر أن الشاعر تعمد ذكر اسميهما لأنهما سيدا القبيلتين المتصارعتين في زمانه.
(*230) الشعر والشعراء 1/ 537
(*231) العمدة 1/ 182.
(*232) الشعر والشعراء 2/ 613.
(*233) ابن هشام 2/ 378.
(*234) البداية والنهاية 3/ 166.
(*235) ابن هشام 2/ 379
(*236) م. ن 2/69
(*237) الطبري 3/ 578
(*238) وقعة صفين 276
(*239) م. ن 489
(*240) وقعة صفين 497
(*241) الأخبار الطوال 286.
(*242) أخبار الزجاجي 103
(*243) انظر ديوان العجاج 266
(*244) الديوان 294
(*245) الديوان 225

6 الخصائص الفنية

من الطبيعي ألا يكون الشعراء في صدر الإسلام والعصر الأموي على درجة واحدة من الالتصاق بعقيدتهم الإسلامية، وانصهار وجدانهم بها، ومن هنا اختلفت تجاربهم الشعرية حدة في الانفعال، وقدرة على التعبير عن ذلك الانفعال فتفاوتت أشعارهم . ومع ذلك فثمة سمات عامة يمكن أن يتميز بها شعر تلك الفترة.

ومن تلك السمات أن أشعارهم كانت تعبيرا، جماليا مؤثرا، عن مواقف وتجارب وتصورات أولئك الشعراء، إزاء الكون والحياة والإنسان.

فقد حاول الشعراء التوفيق بين جمالية النص من ناحية وتأثيره من ناحية أخرى.

ومع ذلك فقد شاع في أشعارهم ما نطلق عليه اليوم مصطلح الالتزام، حيث اتخذ الشعر أداة لإصلاح المجتمع، وخدمة العقيدة التي آمنوا بها .

كما تميز الشعر بالواقعية، حيث كان الشعراء يعيشون حياة الناس وينقلون مشاعرهم وأحاسيسهم، ويعبرون بصدق عما يعتمل في صدورهم ، ويجري بينهم، وقت السلم وعند الحرب. إن هذه السمات العامة يمكن أن نلمسها في أي ديوان أو مجموعة شعرية في تلك الفترة.

والى جانب هذه السمات العامة يمكن أن نرى بوضوح اثر الإسلام في كل الجوانب الفنية لتلك الأشعار. حيث يظهر ذلك جليا في أنواع القسم والدعاء والقصص التي قد يستعين بها الشعراء في تعبيرهم فترد في ثنايا أشعارهم .

وامتد هذا التأثير إلي مضامين أشعارهم ومقدماتهم الشعرية والى طريقة التكرار التي برزت في ألفاظ تلك الأشعار وتراكيبها.

أما أسلوب الشعر، فيمكن أن نحس بأثر الإسلام الكبير فيه في بناء القصيدة وصورها وأخيلتها، وفي ثقافة الشاعر التي كان يودعها أشعاره، وفي ألفاظه وتراكيبه ومعانيه. حيث كان الشعراء يغترفون من القرآن الكريم والحديث الشريف، نصا أو روحا، فصدروا عنهما صدور الشذى الفواح عن الأزهار العطرة. وهو ما سمي بالاقتباس.

وعندما يريد الباحث أن يفصل القول في ذلك يجد ذلك جليا واضحا في كل الأساليب الشعرية لتلك الفترة.

القسم:

ومن الأساليب الإسلامية المتميزة القسم ، فقد استعان الشعراء بألوان القسم الجديدة التي وردت في القرآن الكريم ، أو التي استحدثتها المفاهيم والحياة الإسلامية، كالذي نراه في شعر أبي صخر الهزلي.(*1)

أمـــا والـــذي أبـــكـــى واضـــحـــك والـــذي

أمـــات وأحـــيـــا والـــذي أمـــره الأمـــر

حيث تأثر الشاعر بقوله تعالى: «وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات وأحيا» (*2)

ويقسم المتوكل الليثي في قوله: (*3)

لا والـــذي يـــهـــوى إلـــى بـــيـــتـــه

مـــن كـــل فـــجّ مـــحـــرم نـــاحـــل

وهو متأثر إلى حد بعيد بما في قوله تعالى: «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍّ عميق». (*4)

ويقسم مجنون بني عامر قسما قرآنيا مستعينا بما ورد في آي الذكر الحكيم، فيقول: (*5)

ألا زعــمــت لــيــلــى بــأن لا احــبــهــا
بـلـى، والـلـيـالـي الـعـشـر والـشـفـع والـوتـر

وينص القسم القرآني على قوله تعالى: «والفجر وليال عشر، والشفع والوتر». (*6)

ويقتبس المختار الثقفي قسمه من القرآن أيضا، فيقول: (*7)

أمـــا وربّ المـــرســـلات عـــرفـــا
لــتــقــتــلــنّ بــعــد صــفّ صــفــا
وبــعــد ألــف قــاســطــين ألــفــا

وقسم القرآن هو قوله تعالى: «والمرسلات عرفا». (*8)

وقد يعدّد الشعراء صفات الله تعالى التي وردت في القرآن الكريم، وهي صفات لم تكن معروفة في قسم الجاهليين. يقول جرير. (*9)

احــلــف بــالــلــه الــعــزيــز الــقــهــار
مــا لــكــلــيــب مــن حــمــىً ولا دار

واتخذ الشعراء من مناسك الحج ومراسمه في الإسلام وسيلة جديدة للقسم، لما يستشعر الإنسان في تلك المناسك من قدسية ورهبة، ولما يشيع ذكرها من جو ديني.

فيقسم كعب بن معدان الأشقري بربّ المناسك، ومقام إبراهيم، فيقول: (*10)

أنــي وربّ مــنــىً ومــا جــمــعــت
يــوم الــحــجــيــج وأشــهــر الــحــرم
ومــقــام إبــراهــيــم يمــســحــه
مــن كــلِّ أشــعــث نــاحــل الجــســم

ويقسم مجنون ليلى بمن شرع المناسك، ثم راح يعدد تلك المناسك، مبتدئا بصلاة منى، فرمي الجمرات يوم الإفاضة، فالنحر، فحلق الرؤوس، ثم التلبية في صباح العاشر من ذي الحجة، فيقول: (*11)

حــلــفــت بمــن صــلــت قــريــش وجــمــرت
لــه بمــنــىً يــوم الإفــاضــة والــنــحــر
ومــا حــلــقــوا مــن رأس كــل مــلــبــي
صــبــيــحــة عــشــر قــد مــضــين مــن الــشــهــر

ويذكر الأخطل تلك المناسك في حلفه، مترسما طريقة الشعراء المسلمين في ذلك فيقول: (*12)

لقد حلفت بما أسرى الحجيج له

والناذرين دماء البدن في الحرم

ويقسم في موضع آخر بقوله:

حلفت بمن تساق له الهدايا

ومن حلت بكعبته النذور

وحاول الشعراء تأكيد بعض المفاهيم الإسلامية الجديدة من خلال قسمهم، كنزول القرآن من الله تعالى، وإرساله محمدﷺ كما يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب: (*13)

وحقّ من أنزل الآيات في السور

وأرسل المصطفى المبعوث من مضر

ويقسم ايمن بن خريم بمن أنزل القرآن في ليلة القدر، ليؤكد هذه الفكرة الإسلامية الجديدة، فيقول: (*14)

أما والذي أرسى ثبيرًا مكانه

وانزل ذا الفرقان في ليلة القدر

ولم يكتف كثير من الشعراء بقسم واحد في حلفهم ، بل كانوا يكثرون من الأقسام المتعددة، ليرسموا صورا متتابعة، ومشاهد متوالية زيادة في الإبداع الفني، وتقريرا لما يقصدون من المعاني، كالذي نراه في قسم كعب بن جعيل: (*15)

أني وربّ النصارى في كنائسها

والمسلمين إذا ما جمعوا الجمعا

والقائم الليل بالإنجيل يدرسه

لله تسفح عيناه إذا ركعا

ومهرق لدماء البدن عند منى

لأشكرن لابن سيف الله ما صنعا

وتتوالى مثل هذه المشاهد والصور الإسلامية في قسم حميد بن ثور الهلالي وهو يرثي الخليفة عثمان بن عفان (ر ض)، فيقو ل: (*16)

اني ورب الهدايا في مشاعرها

وحيث يقضى نذور الناس والنسك

وربّ كـــلّ مـــنـــيـــب بـــات مـــبـــتـــهـــلا
يـــتـــلـــو الـــكـــتـــاب اجـــتـــهـــادا لـــيـــس يـــتـــرك
لا أنـــكـــرنَّ الـــذي أولـــيـــتـــنـــي أبـــداً
حـــتـــى أعـــدّ مـــع الـــهـــلـــكـــى إذا هـــلـــكـــوا

إن هذه الأقسام جميعا متأثرة إلى حد كبير بالأفكار والمفاهيم والحياة الإسلامية الجديدة، كما إنها من مميزات الشعر في صدر الإسلام وعصر بني أمية، ذكرناها نموذجا لما شاع في دواوين وأشعار تلك الفترة.

الدعاء:

وكان الدعاء من الأساليب ذات العناصر الإسلامية الجديدة، فقد تفنن الشعراء الإسلاميون في أدعيتهم وابتهالاتهم الدينية، فكانت ضروبا مختلفة، منها توحيد الله، والثناء عليه، كقول عمرو ابن الجموح الأنصاري: [*17]

أتـــوب إلـــى الـــلـــه ســـبـــحـــانـــه
واســـتـــغـــفـــر الـــلـــه مـــن نـــاره
واثـــنـــي عـــلـــيـــه بـــآلائـــه
بـــإعـــلان قـــلـــبـــي وإســـراره

ومنها سؤال الله العفو والمغفرة والرحمة، تضرعا إليه، وخشية من عذابه، كقول النعمان بن بشير الأنصاري: [*18]

ربّ أنـــي ظـــلـــمـــت نـــفـــســـي كـــثـــيـــراً
فـــاعـــف عـــنـــي أنـــت الـــغـــفـــور الـــودود
وقـــنـــي شـــرّ مـــن أخـــاف فـــإنـــي
مـــشـــفـــق خـــائـــف لمـــا تـــســـتـــعـــيـــد
مـــن خـــطـــوب إذا ذكـــرت ذنـــوبـــي
وقـــرأت الـــقـــرآن فـــيـــه الـــوعـــيـــد

وتضرع الشعراء إلى الله بنفوس منكسرة، وبقلوب ذليلة، ولهجة مقرة بالزلل، معترفة بالخطأ، ومع ذلك فهي تطمع بعفو الكريم ومغفرة الرحيم، يقول هدبة بن الخشرم: [*19]

أذا الـــعـــرش إنـــي عـــائـــذ بـــك مـــؤمـــن
مـــقـــر بـــزلاتـــي، إلـــيـــك فـــقـــيـــر

وإنـــي-وان قـــالـــوا: أمـــيـــر مـــســـلـــط

وحـــجـــاب أبـــواب لـــهـــن صـــريـــر

لأعـــلـــم أنَّ الأمـــر أمـــرك. إن تـــدن

فـــربّ، وإن تـــغـــفـــر فـــأنـــت غـــفـــور

وعندما كان يخوض الشعراء غمار الحرب، وهم يشدون على أعدائهم ، لم تفارق ألسنتهم تلك الدعوات الصالحات.

فضرار بن الأزور يتقدم نحو العدو فيقاتل، وهو ينشد متفرعا إلى الله، بان يغفر ذنوبه، ويمحو زلاته، ويوفقه إلى خير العمل: (*20)

عـــلـــيـــك ربـــي فـــي الأمـــور المـــتـــكـــل

اغـــفـــر ذنـــوبـــي إنْ دنـــا مـــنـــي الأجـــل

يـــا ربّ وفـــقـــنـــي إلـــى خـــيـــر الـــعـــمـــل

عـــنـــي وامـــح-ســـيـــدي-كـــلّ الـــزلـــل

ولم يجد الشعراء خيرا من الدعاء ملاذا لهم حين تزل منهم الأقدام، وتحيق بهم الأخطاء، يطلبون به التوبة من الله، ويرجون بواسطته المغفرة من الرحمن.

فهذا الشاعر عبد الله بن عوف الأحمر الازدي، يفتك بحوثرة بن وداع الأسدي، لأنه من الخوارج، ولكنه يرى بعد مقتله أثر السجود على وجهه، فيندم على فعلته، ويلجأ إلى الدعاء، لعل الله يغفر له ما ارتكب من خطأ، ويقول: (*21)

قـــتـــلـــت أخـــا تـــقـــى لأنـــال دنـــيـــا

وذاك لـــشـــقـــوتـــي وعـــثـــار جـــدي

فـــهـــب لـــي تـــوبـــة يـــا رب واغـــفـــر

لمـــا فـــارقـــت مـــن خـــطـــأ وعـــمـــد

ومن ضروب الدعاء الأخرى مسألة الخير في الدنيا، والاستزادة من الفضائل فيها، يقول النمر بن تولب: (*22)

أعـــذنـــي ربّ مـــن حـــصـــر وعـــيـــيّ

ومـــن نـــفـــس أعـــالجـــهـــا عـــلاجـــا

ومـــن حـــاجـــات نـــفـــســـي فـــاعـــصـــمـــنـــي

فـــإن لمـــضـــمـــرات الـــنـــفـــس حـــاجـــا

وأنـــت ولـــيـــهـــا وبـــرئـــت مـــنـــهـــا
إلـــيـــك ومـــا قـــضـــيـــت فـــلا خـــلاجـــا
وأنـــت وهـــبـــتـــهـــا كـــومـــا جـــلادا
ارجـــي الـــنـــســـل مـــنـــهـــا، والـــنـــتـــاجـــا
فـــلـــســـت بـــحـــارم الأضـــيـــاف مـــنـــهـــا

وجاعل دونهم بابي رتاجا [*23] وعندما كان يداهم المرض الشعراء، ويعجز الدواء عن الشفاء، لا يجدون أنجع من الدعاء، يستذلون به البرء من الله، أو يستسلمون بواسطته إلى حسن القضاء.

فعندما ألم المرض بالشاعر الأموي عمرو بن أحمر الباهلي، توجه إلى الله بالدعاء قائلا: [*24]

إلـــيـــك إلـــه الحـــقّ ارفـــع رغـــبـــتـــي
عـــيـــاذاً وخـــوفـــاً أن تـــطـــيـــل ضـــمـــانـــيـــا
فـــإن كـــان بـــرءا فـــاجـــعـــل الـــبـــرء نـــعـــمـــة
وإنْ كـــان فـــيـــضـــاً فـــاقـــض مـــا أنـــت قـــاضـــيـــا

وقد يعاني الشعراء المذنبون من وطأة احتدام الصراع بين الشر والخير في داخل نفوسهم ، فيتوجهون إلى الله بالدعاء الخالص، ليجيرهم مما هم فيه، كما نرى في دعاء الشاعر الأموي جحدر المحرزي، وكان يتهم باللصوصية، حيث يقول: [*25]

إنـــي دعـــوتـــك يـــا إلـــه مـــحـــمـــد
دعـــوى، فـــأولـــهـــا لـــي اســـتـــغـــفـــار
لـــتـــجـــيـــرنـــي مـــن شـــرِّمـــا أنـــا خـــائـــف
ربّ الـــبـــريـــة، لـــيـــس مـــثـــلـــك جـــار
تـــقـــضـــي ولا يـــقـــضـــى عـــلـــيـــك وإنمـــا
ربـــي بـــعـــلـــمـــك تـــنـــزل الأقـــدار
أدعـــوه ســـراً مـــنـــاديـــه عـــلانـــيـــة
والـــلـــه يـــعـــلـــم إعـــلانـــي وإســـراري

إن هذا الدعاء الصادق، المنبعث من قلب الشاعر، المقر بقدرة الله، وحسن جواره للمذنبين والعاصين، يدل على تأثره بالمحيط الجديد الذي يعيش فيه، مع ما عرف عنه من اللصوصية والعدائية في سلوكه.

القصص:

لقد استحوذت قصص القرآن على مشاعر الناس في مختلف العصور الإسلامية، وشغفوا بأسلوبها الممتع الأخاذ، وكان للقصاصين والوعاظ دور بارز في انتشار تلك القصص بين الناس، بعد أن توسعوا فيها، وأفادوا من الكتب السماوية الأخرى.

وكان من الطبيعي أن ينتفع الشعراء بتلك الذخيرة الضخمة التي يحويها القرآن الكريم ، ولما لم تكن أشعارهم تستوعب تلك القصص كما وردت في القرآن، فمد اكتفوا بالتقاط ما فيها من إيحاءات موضوعية أو فنية، وأدخلوها في أشعارهم، وهم يعالجون قضايا مجتمعهم الجديد، أو مشاكلهم الخاصة.

وقد توخى هؤلاء الشعراء الغاية التي كانت ترمي إليها قصص القرآن، وهي الاتعاظ والاعتبار، وبخاصة حين كانوا يستشهدون بقصص الأقوام الغابرين، أو قصص الأنبياء التي سردها القرآن.

فعندما دالت دولة فارس، وانهار حكمهم ، وصار أبناء فارس يرعون شاه المسلمين، بعد أن كانوا ملوك وسادة الدنيا، وانهار ملكهم وصار كأنه أضغاث أحلام، حاول الشاعر الإسلامي النابغة الجعدي تشبيه كل ذلك بملك سبأ، الذي أتى عليه سيل العرم من القواعد، فانهار وتهدم، كما قص ذلك القرآن الكريم في سورة سبأ: «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم»[*26] فقال: [*27]

يا أيها الناس هل ترون إلى ... فارس بادت وجدّها رغما

أمسوا عبيدا يرعون شاءكم ... كأنما كان ملكهم حلما

أو سبأ الحاضرين مأرب إذ ... يبنون من دون سيله العرما

وعندما مدح الشاعر الأموي الشمردل بن شريك هلال بن أحوز المازني، واستملاحه، فوعده الرفد، ثم ردده زمانا حتى ضجر، ثم أمر له بعشرين درهما، فدفعها إليه وكيله غلة، فردها، وقال يهجوه بأن لو كان معه مثلا كنز قارون، وقيل له: انتظر رفده. لما قصده وعاد إليه، وقارون ممن قص

القرآن غناه وكثرة صالة بمثل قوله تعالى: «فخرج على قومه في زينته، قان الذين يريدون الحياة الدنيا، يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، إنه لذو حظ عظيم» وقوله تعالى: «إن قارون كان من قوم موسى، فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة». [*28]

قال الشمردل: [*29]

ولــو قــيــل مــثــلا كــنــز قــارون عــنــده

وقــيــل الــتــمــس مــوعــوده لا أعــاوده

ويهجو الشاعر الإسلامي عبد الله بن الحارث قريشا لجحودها حق الله، مشبها جحودهم بجحود عاد ومدين والحجر، وهم ثمود، وكل أولئك الأقوام قص القرآن جحودهم في آيات كثيرة، وفى سور مختلفة، قال: [*30]

وتــلــك قــريــش تجــحــد الــلــه حــقــه

كــمــا جــحــدت عــاد ومــديــن والحــجــر

ووجد الشعراء في قصص الأنبياء التي سردها القرآن الكريم كنزا يستمدون منه تشبيهاتهم ، ويلتمسون فيه الصور التي يرسمون، فعندما يريد النابغة الجعدي أن يهجو رجلا لا يجد خيرا من الإشارة إلى قصة السامري وموسى، التي منها قول موسى للسامري: «وإن لك في الحياة أن تقول لا مساس» [*31] فحرمه مخالطة الناس عقوبة له، فقال الجعدي: [*32]

فــاصــبــح فــي الــنــاس كــالــســامــري

إذ قــال مــوســى لــه: لا مــســاســا

ولما أراد حسان بن ثابت هجاء صفوان بن أمية، الذي كان قد أمر بنيه أن يدخلوا بيت رجل كان بينه وبينه شيء ففعلوا، فعمد حسان إلى المقارنة بين هذه الوصية ووصية يعقوب بنيه التي قصها القرآن، وشتان بينهما، إذ وصى يعقوب بنيه: «يا بني إن الله اصطفى لكم الدين، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون». [*33]

قال حسان: [*34]

والــلــه مــا أوصــى أمــيــة بــكــره

بــوصــيــة أوصــى بــهــا يــعــقــوب

ويفصل حسان قصة قرآنية في هجائه شاعر المشركين، بطريقة أوضح من الإشارات المقتضبة التي رأيناها في النماذج السابقة، فيقول: [*35]

يكون إذا بث الهجاء لقومه
ولاح شهاب من سنا البرق واقد
كأشقى ثمود إذ تعاطى بسيفه
خصيلة أم السقب والسقب وارد
فولّى فأوفى عاقلا رأس صخرة
نما فرعها واشتد منها القواعد
فقال: ألا فاستمتعوا في دياركم
فقد جاءكم ذكر لكم ومواعد
ثلاثة أيام من الدهر لم يكن
لهنّ بتصديق الذي قال زائد

فحسان يشبه مهجوة بأشقى ثمود، الذي عقر ناقة النبي صالح، وكان شؤما على قومه، وقص تعالى حديثه بقوله: «إذ انبعث أشقاها، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها» [36*] وفي قول حسان: إذ تعاطى بسيفه. استعان بقصة ثمود أيضا «فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر» [37*]

ثم ينتقل في البيتين الآخرين إلى إشارة أخرى من تلك القصة «فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، ذلك وعد غير مكذوب»[38*]

وهكذا التقط الشاعر إشارات من قصة متكاملة وردت في أكثر من موضع في القرآن، وفي سور مختلفات، اعتمادا على فطنة السامع ومعرفته بتفاصيل تلك القصة.

وهكذا كان دأب اكثر الشعراء فهم يكتفون بإيراد رموز، ولا يفصلون الحديث اعتمادا على فطنة السامع وحفظه القرآن.

ويتحدث النعمان بن بشير عن قصة يونس باختصار شديد، فيقول:[39*]

وابن متى الذي تداركه الله
من الغمّ وهو فيه عميد
فدعاه دعوةً وقد غيبته
ظلم دونها حنادس سود

ومعروف أن قصة النبي يونس في القرآن جاءت كالآتي:

«فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت، إذ نادى وهو مكظوم، ولولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم، فاجتباه ربه فجعله

من الصالحين». [*40] وينتفع الفرزدق بقصة يونس أيضا، ولكنه يرويها بأسلوب آخر حيث يقول: [*41]

فقلت لها: ما باحتيال ولا يد
خرجت من الغميّ ولا بالجعائل
ولكنّ ربي ربّ يونس إذ دعا
من الحوت في موج من البحر سائل
دعا ربه، والله أرحم من دعا
وأدناه من داع دعا متضائل

ولما أراد جرير أن يمدح أيوب بن سليمان بن عبد الملك، وجد في قصة يوسف معينا ثرا يستطيع الانتفاع به للتعبير عما يريد، فقال: [*42]

كونوا كيوسف لما جاء اخوته
واستعرفوا قال: ما في اليوم تثريب
الله فضله، والله وفقه
توفيق يوسف إذ وصاه يعقوب

في إشارة لقوله تعالى: «قالَ لا تثريبَ عليكمْ اليومَ» [*43]

وكانت تلك القصص زادا لكل شعراء العصر الأموي لا ينضب، بغض النظر عن دياناتهم .

فهذا الشاعر النصراني الأخطل يزخر شعره بإشارات سريعة لقصص الأنبياء التي كان يختزنها في ذاكرته، فيخاطب يزيد بقوله: [*44]

أما يزيد، فأني لست ناسيه
حتى يغيبني في الرمس ملحود
جزاك ربك عن مستفرد وحد
نفاه عن أهله جرم وتشريد
جزاء يوسف إحساناً ومغفرة
أو مثل ما جزي هارون وداود
أو مثل ما نال نوح في سفينته
إذ استجاب لنوح، وهو منجود
أعطاه من لذة الدنيا وأسكنه

في جنة نعمة فيها وتخليد عندما يهجو نفيع بن صفار المحاري، الذي

ألح في الفخر بقومه وأيامهم على التغلبيين، يشير الأخطل إلى حية موسى التي توسلها يوم أيده الله بنصره، والتي ذكرها القرآن في قصة موسى وفرعون بقوله تعالى: «فألقاها فإذا هي حية تسعى[45*]»

قال الأخطل: [46*]

تــخــل ابــن صــفــار فــلا تــذكــر الــعــلا
ولا تــذكــرن حــيــات قــومــك فــي الــذكــر
فــقــد نــهــضــت لــلــتــغــلــبــيــين حــيــة
كــحــيــة مــوســى يــوم أيــد بــالــنــصــر

وقد يورد الشاعر شيئا من قصص الغابرين وشيئا من قصص الأنبياء، ويجمع بينهما حين يكون ذكرهما يفيد العبرة والاتعاظ.

فقد ضرب النعمان بن بشير المثل بقصص الأقوام الغابرين، كقوم تبع وثمود، وتقصص الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم ، كقوم شعيب وهود، فقال: [47*]

قــد رأيــتــم مــســاكــن كــان فــيــهــا
قــبــلــكــم قــوم (تــبــع) و (ثــمــود)
وقــرون لــقــتــهــم رســل الــلــه
(شــعــيــب) فــكــذبــوه و (هــود)

ويظهر تأثر الفرزدق بقصص القرآن واضحا، وهو يهجو إبليس في قصيدته الميمية المعروفة حيث يقول: [48*]

يــظــل يمــنــيــنــي عــلــى الــرحــل واركــا
يــكــون ورائــي مــرة وأمــامــي
يــبــشــرنــي أن لــنْ أمــوت وأنــه
ســيــخــلــدنــي فــي جــنــة وســلام
فــقــلــت لــه: هــلاّ أخــيــك أخــرجــت ؟
يمــيــنــك مــن خــضــر الــبــحــور طــوام
رمــيــت بــه فــي الــيــمّ لمــا رأيــتــه
كــفــرقــة طــودي يــذبــلٍ وشــمــام
فــلــمــا تــلاقــى فــوقــه المــوج دامــيــا
نــكــصــت ولــم تحــتــل لــه بمــرام

ألـم تـأت أهـل الحـجـر والحـجـر أهـلـه
بـأنـعـم عـيـش فـي بـيـوت رخـام
فـقـلـت: اعـقـروا هـذه الـلـقـوح فـإنـهـا
لـكـم، أو تـتـيـحـوهـا، لـقـوح غـرام
فـلـمـاّ أتـاحـوهـا تـبـرأت مـنـهـم،
وكـنـت نـكـوصـاً عـنـد كـل ذمـام
وآدم قـد أخـرجـتـه، وهـو سـكـن
وزوجـتـه ، مـن خـيـر دار مـقـام

والفرزدق في هذه الأبيات أفاد من ثلاث قصص قرآنية، إذ أشار في الأبيات 3- 5الى قصة فرعون الذي غرق وجنده في البحر. تلك القصة التي فصلها القرآن، وختمها بقوله تعالى: «فأخذناه وجنوده، فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين».[*49]

وهو يشير في الأبيات 6- 8 إلى قصة قوم ثمود التي سبق أن ذكرنا بعض آياتها.

وفي البيت الأخير يشير إلى قصة إخراج آدم وزوجه من الجنة التي ختمها القرآن بقوله تعالى: «فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه».[*50]

التكرار:

ويعد التكرار سمة بارزة من سمات الشعر الإسلامي، وقد يكون الشعراء متأثرين بالأسلوب القرآني الذي كثيرا ما اعتمد التكرار من اجل التقرير والتأكيد.

فالشعراء سلكوا هذا المذهب للتأكيد والإفهام والإقناع. فحسان ابن ثابت عندما يرثي الرسولﷺ يلجأ إلى هذا الأسلوب ويكرر في قوله:[*51]

فـبـوركـت مـولـوداً، وبـوركـت نـاشـئـا
وبـوركـت عـنـد الـشـيـب، إذ أنـت أشـيـب
وبـورك قـبـر أنـت فـيـه، وبـوركـت
بـه ولـه، أهـل لـذلـك ، يـثـرب

فقد كرر كلمة (بورك) خمس مرات في هذين البيتين، وعندما كان

يفخر يسلك أسلوب التكرار أيضا، فيكرر صدر البيت في قوله: [52*]

ومـــن خـــيـــر حـــيّ يـــعـــلـــمـــون لـــســـائـــل

غـــيـــاثـــا وعـــانٍ مـــوثـــق فـــي الـــســـلاســـل

ومـــن خـــيـــر حـــيّ يـــعـــلـــمـــون لجـــارهـــم

إذا اخـــتـــارهـــم فـــي الأمـــن أو فـــي الـــزلازل

ومن التكرار الذي يفيد التأكيد قول انس بن زنيم الدؤلي يخاطب ا لرسولﷺ: [53*]

تـــعـــلـــم رســـول الـــلـــه أنـــك مـــدركـــي

وان وعـــيـــداً مـــنـــك كـــالأخـــذ بـــالـــيـــد

تـــعـــلـــم رســـول الـــلـــه أنـــك قـــادر

عـــلـــى كـــل صـــرم مـــتـــهـــمـــين ومـــنـــجـــد

تـــعـــلـــم بـــأن الـــركـــب ركـــب عـــويمـــر

هـــم الـــكـــاذبـــون المخـــلـــفـــون كـــل مـــوعـــد

ومن التكرار المفيد قول الفضل بن العباس، يخاطب المشركين في فتوح الشام: [54*]

أقـــروا بـــأنّ الـــلـــه لا ربّ غـــيـــره

وإلا تـــروا أمـــرا عـــظـــيـــمـــاً مـــداجـــيـــا

أقـــروا بـــأنَّ الـــلـــه أرســـل احـــمـــداً

نـــبـــيـــاً كـــريمـــاً لـــلـــخـــلائـــق هـــاديـــا

والتكرار ظاهرة عامة في الشعر الأموي، وقد تكون أكثر وضوحا فيه من العصر الإسلامي. ومنه تكرار جرير اسم من يهجوه مرات عديدة، بقصد السخرية وتأكيد اسم المهجو، كقوله في بني نمير، قوم الشاعر النميري: حيث كرر اسمهم في قصيدة واحدة اثنتين وعشرين مرة، حيث قال فيها: [55*]

وقـــد جـــلـــت نـــســـاء بـــنـــي نمـــيـــر

ومـــا عـــرفـــت أنـــامـــلـــهـــا الخـــضـــابـــا

إذا حـــلـــت نـــســـاء بـــنـــي نمـــيـــر

عـــلـــى تـــبـــراك خـــبـــثـــت الـــتـــرابـــا

ولـــو وزنـــت حـــلـــوم بـــنـــي نمـــيـــر

عـــلـــى المـــيـــزان مـــا وزنـــت ذبـــابـــا

فـــصـــبـــراً يـــا تـــيـــوس بـــنـــي
نمـــيـــر فـإن الحـــرب مـــوقـــدة شـــهـــابـــا
لـــعـــمـــر أبـــي نـــســـاء بـــنـــي نمـــيـــر
لـــســـاءلـــهـــا بمـــقـــصـــلـــتـــي ســـبـــابـــا

وعرف الكميت بكثرة تكراره في الشعر، نحو قوله يمدح بني هاشم:(56*)

فـــإنـــهـــم لـــلـــنـــاس فـــيـــمـــا يـــنـــوبـــهـــم
غـــيـــوث حـــيـــا يـــنـــفـــى بـــه المحـــل ممـــحـــل
وإنـــهـــم لـــلـــنـــاس فـــيـــمـــا يـــنـــو بـــهـــم
أكـــفّ نـــدىً تجـــدي عـــلـــيـــهـــم وتـــفـــضـــل
وإنـــهـــم لـــلـــنـــاس فـــيـــمـــا يـــنـــوبـــهـــم
عـــرى ثـــقـــة حـــيـــث اســـتـــقـــلـــوا وحـــلـــلـــوا
وإنـــهـــم لـــلـــنـــاس فـــيـــمـــا يـــنـــوبـــهـــم
مـــصـــابـــيـــح تـــهـــدي مـــن ضـــلال ومـــنـــزل

ومن تكرار الشعراء الأمويين قول الفرزدق، حيث كرر لفظة (عشية) أربع مرات في أربعة أبيات متتاليات: (57*)

عـــشـــيـــة لـــم تمـــنـــع بـــنـــيـــهـــا قـــبـــيـــلـــة
بـــعـــزّ عـــراقـــيّ ولا بـــيـــمـــان
عـــشـــيـــة مـــا ودّ ابـــن غـــرّاء أنـــه
لـــه مـــن ســـوانـــا إذ دعـــا أبـــوان
عـــشـــيـــة ودّ الـــنـــاس أنـــهـــم لـــنـــا
عـــبـــيـــد، إذ الجـــمـــعـــان يـــضـــطـــربـــان
عـــشـــيـــة لـــم تـــســـتـــر هـــوازن عـــامـــر
ولا غـــطـــفـــان عـــورة ابـــن دخـــان

ومنه تكرار ثابت قطنة في قوله: (58*)

فـــدت نـــفـــســـي فـــوارس مـــن تمـــيـــم
غـــداة الـــرّوع فـــي ضـــنـــك المـــقـــام
فـــدت نـــفـــســـي فـــوارس اكـــنـــفـــونـــي
عـــلـــى الأعـــداء فـــي رهـــج الـــقـــتـــام

ويفرط مالك بن الريب في تكراره، حين يكرر لفظة (در) سبع مرات في

خمسة أبيات حين رثى نفسه بقوله: [(*59)]

فـــلــــلــــه درّي يـــوم أتـــرك طـــائـــعـــا
بـــنـــيّ بـــأعـــلـــى الـــرقـــمـــتـــين ومـــالـــيـــا
ودرّ الـــظـــبـــاء الـــســـانـــحـــان عـــشـــيـــة
يـــخـــبـــرن أنـــي هـــالـــك مـــن ورائـــيـــا
ودرّ كـــبـــيـــري الـــلـــذيـــن كـــلاهـــمـــا
عـــلـــيّ شـــفـــيـــق نـــاصـــح لـــو نـــهـــانـــيـــا
ودرّ الـــرجـــال الـــشـــاهـــديـــن تـــفـــتـــكـــي
بـــأمـــري ألاّ يـــقـــصـــروا مـــن وثـــاقـــيـــا
ودرّ الـــهـــوى مـــن حـــيـــث يـــدعـــو صـــحـــابـــتـــي
ودرّ لجـــاجـــاتـــي ودرّ انـــتـــهـــائـــيـــا

ولو دققنا في الأشعار التي قيلت في تلك الفترة لوجدنا نماذج كثيرة أخرى من هذا التكرار.

الاقتباس:

نهج شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي نهج استيحاء القرآن والحديث النبوي. وحاولوا تقليد أسلوبيهما، فقد كان القرآن يمثل الذروة العليا في البلاغة العربية ويليه الحديث النبوي في ذلك.

فاقتباس الشعراء منهما إنما يعني محاولة التقرب من تلك الذروة العالية، وكلما ازداد الشاعر في اقتباسه كان اقرب إلى تلك الذروة.

«وليس المقصود بالاقتباس من القرآن تقليده في طريقة معالجته لموضوعاته، فالغرض الديني الواضح والأصيل في القرآن هو الذي يحكم موضوعاته وتوجيهاته وتعبيراته، ولكنه-مع وفائه بالغرض الديني كاملا- يحمل خصائص فنية تصل إلى حد الإبداع والإعجاز. وذلك إلى جانب المفاهيم التي يعرضها عن الكون والحياة والإنسان.

وحين نحاول الإفادة من القرآن في مجال الفن، فسنلجأ إلى الناحيتين معا، المفاهيم وطرق الأداء، ولكن لا لتقليدها، وإنما لالتقاط التوجيه الذي تحمله، والنسج على منواله فيما ننشئ من الفنون»[(*60)] والشعر في طليعة تلك الفنون.

وليس من السهل أن يستقصي الباحث ما اقتبس الشعراء الإسلاميون من القرآن لأنهم كانوا على صلة وثيقة به، عاشوا معه، واستمدوا منه أفكارهم، واكثر صورهم وألفاظهم ومعانيهم، فتلونت أشعارهم بقرآنية واضحة.

ومع ذلك فيمكن تقسيم ذلك الاقتباس الأموي أربعة أنواع هي:

النوع الأول: اقتباس الآيات القرآنية مع تحوير بسيط أو كبير في تركيب الجمل وترتيبها محافظة على الوزن، وانسجاما مع القافية.

من ذلك قول حسان بن ثابت متحدثا عن الشيطان: (*61)

دلاهم بغرور ثم أسلمهم
إن الخبيث لمن والاه غرّار

وقال: إني لكم جار فأوردهم
شرّ الموارد فيه الخزي والعار

اقتبس ذلك من قوله تعالى: (*62) «وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس، واني جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه، وقال اني بريء منكم».

وقال عمار بن ياسر: (*63)

انهم عند ربهم في جنان
يشربون الرحيق والسلسبيلا

من شراب الأبرار خالطه المس
ك وكأساً مزاجها زنجبيلا

اقتبس ذلك من قوله تعالى: (*64) «ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا، عينا فيها تسمى سلسبيلا.»

وكان الشاعر النعمان بن بشير الأنصاري من اكثر الشعراء تأثراً بالقرآن، واقتباسا منه، فقد كاد ينظم الآيات القرآنية شعراً.

وتعد قصيدته الدالية نموذجا لاقتباس الشعراء من القرآن، ومن تلك القصيدة قوله: (*65)

قد آتاكم مع النبيّ كتاب
صادق تقشعر منه الجلود

اقتبس ذلك من قوله تعالى: (*66) ﴿**الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها**

مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ . وقوله:

فـــطـــعـــام الـــغـــواة فـــيـــهـــا ضـــريـــع

وشــــراب مـــــن الحـــــمـــــيـــــم صـــــديـــــد

اقتبس ذلك من قوله تعالى: [*67] «ليس لهم ا طعام إلا من ضريع». وقوله تعالى: «والذين كفروا لهم شراب من حميم».

ومنها:

وتـــرى الـــنـــاس يـــحـــســـبـــون مـــن الـــكـــر

ب ســـكـــارى بـــل الـــعـــذاب شـــديـــد

اقتبسه من قوله تعالى: [*68] **﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾** .

والقصيدة كلها تسير على هذا النهج القرآني الواضح. أما موعظته الدالية، فهي لا تقل عن هذه القصيدة من حيث الاقتباس، فقد حاول ترجمة الآيات القرآنية ترجمة فيها شيء قليل أو كثير من التصرف، حيث يقول فيها: [*69]

فـكـيـف لـو أنّ الـلـيـل كـان عـلـيـكـم

ظـلامـا إلـى يـوم الـقـيـامـة سـرمـدا

مـن الخـالـق الـبـاري لـكـم كـنـهـاركـم

نـهـارا يـجـلـيّ لـيـلـه المـتـغـمـدا

ومـن ذا الـذي إن أمـسـك الـلـه رزقـه

أتـاكـم بـرزق مـثـلـه غـيـر انـكـدا

فهو يقتبس ذلك من قوله تعالى: [*70] **﴿قل رأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة، من اله غير الله يأتيكم بضياء». و«أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾** . ومنها:

مـرجـت لـنـا الـبـحـريـن: بـحـراً شـرابـه

فـرأت وبـحـراً يـحـمـل الـفـلـك اسـودا

أجـاجـا إذا طـابـت لـه ريـحـه جـرت

بـه، وتـراهـا حـين تـسـكـن ركـدا

فـمـا مـنـكـم مـحـصٍ لـنـعـمـة ربـه

وان قـال مـا شـا أن يـقـول وعـدّدا

اقتبس ذلك من قوله تعالى: (*71) ﴿**وهو الذي مرج البحرين، هذا عذب فرأت، وهذا ملح أجاج**﴾ و ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾.

وعندما يفخر عبيد الله بن قيس الرقيات بالبيت الحرام قائلا: (72*)

ليس لله حرمة مثل بيت
نحن حجابه عليه الملاء
خصه الله بالكرامة فالبا
دون والعاكفون فيه سواء

يأخذ ذلك من قوله تعالى: (73*)﴿**والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد**﴾.

والنوع الثاني: اقتباس المعنى أو الفكرة التي وردت في آيات القرآن الكريم .-من ذلك قول حسان بن ثابت: (74*)

وهل يستوي ضلّال قوم تسفهوا
عمىً وهداة يهتدون بمهتد

اخذ هذا المعنى من قوله تعالى: (75*) ﴿**قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور**﴾.

أما قوله: (76*)

صلى الإله ومن يطيف بعرشه
والطيبون على المبارك أحمد

فقد نظر فيه إلى قوله تعالى: (77*) «إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما».

وقال عبد الله بن رواحة يصف النبي (ص): (78*)

يبيت مجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

وقد اقتبس هذا المعنى من قوله تعالى: (79*) «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا». وقال النعمان بن بشير: (80*)

وأخرج ذرياتكم من ظهوركم
جميعا لكيما تستقيموا، واشهدا
عليكم وناداكم: ألست بربكم ؟
فقلتم : بلى عهداً علينا مؤكدا

لــكــيــلا يــقــولــوا: إنمــا ضــلَّ قــبــلــنــا
الــقــرون نــصــارى هــم ومــن قــد تــهــوّدا
وكــنــا خــلــوفــاً بــعــدهــم ، لــم يــكــن لــنــا
كــتــاب، ولــم يــجــعــل لــنــا الــلــه مــوعــدا

وقد اقتبس الشاعر أفكاره وحواره من القرآن الكريم في قوله تعالى:(*81)

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا: بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة: إن كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم. أتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ .

وقال جرير: (*82)

لمــا أضــلــهــم الــشــيــطــان قــال لــهــم:
أخــلــفــتــكــم عــنــد أمــر الــلــه مــيــعــادي

اقتبس هذا المعنى من قوله تعالى: (*83) **﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر: إن الله وعدكم وعد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم﴾** .

وقال الفرزدق: (*84)

إن الــرســول قــضــاه الــلــه رحــمــتــه
لــلــنــاس، والــنــاس فــي ظــلــمــاء ديــجــور

اقتبس معنى البيت من قوله تعالى: (*85) «وما أرسلناكَ إلا رحمة للعالمين».

واللون الثالث من الاقتباس أن يكتفي الشاعر باقتباس إشارة توحي للقارئ اللبيب بآية أو اكثر من آيات القرآن الكريم .

من ذلك إشارة كعب بن مالك في قوله: (*86)

أمــر الإلــه بــربــطــهــا لــعــدوّه
فــي الحــرب إن الــلــه خــيــر مــوّفــق
لــتــكــون غــيــظــا لــلــعــدو وحــيــطــا
لــلــدار أن دلــفــت خــيــول الــنــزّق

حيث يشير إلى قوله تعالى: (*87)

﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ .

ومنه قول ذي الرمة: (*88)

وعــيــنــان قــال الــلــه: كــونــا فــكــانــتــا

فــعــولــين بــالألــبــاب مــا تــفــعــل الخــمــر

وهو يشير في هذا البيت إلى قوله تعالى: (*89) ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون**﴾.

وقول جرير: (*90).

إنـــي لآمـــل مـــنـــك خـــيـــراً عـــاجـــلا

والـــنـــفـــس مـــولـــعـــة بـــحـــب الـــعـــاجـــل

والـــلـــه أنـــزل فـــي الـــكـــتـــاب فـــريـــضـــة

لابـــن الـــســـبـــيـــل ولـــلـــفـــقـــيـــر الـــعـــائـــل

يشير الشاعر في البيت الثاني إلى قوله تعالى: (*91) ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله**﴾.

ومعظم ما ذكرنا من قبل في «قصص القرآن في الشعر الإسلامي» يمكن أن يدخل في هذا اللون من الاقتباس.

أما النوع الرابع فهو أن يقتبس الشاعر الآية نفسها، ويضمنها شعره، بلا تغيير أو تبديل، وهو قليل، لان الالتزام به صعب، وقد لا يستقيم تطبيقه مع وزن الشعر أو قافيته.

ومن ذلك القليل قول الحصين بن الحمام المري: (*92)

أعـــوذ بـــربـــي مـــن المخـــزيـــات

يـــوم تـــرى الـــنـــفـــس أعـــمـــالـــهـــا

وخـــف المـــوازيـــن بـــالـــكـــافـــريـــن

وزلـــزلـــت الأرض زلـــزالـــهـــا

حيث اقتبس الأخير من نص الآية: (*93) «إذا زلزلت الأرض زلزالها».

ومن هذا الاقتباس قول حمزة بن عبد المطلب في صفات الشيطان: (*94)

وقـــال لـــهـــم : إذ عـــايـــن الأمـــر واضـــحـــا

بـــرئـــت إلـــيـــكـــم مـــا بـــي الـــيـــوم مـــن صـــبـــر

فـــإنـــي أرى مـــا لا تـــرون وإنـــنـــي

أخـــاف عـــقـــاب الـــلـــه والـــلـــه ذو قـــســـر

اقتبس صدر البيت الثاني من نص الآية: (*95) ﴿**وقال: إني بريء منكم**.

إني أرى مالا ترون﴾.

وكما اقتبس الشعراء من القرآن فقد تواردوا على الحديث النبوي، يقتبسون من بلاغته الرائعة، ويعبون من أسلوبه المشرق، فقد وهب الله النبي جوامع الكلم كما قال: (*96) «بعثت بجوامع الكلم» ومنحه فصاحة المنطق حيث قال: (*97) «أنا افصح من نطق بالضاد».

وتلون اقتباس الشعراء من الحديث أيضا، فكان على أنواع:

النوع الأول: أن يقتبس الشعراء نص الحديث، ولكنهم يغيرون في بعض ألفاظه أو تراكيبه، محافظة على وزن الشعر أو قافيته، من ذلك قول الشاعر التميمي في حروب الردة، يمدح قيس ابن عاصم التميمي: (*98)

وقال النبي له إذ أتى

هو اليوم سيد أهل الوبر

اقتبس ذلك من قول الرسولﷺ عن قيس (*99): هذا سيد أهل الوبر.

ومن ذلك قول النمر بن تولب: (*100)

ودعوت ربي بالسلامة جاهداً

ليصحني فإذا السلامة داء

اقتبس ذلك من الحديث: (*101) «كفى بالسلامة داء».

ومن هذا الاقتباس قول شاعر الأنصار: (*102)

وقال رسول الله والحق قوله

لمن قال منا: من تسمون سيدا؟

فقالوا له: الجد بن قيس على التي

نبخله فيها وان كان أسودا

فتى ما تخطى خطوة لدنية

ولا مدّ في يوم إلى سوءة يدا

فسود عمرو بن الجموح بجوده

وحق لعمرو بالندى أن يسودا

وقد اقتبس ذلك من المحاورة التي جرت بين الرسولﷺ والأنصار، حيث قال الرسولﷺ: (*103) «من سيدكم؟ فقالوا: الجد بن قيس على بخل فيه. فقال عليه السلام: أي داء أذوى من البخل؟ بل سيدي الجعد الأبيض عمرو بن الجموح».

ومن الشعراء الذين اقتبسوا من الحديث، وتصرفوا في تركيبه بما يوافق الوزن والقافية، الشاعر الأموي هدبة بن الخشرم، حيث يقول: (*104)

وأحـــبـــب إذا أحـــبـــبـــت حـــبـــاً مـــقـــاريـــاً
فـــإنـــك لا تـــدري مـــتـــى أنـــت نـــازع
وابـغـض إذا أبـغـضـت بـغـضـاً مـقـاريـا
فـــإنـــك لا تـــدري مـــتـــى أنـــت راجـــع

اخذ ذلك من قول الرسولﷺ: (*105) «أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وابغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما».

والنوع الثاني من الاقتباس أن يختصر الشاعر كلمات الحديث بألفاظ قليلة، تناسب طبيعة الشعر ولا تخل بالمعنى، أو يرمز إلى حديث بإشارة سريعة، من ذلك قول بجيد بن عمران الخزاعي يفخر بقومه: (*106)

وقـد أنـشـأ الـلـه الـسـحـاب بـنـصـرنـا
ركـام سـحـاب الـهـيـدب المـتـراكـب

وهو يشير بذلك إلى قول الرسولﷺ حين استنصره عمرو بن سالم الخزاعي: (*107) «نصرت يا عمرو بن سالم» ثم عرض لرسول اللهﷺ سحاب من السماء، فقال: «إن السحابة لتستهل بنصر بني كعب».

ومن هذا النوع قول أحد أبناء سعد بن معاذ الأنصاري: (*108)

ومـا اهـتـز عـرش الـلـه مـن مـوت هـالـك
سـمـعـنـا بـه إلا لـسـعـد أبـي عـمـرو

يشير بذلك إلى قولهﷺ: (*109) «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ». ومنه قول حسان بن ثابت: (*110)

فـلا يـبـعـدن الـلـه قـتـلـى تـتـابـعـوا
بمـؤتـة مـنـهـم ذو الجـنـاحـين جـعـفـر

اقتبس ذلك من قول الرسولﷺ: (*111) «إن الله جعل لجعفر جناحين مضرجين بالدم، يطير بهما مع الملائكة».

واللون الثالث من اقتباس الحديث هو اقتباس النص الحرفي للحديث وهذا اللون قليل وصعب، كما كان في اقتباس القرآن قليلا وصب التحقيق، فلم أجد له مثالا من العصر الإسلامي أو الأموي، إلا انه شاع في العصور

التالية، كقول صالح بن عبد القدوس من العصر العباسي: [112*]

احـفـظ لـسـانـك أن تـقـول فـتـبـتـلـى

إن الــبــلاء مـــوكـــل بـــالمــنـــطـــق

اخذ ذلك من نص الحديث [113*] «البلاء موكل بالمنطق». ومنه قول الإمام الشافعي: [114*]

عــفــوا تــعــف نــســاؤكــم فــي المحــرم

وتجــنــبــوا مـــالا يـــلـــيـــق بمـــســـلـــم

اقتبس نص الحديث: [115*] عفوا تعف نساؤكم».

الأفكار:

وقد نلمس اثر الإسلام واضحا في الأفكار التي كان يتناولها الشعراء سواء في العصر الإسلامي أو الأموي، فتكررت في أشعارهم ، وتوارد عليها الشعراء في كل مكان.

ومن تلك الأفكار الإسلامية الجديدة فكرة (إن الملك والحكم لله وحده، لا راد لأمره، ولا تبديل لقضائه).

وهي فكرة رددها القرآن، وأكدها في اكثر من سورة من سوره، نحو قوله تعالى: «ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير» و«إن الحكم إلا لله» و«ولا مبدل لكلمات الله» و«ليقضي الله امرأ كان مفعولا» [116*]

قال حسان بن ثابت في يوم بدر: [117*]

وتــعـــلـــم إن المـــلـــك لـــلـــه وحـــده

وان قـــضـــاء الـــلـــه لا بـــدّ واقـــع

وقال العباس بن مرداس: [118*]

أقــام بــه بــعــد الــضــلالــة امــرنــا

ولــيــس لأمــر حــمــه الــلــه دافــع

وتناول النعمان بن بشير فكرة «الملك والحكم لله وحده »: [119*]

مـــالـــك المـــلـــك لا يـــشـــارك فـــيـــه

ولـــه الحـــكـــم فـــاعـــلا مـــا يـــريـــد

وأكد جرير وهو يخاطب عبد الملك بن مروان فكرة (لا تبديل لقضاء الله). [120*]

الــــلـــه طـــوّقـــك الخـــلافـــة والـــهـــدى
والـــلـــه لـــيـــس لمـــا قـــضـــى تـــبـــديـــل

ومن الأفكار التي ترددت في شعر تلك الفترة فكرة (فناء كل شيء سوى الخالق سبحانه وتعالى) وهي فكرة قرآنية أيضا، قال تعالى:(*121) ﴿**كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾.

ردد النعمان بن بشير هذه الفكرة فقال: (*122)

كـــل شـــيء ســـوى المـــلـــيـــك يـــبـــيـــد
ولا يـــبـــيـــد المـــســـبـــح المحـــمـــود

كما تداولوا فكرة «حتمية الموت» وان الأجل لا يتقدم ولا يتأخر «وهي فكرة قرآنية أيضا، تحدثت عنها الآيات القرآنية في اكثر من سورة، من ذلك: ﴿**لكل اجل كتاب**﴾ و ﴿**كل يجري لأجل مسمى**﴾ و﴿**إن اجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون**﴾ و﴿**لكل أمة أجل، فإذا جاء أجلهم لا يتأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾. (*123)

لقد كان لهذه الآيات وغيرها مما عالج قضية الأجل المحتوم صدى عميق في أفكار الشعراء وأشعارهم ، فنهلوا منها، وتفننوا في طريقة عرض فكرتها، فتعددت أساليبهم في ذلك، نحو قول محمد بن خالد بن الوليد :(*124)

هـل فـي الخـلـود إلـى الـقـيـامـة مـطـمـع ؟
أم لـــلـــمـــنـــون عـــن ابـــن آدم مـــدفـــع ؟
هـــيـــهـــات مـــا لـــلـــنـــفـــس مـــن مـــتـــأخـــر
عـــن وقـــتـــهـــا لـــو أن عـــلـــمـــاً يـــنـــفـــع

وترددت هذه الفكرة في قول وضاح اليمن: (*125)

ســـأصـــبـــر لـــلـــقـــضـــاء فـــكـــل حـــيّ
ســـيـــلـــقـــى ســـكـــرة المـــوت المـــذوق
فـــمـــا الـــدنـــيـــا بـــقـــائـــمـــة وفـــيـــهـــا
مـــن الأحـــيـــاء ذو عـــين رمـــوق
ولـــلأحـــيـــاء أيـــام تـــقـــضـــى
يـــلـــف خـــتـــامـــهـــا ســـوقـــاً بـــســـوق

وعالج الفرزدق هذه الفكرة بأسلوب آخر فقال: (*126)

ألا كــل شــيء فــي يــد الــلــه بــالــغ

لــه اجــل عــن يــومــه لا يــحــوّل

وتناول عمر بن معمر الهزلي هذه الفكرة، ونفذ إليها من خلال رثائه مصعب وعبد الله ابني الزبير: (*127)

فــإنْ يــك هــذا الــدهــر أودى بمــصــعــب

واصــبــح عــبــد الــلــه شــلــوا مــلــحــبــا

فــكــل امــرئ حــاسٍ مــن المــوت جــرعــة

وإن حــاد عــنــهــا جــهــده وتــهــيــبــا

وترددت فكرة البعث والنشور والحساب والجزاء في أشعار هذه الفترة، وقد تطرق القرآن الكريم إلى هذه الأفكار في عشرات الآيات، منها قوله تعالى: «قل بلى وربي لتبعثن» و«بل كانوا لا يرجون نشورا» و«ثم إن علينا حسابهم» و«ليجزي الله كل نفس ما كسبت». (*128)

فالإمام علي يؤكد أن الإنسان لم يخلق صدى، وانه سيبعث ليحاسب على ما قدمت يداه، وليسأل عما اكتسب فيقول: (*129)

ولــو أنــا إذا مــتــنــا تــركــنــا

لــكــان المــوت راحــة كــل حــي

ولــكــنــا إذا مــتــنــا بــعــثــنــا

ونــســأل بــعــده عــن كــل شــيء

ويتحدث النابغة الشيباني عن النشور، فيقول: (*130)

ألا أيــهــا الإنــســان، هــل أنــت عــامــل ؟

فــإنــك بــعــد المــوت لا بــدّ نــاشــر

ويعلن أبو صخر الهزلي إيمانه بالبعث والحساب، فيقول: (*131)

ولــولا يــقــين أنمــا المــوت عــزمــة

مــن الــلــه حــتــى يــبــعــثــوا لــلــمــحــاســب

لــقــلــت لــه فــيــمــا ألــم بــرمــســه:

هــل أنــت غــداً غــادٍ مــعــي فــمــصــاحــبــي ؟

ويتحدث بجير بن زهير عن يوم القيامة والحساب، فيقول: (*132)

إلــى الــلــه-لا الــعــزى ولا الــلات-وحــده

فــتــنــجــو إذا كــان الــنــجــاء وتــســلــم

لــدى يــوم لا يــنــجــو ولــيــس بمــفــلــت
مــن الــنــار إلا طــاهــر الــقــلــب مــســلــم

أما النابغة الشيباني فانه تناول فكرة الحساب والجزاء فقال: (*133)

ومــن يــعــمــل الخــيــرات أو يــخــط خــالــيــا
يــجــاز بــهــا أيــام تــبــلــى الــســرائــر

وتناول الشعراء فكرة (الهداية والضلال من الله تعالى) وقد تناول القرآن هذه الفكرة في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: (*134) ﴿**ومن يضلل الله فما له من هادٍ، ومن يهد الله فما له من مضلّ**﴾.

ويتحدث جرير عن هذه الفكرة بدقة، فيقول: (*135)

مــن يــهــده الــلــه يــهــتــد لا مــضــلّ لــه
ومــن أضــلّ فــمــا يــهــديــه مــن هــاد

الأسلوب

قد لا يختلف الشعر الإسلامي عن الشعر الجاهلي في أسلوبه كثيرا، لأنه امتداد له، ولأن شعراء الإسلام هم أنفسهم شعراء الجاهلية، ولذلك سموا ب (المخضرمين) وهو مصطلح أدبي جديد يعني من أدرك عصر الجاهلية وعصر الإسلام، وقال الشعر فيهما.

ومع ذلك فثمة خصائص جديدة بدأت مع الإسلام، الذي فتح أمام الشعراء آفاقا رحبة جديدة لم يرجوها من قبل، ثم تعمقت تلك الخصائص وتأكدت في العصر الأموي، سواء من حيث بناء القصيدة وتقاليدها، أو الصور والأخيلة، أو الألفاظ والتراكيب والمعاني.

بناء القصيدة وتقاليدها:

لقد تحرر معظم الشعراء في هذا العصر من الالتزام بكثير من تقاليد الجاهليين في أشعارهم ، كمخاطبة الاثنين، وهو التقليد الذي يحرص الشعراء الجاهليون على إيراده في أشعارهم ، لطبيعة حياتهم المحتاجة إلى الأصحاب والرفاق.

كما تحرروا في الحديث عن تجربة الناقة والجمل والصحراء والرحلة، وما يستتبعها من ألفاظ تعبر عن تلك الرحلة.

تلك التجارب التي كان يحفل بها الشعر الجاهلي، واستبدلوا بها تجارب جديدة، اقتضتها طبيعة حياتهم الجديدة.

وتحرر معظم الشعراء من المقدمات الطالية أو الغزلية التقليدية، واستبدلوا بها أحيانا مقدمات دينية جديدة، ظهرت بدايتها في العصر الإسلامي، ثم شاعت فيما بعد في العصر الأموي، وقد تكون مقدمة الشاعر الإسلامي عبد الله بن الأحمر الأزدي بداية تلك المقدمات، حيث يقول فيها(*136):

صحوت وودّعت الصبا والغوانيا
وقلت لأصحابي : أجيبوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى
وقبل الدعا : لبيك داعيا

يقول الدكتور يوسف خليف عن هذه المقدمة(*137): «والشيء الذي نريد أن نسجله هو أن هذه المقدمة تعد شيئا جديدا في الشعر العربي في ذلك الوقت.

وإنها تعد-بلا شك في ذلك عندي-مقدمة لظهور المقدمات الدينية في هاشميات الكميت».

وقد انتشرت هذه المقدمات الدينية في العصر الأموي، وتحتوي دواوين الكميت والعجاج ورؤبة وذي الرمة على الكثير منها.

وتصدرت أشعار تلك الفترة لفظة (أبلغ) ومشتقاتها، وتكررت في مطالع كثير من قصائد الشعراء، لطبيعة الجدل والحجاج التي سيطرت على أشعارهم ، ولحرص كل فريق على إيصال خطابه إلى الفريق الآخر.

فحسان بن ثابت مثلا يصدر قصيدته في هجاء أبى سفيان بن الحارث بقوله (*138):

أبلغ أبا سفيان أن محمدا
هو الغصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد

ويصدر قصيدته في هجاء أبى لهب بقوله (*139):

أبلغ أبا لهب بأنّ محمداً
سيعلو الذي يهوى وإن كنتَ زاعما

وحين يهجو الضحاك بن خليفة الأشهلي يبدأ شعره بقوله (*140):

ألا أبـــلـــغ الــضـــحـــاك أن عـــروقـــه

أعـــيـــت عـــلـــى الإســـلام أن يـــتـــمـــجـــدّا

وفي مقدمات ديوانه عشرات المواضع التي تبدأ بمثل هذا اللفظ [(*141)] .

ونجد هذه الصيغة في مطالع قصائد كعب بن مالك أيضا، مثل قوله[(*142)] :

أبـــلـــغ أبـــيـــاً أنـــه فـــال رأيـــه

وحـــان غـــداة الـــشـــعـــب والحـــين واقـــع

وقوله [(*143)] :

مـــن مـــبـــلـــغ الأنـــصـــار عـــنـــي آيـــة

رسـلاً تـقـص عـلـيـهـم الـتـبـيـان

وقد شاع هذا التقليد عند كثير من الشعراء بعد حسان وكعب، كالوليد بن عقبة الذي يقول [(*144)] :

ألا أبـــلـــغ مـــعـــاويـــة بـــن حـــرب

فـــإنـــك مـــن أخـــي ثـــقـــة مـــلـــيـــم

وأبى الأسود الدؤلي الذي يقول [(*145)] :

ألا ابـــلـــغ مـــعـــاويـــة بـــن حـــرب

فـــلا قـــرّت عـــيـــون الـــشـــامـــتـــيـــنـــا

والمتوكل الليثي الذي يقول [(*146)] :

أبـــلـــغ أبـــا إســـحـــاق إن جـــئـــتـــه

أنـــى بـــكـــرســـيـــكـــم كـــافـــر

وثمة تركيب حرص الشعراء على تكراره في مطالع قصائدهم ، وهو «يا راكبا إما عرضت فبلغن» كقول حسان [(*147)] :

يـــا راكـــبـــا إمـــا عـــرضـــت فـــبـــلـــغـــن

عـلـى الـنـأي مـنـي عـبـد شـمـس وهـاشـمـا

وكان يعد من الذخائر الفنية، فقد توارد عليه كثير من الشعراء في ذلك العصر، فأورده حسان في مطلع قصيدة أخرى[(*148)]، واستهل به عبد الله بن الحارث إحدى قصائده [(*149)]، وكذلك عبد الله بن الزبير الأسدي [(*150)] .

ونتيجة للصراع العقائدي بين المسلمين والمشركين، أو المنافقون، وبين المسلمين أهل الكتاب في صدر الإسلام، ثم بين الأحزاب السياسية المختلفة في العصر الأموي بعد ذلك، فقد برز تيار جديد في أسلوب الشعر العربي،

يعتمد المناقشات المنطقية والمناظرات الفكرية، المستمدة من أصول الدين أو فروعه، وهو أسلوب قرآني جديد، حيث وضع القرآن الأسس الأولى لهذا المنهج، عندما ناقش المشركين في عقائدهم، وكذلك أهل الكتاب أو المنافقين، ممن كان يقف ضد رسالة الإسلام.

ونصادف كثيرًا من تلك المناقشات لأفكار الناس ومعتقداتهم في سورة التوبة، حتى إنها سميت (الفاضحة) لما كشفت من سرائر الناس [*151]. وفي سورة البقرة والمائدة[*152].

لقد ناقش القرآن في آيات تلك السور المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، بإقامته الحجج الدامغة، وإلزامهم الأدلة الواضحة البينة، من خلال إيراد أفكارهم ثم نقضها بتضعيف ما تستند إليه من البراهين والحجج. وهو أسلوب جديد على العرب، سواء في التفكير أو في طريقة النقاش.

وقد كان لهذا الأسلوب صداه الكبير في أشعار المسلمين، فانتفعوا به واندفعوا في سلوك طريقه. وإن كان ذلك متأخرا. فقد غاب هذا الأسلوب عن أشعار صدر الإسلام، ولم نجد صداه إلا في بعض الذرات المتناثرة في أشعارهم، كقول حسان بن ثابت لأبي سفيان بن الحارث قبل فتح مكة[*153].

هجوت محمداً فأجبت عنه

وعند الله في ذاك الجزاء

أتهجوه ولست له بكفو

فشركما لخيركما الفداء

وفي هذين البيتين نفحة من أسلوب القرآن في المناقشة، وقد قيل عن البيت الثاني «انه أنصف بيت قالته العرب».

وتأكد هذا الأسلوب في العصر الأموي، وجسده شعراء الأحزاب والفرق الإسلامية، بعد أن ساد في عصرهم علم الكلام والجدل في مسائل العقيدة داخل حلقات الدرس والمناظرة.

ونلمح طرفا من هذا الأسلوب في المناقشات العقلية في قصيدة كعب بن جعيل، شاعر الأمويين، حين أبى معاوية أن يبايع لعلي ابن أبي طالب(رض) حيث قال [*154]:

أرى الشام تكره ملك العراق

وأهل العراق لهم كارهين

وكــلٌّ لــصــاحــبــه مــبــغــض
يــرى كــل مــا كــان مــن ذاك ديــنـــا
وقـــالـــوا: عـــلـــيٌّ إمـــام لـــنـــا
فـقـلـنـا: رضـيـنـا ابـن هـنـد رضـيـنـا
وقـــالـــوا: نـــرى أن تـــديـــنـــوا بـــه
فـقـلـنـا لـهـم : لا نـرى أن نـديـنـا
وكــلّ يــســرّ بمــا عــنــده
يـرى غـثّ مـا فـي يـديـه سـمـيـنـا
ومـــا فـــي عـــلـــيّ لمـــســـتـــعـــتـــب
مـقـال سـوى ضـمـه المحـدثـيـنـا
ولـــيـــس بـــراضٍ ولا ســـاخـــط
ولا فـي الـنـهـاة ولا الآمـريـنـا

ويسير على هذا النهج من إيراد الحجج والمناقشات الفكرية.

وكانت هاشميات الكميت مجموعة من المناظرات والمناقشات المعتمدة على الإقناع الفكري، الذي يستعين فيه الشاعر بآيات القرآن وأحكامه، عندها يريد تقرير حق الهاشميين في الخلافة، حيث يقول (155*):

بـخـاتمـكـم غـصـبـاً تجـوز أمـورهـم
فـلـم أر غـصـبـا مـثـلـه يـتـعـصـب
وجـدنـا لـكـم فـي آل حـامـيـم آيـة
تـأوّلـهـا مـنـا تـقـيٌّ ومـعـرب
وفـي غـيـرهـا آيـاً وآيـا تـتـابـعـت
لـكـم نـصـب فـيـهـا لـذي الـشـكّ مـنـصـب
بـحـقـكـم أمـسـت قـريـش تـقـودنـا
وبـالـفـذّ مـنـهـا والـرّد يـفـين نـركـب
وقـالـوا: ورثـنـاهـا أبـانـا وأمـنـا
ومـا ورّثـتـهـم ذاك أمٌّ ولا أبّ
يـرون لـهـم فـضـلا عـلـى الـنـاس واجـبـا
سـفـاهـا وحـقّ الـهـاشـمـيـين أوجـب

ولـــكـــن مـــواريـــث ابـــن آمـــنـــة الـــذي
بـــه دان شـــرقـــيّ لـــكـــم ومـــغـــرّب
فـــدىً لـــك مـــوروثـــاً أبـــى وأبـــو أبـــي
ونـفـسـي، ونـفـسـي بـعـد بـالـنـاس أطـيـب
وتـسـتـخـلـف الأمـوات غـيـرك كـلـهـم
ونـعـتـب لـو كـنـا عـلـى الحـقّ نـعـتـب
يـقـولـون: لـم يـورث ولـولا تـراثـه
لـقـد شـركـت فـيـه بـكـيـل وأرحـب
وعـكٌّ ولخـم والـسـكـون وحـمـيـر
وكـنـدة والحـيـان بـكـر وتـغـلـب
ولا نـشـلـت عـضـويـن مـنـهـا يـخـابـر
وكـان لـعـبـد الـقـيـس عـضـو مـؤرّب [156*]
ومـا كـانـت الأنـصـار فـيـهـا أذلـة
ولا غـيـبـا عـنـهـا إذ الـنـاس غـيـب
هـم شـهـدوا بـدراً وخـيـبـر بـعـدهـا
ويـوم حـنـين والـدمـاء تـصـبـب
فـإن هـي لـم تـصـلـح لحـيّ سـواهـم
فـإنّ ذوى الـقـربـى أحـقّ وأقـرب

والشاعر في هذه الآبيات يستند إلى القرآن وآياته، في سورة حاميم والشورى، وغيرها، في قوله تعالى [157*]: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى**﴾، وقوله تعالى [158*]: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾، وقوله تعالى[159*]﴿**فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى**﴾ التي تحدثت عن حق آل البيت وذوى القربى، وهو يناقش مسألة الوراثة ليخلص إلى تبيان تناقض الأمويين في نفيهم الوراثة وقولهم انهم أهل ميراثه، ولو كانت الخلافة لا تورث لصارت من حق كل القبائل التي ذكر بعضا منها في شعره، ولأصبح الأنصار، وهم السابقون في نصرة الإسلام، أولى بها من غيرهم، ثم طالب بتطبيق قانون الوراثة، لرد الخلافة إلى ورثة الرسول الحقيقية وهم أهل بيته.

إن هذه المناقشات المنطقية، والاحتجاجات العقلية، لون جديد لم يعرفه

أسلوب الشعر العربي من قبل.

وقد أثر هذا الأسلوب في النقاش بمن جاء بعد الكميات من الشعراء، مثل الشاعر الأموي إبراهيم بن المهاجر البجلي، وهو من أوائل الدعاة العباسيين في العصر الأموي، فسلك مسلك الكميت عندما أراد مناقشة الأمويين حول حق بنى العباس في الخلافة، حيث يقول [*160]:

أيـــهـــا الـــنـــاس اســمـــعـــوا أخـــبـــركـــم
عـــجـــبـــاً زاد عـــلـــى كـــل الـــعـــجـــب
عـــجـــبـــاً مـــن عـــبـــد شـــمـــس، أنـــهـــم
فـــتـــحـــوا لـــلـــنـــاس أبـــواب الـــكـــذب
ورثـــوا أحـــمـــد فـــيـــمـــا زعـــمـــوا
دون عـــبـــاس بـــن عـــبـــد المـــطـــلـــب
كـــذبـــوا والـــلـــه مـــا نـــعـــلـــمـــه
يـــحـــرز المـــيـــراث إلا مـــن قـــرب

وظهر هذا الاتجاه من المناقشات العقلية عند بعض الشعراء الخوارج، وانشغلوا بالمجادلات فيما بينهم حتى قال شاعرهم [*161]:

مـــا كـــان أغـــنـــى رجـــالا ضـــلّ ســـعـــيـــهـــم
عـــن الجـــدال وأغـــنـــاهـــم عـــن الخـــطـــب
كـــنـــا أنـــاســـا عـــلـــى ديـــن فـــفـــرّقـــنـــا
طـــول الجـــدال وخـــلـــط الجـــد بـــالـــلـــعـــب

وسبق لنا ذكر مناقشة شاعر الخوارج خصومهم، عندما انتصر أربعون منهم على ألفى رجل من خصومهم.

وازدهر هذا الاتجاه الشعري في أوساط الفرق الدينية، كالمرجئة وغيرهم ، وقد ترك شعراؤهم كثيرا من تلك المحاورات والمناظرات القائمة على العقل والمنطق، مثل قصيدة شاعر فرقة المرجئة ثابت قطنه، حيث يقول [*162]:

يـــا هـــنـــد فـــاســـتـــمـــعـــي لـــي إن ســـيـــرتـــنـــا
أن نـــعـــبـــد الـــلـــه لـــم نـــشـــرك بـــه أحـــدا
نـــرجـــى الأمـــور إذا كـــانـــت مـــشـــبـــهـــة
ونـــصـــدق الـــقـــول فـــيـــمـــن جـــار أو عـــنـــدا

وهي طويلة، تسير على هذا النهج في عرض الأفكار ومناقشة أفكار

الآخرين.

ويروى المؤرخون [*163]: إن الخليفة عمر بن عبد العزيز طلب قادة المرجئة وناظرهم في عقائدهم ، فخرج أحدهم وهو عون بن عبد الله الهذلي بعد المناقشة متبرئا من مذهب المرجئة. ثم انشد أبياتا طويلة ناقش فيها آراءهم ، مستندا إلى الحجج المنطقية فيما كان يذهب إليه، ومنها قوله:

وأول ما نفارق غير شك
نفارق ما يقول المرجئونا
وقالوا: مؤمن من أهل جور
وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا: مؤمن دمه حلال
وقد حرمت دماء المسلمينا

ويحمل نصر بن سيار على المرجئة، مسفها عقائدهم، مخطأ سيرتهم ، متهما إياهم بالشرك، وتعد قصيدته في ذلك طرفا مما كان يدور من مناقشات فكرية، حيث يقول [*164]:

فامنح جهادك من لم يرج آخرةً
وكن عدواً لقوم لا يصلونا
واقتل مواليهم منا وناصرهم
حينا تكفرهم والعنهم حينا
والعائبين علينا ديننا وهم
شرّ العباد إذا خابرتهم دينا
والقائلين سبيل الله بغيتنا
لبعد ما نكبوا عما يقولونا
فاقتلهم غضبا لله منتصرا
منهم به ودع المرتاب مفتونا
إرجاؤكم لزكم والشرك في قرن
فأنتم أهل إشراك ومرجونا
لا يبعد الله في الأحداث غيركم
إذ كان دينكم بالشرك مقرونا

ألـقـى بــه الـلـــه رعـبــا فــي نـــحـــوركـــم
والــلــه يــقــضــى لــنــا الــحــســنــى ويــعــلــيــنــا

وتزخر قصائد الشعراء الكبار في العصر الأموي بمثل هذه المناقشات لتقرير حق بني أمية في الخلافة.

ويسير على منهاجهم في ذلك أكثر الشعراء الآخرين الذين كانوا يدورون في فلك الخلفاء الأمويين وعمالهم. وفي نقائض العصر الأموي طرف من تلك المحاورات والمناقشات الفكرية أيضاً.

الصور والأخيلة:

استمد شعراء هذا العصر كثيرا من صورهم عن النور والضياء والقمر والنجوم، لما لهذه الأشياء في حياة العرب من مكانة وأهمية، ولما حسه الشعراء في بيئتهم من رهبة الظلام وقسوته، فالرسول نور عند حسان(*165):

وأرســـلـــه فـــي الـــنـــاس نـــوراً ورحـــمـــةً
فـمـن يـرض مـا يـأتـي مـن الأمـر يـهـتـد

وهو الضياء والنور أيضا(*166):

كـان الـضـيـاء وكـان الـنـور نـتـبـعـه
وكـان بـعـد الإلـه الـسـمـع والـبـصـرا

وهو كالهلال (*167):

مـــثـــل الـــهـــلال مـــبـــاركـــا ذا رحـــمـــة
ســـمـــح الـخـــلـــيـــقـــة طـــيـــب الأعـــواد

وهو السراج المستنير(*168):

فـأمـسـى سـراجـاً مـسـتـنـيـراً وهـاديـاً
يـلـوح كـمـا لاح الـصـقـيـل المـهـنـد

وهو الشهاب والبدر معاً(*169):

وافٍ ومـاض شـهـاب يـسـتـضـاء بـه
بـدر أنـار عـلـى كـل الأمـاجـد

والرسالة نور عنده أيضا (*170):

فـــلـــمـــا أتـــانـــا رســـول الإلـــه
بـالـنـور والـديـن بـعـد الـظـلـم

والقرآن نور كذلك [*171]:

يـنـتـابـنـا جـبـريـل فـي آبـيـاتـنـا
بـفـرائـض الإسـلام والأحـكـام
يـتـلـو عـلـيـنـا الـنـور فـيـهـا مـحـكـمـا
قـسـمـاً لـعـمـرك لـيـس كـالأقـسـام

وهو نور في شعر عمرو الجهني أيضا [*172]:

كـتـابـاً مـن الـرحـمـن نـور لجـمـعـنـا
وأحـلافـنـا فـي كـل بـاد وحـاضـر

والرسول شهاب يتبعه النور في شعر كعب بن مالك [*173]:

فـيـنـا الـرسـول شـهـاب ثـم يـتـبـعـه
نـور مـضـيء لـه فـضـل عـلـى الـشـهـب

ومصعب بن الزبير شهاب من الله عند ابن قيس الرقيات [*174]:

إنمـا مـصـعـب شـهـاب مـن الـلـه
تجـلـت عـن وجـهـه الـظـلـمـاء

والمسلمون نجوم في شعر كعب بن مالك [*175]:

أولاك نجـوم لا يـغـبّـك مـنـهـم
عـلـيـك بـنـحـس فـي دجـى الـلـيـل طـالـع

والقرآن كالمجرة عند النابغة الجعدي [*176]:

تـبـعـت رسـول الـلـه إذ جـاء بـالـهـدى
ويـتـلـو كـتـابـا كـالمجـرّة نـيـرا

وكثيرا ما لجأ الشعراء، في صورهم إلى القرآن، يستمدون منه أخيلتهم وتشبيهاتهم . فالنابغة الجعدي حينما يريد توكيد صفات الله تعالى لا يجد خيرا من صور القرآن الغنية، فيستعير منها، ليؤكد القدرة الإلهية في قوله[*177]

الحـمـد لـلـه لا شـريـك لـه
مـن لـم يـقـلـهـا فـنـفـسـه ظـلـمـا
المـولـج الـلـيـل فـي الـنـهـار وفـي الـل
يـل نـهـاراً يـفـرّج الـظـلـمـا

وهو قد استعار تلك الصورة من قوله تعالى [*178]: ﴿**تولج الليل في**

النهار، وتولج النهار في الليل﴾.

وعندما يقول معن بن أوس [(*179)]:

فـمــا زلــت فــي لــيــنــي لــه وتــعــطــفــي
عــلــيــه كــمــا تحــنــو عــلــى الــولــد الأم
وخــفــض لــه مــنــى الجــنــاح تــألــفــاً
لــتــدنــيــه مــنــى الــقــرابــة والــرحــم

فهو متأثر إلى حد بعيد بالصورة القرآنية التي وردت في قوله تعالى[(*180)]: **﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾.**

والكميت يصور حالته بحالة نبي الله موسى، عندما وكز الرجل فأصبح في المدينة خائفا يترقب [(*181)]:

ألــم تــرنــي فــي حــبّ آل مــحــمــد
أروح وأغــدو خــائــفــاً أتــرقــب

وهذه الصورة وردت في قوله تعالى [(*182)]: **﴿فأصبح في المدينة خائفا يترقب﴾.**

وعندما يقول الكميت [(*183)]:

ألــم يــتــدبــر آيــة فــتــدلــه
عــلــى تــرك مــا يــأتــى أم الــقــلــب مــقــفــل ؟

فهو-من غير شك-متأثر بالصورة التي رسمها القرآن في قوله تعالى[(*184)]: **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.**

ويفزع الفرزدق إلى القرآن، يستمد منه صورة بيت العنكبوت في الوهن فيقول [(*185)]:

ضــربــت عــلــيــك الــعــنــكــبــوت بــنــســجــهــا
وقــضــى عــلــيــك بــه الــكــتــاب المــنــزل

وهي الصورة التي رسمها القرآن في قوله تعالى[(*186)]: **﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء، كمثل العنكبوت اتخذت بيتا، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾ .**

ولما طلق الفرزدق زوجته النوار ثم ندم عليها، صور خروجه من نعيم حياته معها بصورة قرآنية، هي صورة خروج آدم من الجنة، فكلاهما عصى وخالف فعوقب، يقول [(*187)]:

نـــدمــت نـــدامـــة الـــكـــســـعـــيّ لمـــا
غـــدت مـــنـــي مـــطـــلـــقـــة نـــوار
وكـــانـــت جـــنـــتـــي، فـــخـــرجـــت مـــنـــهـــا
كـــآدم حـــيـــن لـــجّ بـــه الـــضـــرار

ويقول تعالى [188*] : ﴿**وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، قال اهبطا منها جميعا**﴾

وعندما كان ذو الرمة يرسم حيوانات الصحراء، كان يستعير الصور الإسلامية الجديدة في تلك الرسوم والتشبيهات، من مثل قوله [189*]:

فـكـرّ يمـشـق طـعـنـاً فـي جـواشـنـهـا
كـأنـه الأجـر فـي الإقـبـال يـحـتـسـب

ومثل هذه الصور كثيرة، نجدها مثبوتة في الدواوين الإسلامية والأموية وقد استمد الشعراء تلك الصور من بيئتهم الطبيعية والاجتماعية التي ألفوها، فطعنات الرماح كفم السقاء الذي يتدفق ماؤه ويسيل، ليبين الشاعر سعتها: [190*]

تـكـرّ الـقـنـا فـيـكـم كـأن فـروعـهـا
عـزالـى مـزاد مـاؤهـا يـتـهـزع

والحرب كالناقة، كلما شد على. ا لحرب، فيقول: [191*]

ألـسـنـا نـشـد عـلـيـهـا الـعـصـا
ب حـتـى تـدرّ وحـتـى تـلـيـنـا

وراية المسلمين تخفق فوق الجيش الإسلامي كطرف السحابة الرقيقة، في سرعة حركتها، كما يقول العباس بن مرداس: [192*]

صـبـرنـا مـع الـضـحـاك لا يـسـتـفـزنـا
قـراع الأعـادي مـنـهـم والـوقـائـع
أمـام رسـول الـلـه يـخـفـق فـوقـنـا
لـواء كـخـذروف الـسـحـابـة لامـع

وقد استخدم الشعراء في تصويرهم مجموعة من الصور الشعرية المتحركة ونجد ذلك واضحاً في أشعار الخوارج التي تزخر بمثل تلك الصورة، من ذلك قول عمرو بن الحصين العنبري: [193*]

فـي فـتـيـة صـبـروا نـفـوسـهـم
لـلـمـشـرفـيـة والـقـنـا الـسـمـر

مـــتــــأهـــبـــون لــــكـــل صـــالحـــة
نــــاهـــون مـــن لاقـــوا عـــن الـــنـــكـــر
إلا تجـــيـــئـــهـــم فـــإنـــهـــم
رجـــف الـــقـــلـــوب بـــحـــضـــرة الـــذكـــر
مـــتـــأوهـــون كـــأن جـــمـــر غـــضـــىً
لـــلـــمـــوت بـــين ضـــلـــوعـــهـــم يـــســـري
تـــلـــقـــاهـــم، ألا كـــأنـــهـــم
لخـــشـــوعـــهـــم اصـــدروا عـــن الحـــشـــر
فـــهـــم كـــأن بـــهـــم جـــوى مـــرض
أو مـــســـهـــم طـــرف مـــن الـــســـحـــر

وهكذا تتتابع الصور في بقية القصيدة.

أثر الثقافة في الشعر:

كتب الشعر الإسلامي والأموي في ظل ثقافة إسلامية جديدة، انتشرت في أرجاء الدولة، حيث كانت تواجه الشعراء صباح مساء حيثما وجدوا، وأينما ساروا، في المساجد، وفي الأسواق وفي مجالس العلم وحلقات الفقه أو الذكر، لأن الإسلام دين ونظام حياة، فثقافته تشمل كل جوانب الحياة، ويلهج بها كل مسلم، بقدر علمه وبمستوى تفكيره. ولذلك نجد لتلك الثقافة صدى كبيرا عند الشعراء، حتى في بعض تفصيلاتها الفقهية أحيانا.

ولا غرو في ذلك فكبار الشعراء في العصر الأموي كانوا يلزمون حلقات الفقه والعلم، فقد روي أن الفرزدق كان يلزم الحسن البصري، وان جريرا كان يلزم حلقة ابن سيرين. [*194]

ويظهر اثر تلك الثقافة في الشعر الأموي بصورة خاصة، وواضحة، ومما روي في ذلك أن رجلا سأل الحسن البصري يوما، وعنده الفرزدق، عن اليمين اللغو في الكلام، من مثل (لا والله) فقال الفرزدق له: أو ما سمعت ما قلت في ذلك ؟ فقال الحسن: ما كل ما قلت سمعوا، فما قلت ؟ فقال: قلت:

ولـــســـت بمـــأخـــوذ بـــلـــغـــو تـــقـــولـــه
إذا لـــم تـــعـــمـــد عـــاقـــدات الـــعـــزائـــم

ولم ينشب أن جاء شخص آخر، فسأل الحسن عن سبية الحرب المتزوجة، أتحل لمن سباها ؟ فقال الفرزدق . قلت في ذلك؟ وأنشد :

وذات حـــلـــيـــل أنــكــحــتــنــا رمــاحــنــا

حــلال لمــن يــبــنــي لــم تــطــلــق(*195)

ويظهر أثر ثقافتهم التاريخية الدينية في أشعارهم أيضا، ونجد شذرات من الإشارات السريعة في ذلك، وهي تعبر عن محاولات توظيف تلك المعارف في أشعارهم. من ذلك قول كثير عزة، متحدثا عن محمد بن الحنفية:(*196)

هــو المــهــدي خــبــرنــاه كــعــب

أخــو الأحــبــار فــي الحــقــب الأوالــي

وهو يريد كعب الأولى الذي اخذ عنه الصحابة وغيرهم هم كثيرا من أخبار الأمم الغابرة، كما حدث بالكتاب والسنة كثيرا أيضاً.

وأودع الشعراء قصائدهم ما كانوا يختزنون من معارف وأخبار سمعوا بها أو اطلعوا عليها في كتب الأقدمين.

ولنسمع الفرزدق يتحدث عن سليمان بن عبد الملك بهذه الطريقة فيقول:(*197)

أنــت الــذي نــعــت الــكــتــاب لــنــا

فــي نــاطــق الــتــوراة والــزبــر

كــم كــان مــن قــسّ يــخــبــرنــا

بــخــلافــة المــهــدي ، أو حــبــر

جــعــل الإلــه لــنــا خــلافــتــه

بــرء الــقــروح وعــصــمــة الجــبــر

وحتى في أشعار الغزل نجد هذا التوظيف الذي تحدثنا عنه، فقد أفاد وضاح اليمن من فكرة الحلال والحرام، والترخيص في اللمم عندما قال:(*198)

إذا قــلــت يــومــا نــولــيــنــي تــبــســمــت

وقــالــت مــعــاذ الــلــه مــن فــعــل مــا حــرم

فــمــا نــوّلــت حــتــى تــضــرعــت عــنــدهــا

وأعــلــمــتــهــا مــا رخــص الــلــه فــي الــلــمــم

وينتفع جرير بثقافته الإسلامية عندما يهجو الاخطل فيحدث بطريقة تظهر ما لديه من معرفة بقواعد الحرب في الشريعة، عندما يبين انه لولا

ما يدفع قوم الأخطل من الجزية،وهم أهل كتاب، لسباهم المسلمون، ولأصبحت أموالهم غنائم للمسلمين: (199*)

لولا الجزى قسم السواد وتغلب

في المسلمين فكنتم أنفالا

وقد مرت بنا أبيات جرير التي فخر فيها بأنبياء الله، وذكر منهم عددا كبيرا مشيرا إلى قصة كل منهم بإيجاز شديد، ولكنه يعبر عن ثقافة قرآنية وتاريخية واسعة، وهي الأبيات التي بدأها بقوله:

أبونا أبو اسحق يجمع بيننا

أب كان مهديا نبيا مطهرا

إن هذا البيت وما يليه من الأبيات، يقفوا على الآفاق الثقافية الرحبة التي كان يتحرك في ظلها الشعر الإسلامي والأموي.

الألفاظ:

لقد توسع الإسلام في دلالة كثير من الألفاظ التي كانت شائعة قبل انتشاره بين أبناء الجزيرة العربية، لتتسع لما جاء به من عبادات وعقائد لم يعرفها المجتمع العربي من قبل.

وازدهرت تلك الألفاظ الجديدة، وانتشرت بين الناس وكان من الطبيعي أن تحفل الأشعار بتلك الألفاظ والمصطلحات الإسلامية، التي اكتسبت معاني جديدة غير التي كانت سائدة في كلام العرب من قبل، كالإيمان والكفر والوحي والقرآن والنبوة والرسالة، والجنة والنار، والتقوى والجهاد والقيامة والشهيد، والمسجد والصلاة، والزكاة والفيء والجزية، والحلال والحرام........الخ.

يقول ابن فارس: «كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم، في لغاتهم وآدابهم ونسائكم وقرابينهم، فلما جاء الله-جل ثناؤه-بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانة وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر، بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت، أعفى الآخر الأول» (200*)

وكان من الطبيعي أن لا تنتشر تلك الألفاظ والمفردات في الأيام الأولى من حياة المسلمين لأنها لم تكن قد اكتملت بعد، ولم يستطع الشعراء استيعابها

مبكرا لتدخل في صلب أشعارهم .

ولو نظرنا إلى قصيدة حسان بن ثابت التي كانت أول شعر له في الإسلام، لوجدناها خالية من آية مسحة إسلامية، أو لفظ يشعر بأنها قد نظمت في ظلال الدين الجديد .

فعندما قال [*201] رجل من قريش في أسرهم سعد بن عبادة حين بايعوا النبيﷺ يوم الاثنين عشر نقيبا :

تداركت سعداً عنوة فأخذته
وكان شفاء لو تداركت منذرا
ولو نلته طلت هناك جراحه
وكانت جراحا أن تهان وتهدرا

فقال حسان يجيبه:

لست إلى عمرو ولا المرء منذر
إذا ما مطايا القوم اصبحن ضمرا
فلولا أبو وهب لمرت قصائد
على شرف البلقاء يهوين حسرًا
فأنا ومن يهدي القصائد نحونا
كمستبضع تمرا إلى أهل خيبرا
فلا تك كالوسنان يحلم انه
بقرية كسرى أو بقرية قيصرا
ولا تك كالشاة التي كان حتفها
بحفر ذراعيها فلم ترض محفرا
ولا تك كالغادي فأقبل نحره
ولم يخشه سهما من النبل مضمرا
أتفخر بالكتان لماّ لبسته
وقد تلبس الأنباط ريطا مقصرّا

إن هذه الأبيات-كما نرى-لا تختلف عن الشعر الجاهلي في ألفاظها أو في منهجها .

وبمرور الأيام وانتشار الإسلام، وتوالي نزول القرآن ودوام تلاوته، والنظر في آياته. بدأت تلك الألفاظ تتسلل إلى أشعارهم وتتردد على شفاههم .

ومن ذلك قول حسان بن ثابت يذكر لفظ المؤمنين: (*202)

رأيـــت خـــيـــار المـــؤمـــنـــين تـــواردوا
شـعــوب وقـــد خـلــفــت فــيــمــن يــؤخــر

وقوله في القصيدة نفسها أيضا:

غــداة غــدوا بـــالمـــؤمـــنـــين يـــقــودهــم
إلـــى المـــوت مـــيـــمـــون الـــنـــقـــيـــبـــة أزهـــر

ومن ذلك تناول كعب بن مالك لفظ (الكفر) في قوله: (*203)

يـــذودونـــنـــا عـــن ديـــنـــنـــا ونـــذودهـــم
عـــن الـــكـــفـــر والـــرحـــمـــن راء وســـامـــع

ووردت ألفاظ عديدة ومختلفة للتعبير عن مصطلح القرآن، فهو القرآن في قول حسان: (*204)

جـــحـــدوا الـــقـــرآن وكـــذبـــوا بمـــحـــمـــد
والـــلـــه يـــظـــهـــر أمـــر كـــل رســـول

وهو الوحي في موضع آخر من شعره: (*205)

أعـــفـــه ذكـــرت فـــي الـــوحـــي عـــفـــتـــهـــم
لا يـــطـــبـــعـــون ولا يـــرديـــهـــم الـــطـــمـــع

وهو الكتاب المنزل في موضع آخر عنده: (*206)

مـــنـــعـــنـــا بـــهـــا خـــيـــر الـــبـــريـــة كـــلـــهـــا
إمـــامـــا ووقـــرنـــا الـــكـــتـــاب المـــنـــزلا

وهو كتاب الله في شعر النجاشي الحارثي: (*207)

فـأصـبـح أهـل الـشـام قـد رفـعـوا الـقـنـا
عـــلـــيـــهـــا كـــتـــاب الـــلـــه خـــيـــر قـــران

ويتردد مصطلح (النبي والرسول) عند كعب بن مالك فيقول: (*208)

أرى الـــــنـــــبـــــي بـــــرأي صـــــدق
وكـــان الـــلـــه يـــحـــكـــم لا يـــجـــور

ويقول أيضا: (*209)

وكـــان رســـول الـــلـــه قـــد قـــال اقـــبـــلـــوا
فـــولـــوا وقـــالـــوا إنمـــا أنـــت ســـاحـــر

وورد هذا المصطلح في شعر النعمان بن العجلان الأنصاري حيث يقول: (*210)

نصرنا وآوينا النبي ولم نخف

صروف الليالي والعظيم من الأمر

وفي شعر العباس بن مرداس: [(*211)]

فهناك إذ نصر النبي بألفنا

عقد النبي لنا لواء يلمع

وفي شعر رافع بن عمير: [(*212)]

فألفيت النبي يقول قولا

صدوقا ليس بالقول الكذوب

ويخاطبه عبد الله بن رواحة بقوله: [(*213)]

أنت النبي ومن يحرم شفاعته

يوم الحساب فقد أزرى به القدر

أما لفظة (الجنة) فنجدها في شعر حسان بقوله: [(*214)]

صلى عليك الله في جنة

عالية مكرمة الداخل

ونجد لفظة (النار) في قول فاتك بن زيد العبسي يصف الردة: [(*215)]

إنها ردة تقود إلى النار

فلا تولعن بقال وقيل

ويتردد مصطلح (التقوى) كثيرا عند الشعراء كقول الزبرقان بن بدر في حروب الردة أيضا: [(*216)]

أردت بها التقوى ومجد حديثها

إذا عصبة سامي قبيلي فخورها

وجاء لفظ (الجهاد) في قول ذريح بن الحارث متحدثا عن ابنه: [(*217)]

ابغي الحباب في الجهاد ولا أرى له

شبها ما دام لله ساجدا

وهذا المصطلح من اكثر المصطلحات الإسلامية تداولا في أشعار الخوارج. [(*218)]

أما مصطلح (القيامة) فنراه في قول حسان: [(*219)]

وما فقد الماضون مثل محمد

ولا مثله حتى القيامة يفقد

وفي قول أبي بكر الصديق يرثي النبي (ص): (*220)

ليت القيامة قامت بعد مهلكه

ولا نرى بعده مالا ولا ولدا

ونجد مصطلح (الشهيد) في قول حسان بن ثابت يرثي حمزة بن عبد المطلب: (*221)

ما للشهيد بين أرماحكم

شلت يدا وحشي من قاتل

ويتردد مصطلح (المسجد) في قول أبي زبيد الطائي، وهو يرثي عثمان بن عفان: (*222)

حتى تنصلها في مسجد طهر

على إمام هدى إن معشر جاروا

ويرد مصطلح (الصلاة) في قول عبد الله بن خنيس العامري: (*223)

أضاع الصلاة بنو عامر

وأهلكها منع إنعامها

ويقرن عمرو بن قريط العامري مصطلح الصلاة بمصطلح الزكاة في قوله: (*224)

ثقلت صلاة المسلمين عليكم

بني عامر والحق جدّ ثقيل

واتبعتموها بالزكاة وقلتم

ألا لا تقرّوا منهما بفتيل

ويفعل ذلك حميد بن ثور الهلالي، فيقول: (*225)

فلم نكذب، وخررنا سجدا

نعطي الزكاة ونقيم المسجدا

ويفخر الأسود بن قطبة بدفع الفرس فدية أسراهم إلى المسلمين وهم مرغمون، فيذكر الفيء والجزية قائلا: (*226)

ألا ابلغا عني الغريب رسالة

فقد قسمت فينا فيوء الأعاجم

وردت علينا جزية القوم بالذي

فككنا به عنهم ولاة المعاجم

ويتحدث حسان عن الحلال والحرام، فيقول: (227*)

فـــنـــكـــون أول مـــســـتـــحـــلّ حـــلالـــه

ومـــحـــرم لـــلـــه كـــلَّ حـــرام

وقد أسهبنا في إيراد هذه الأمثلة لندلل على اثر الإسلام المبكر في ألفاظ الشعر العربي، ولان هذه الألفاظ والمصطلحات كانت لما تزل طرية جديدة، لم يتعود الناس على كثرة استعمالها، ولأن الشعراء قد ورثوا ألفاظا ومصطلحات تختلف تماما عن تلك الألفاظ والمصطلحات الجديدة.

أما في العصر الأموي فقد شاعت هذه الألفاظ والمصطلحات وأصبحت جزءا أصيلا في أسلوب العصر، بعد أن استقرت أحكام الإسلام، وتأكدت مبادئه في واقع الحياة، وفي نفوس الناس حيث ولد الكثير منهم في ظل الدولة الإسلامية.

ونظرة واحدة إلى نصوص الشعراء الأمويين الكبار تؤكد ما ذهبنا إليه من شيوع تلك الألفاظ والمصطلحات في شعر ذلك العصر من ذلك قول جرير يهجو الأخطل: (228*)

فـعـلـيـك جـزيـة مـعـشـر لـم يـشـهـدوا

لـــلـــه أن مـــحـــمـــدا لـــرســـول

تـبـعـوا الـضـلالـة نـاكـبـين عـن الـهـدى

والـــتـغـــلـبـــي عـــن الـــقـــرآن ضـــلـــول

يـقـضـي الـكـتـاب عـلـى الـصـلـيـب وتـغـلـب

ولـــكـــل مـــنـــزل آيـــة تـــأويـــل

أن الخـــلافـــة والـــنـــبـــوة والـــهـــدى

رغـــم لـــتـــغـــلـــب فـــي الحـــيـــاة طـــويـــل

لقد استخدم الشاعر في هذه المقطوعة القصيرة تسعة ألفاظ ومصطلحات إسلامية، وهي جزية ورسول والضلالة والهدى والقرآن والكتاب وآية والخلافة والنبوة.

ولو انتقلنا بنظرنا إلى شعر الفرزدق لوجدنا هذه الظاهرة أيضا، فقصيدته التي مدح بها عبد الملك بن مروان، والتي يقول فيها: (229*)

إذا أتـــيـــت أمـــيـــر المـــؤمـــنـــين فـــقـــل

بـالـنـصـح والـعـلـم، قـولا غـيـر مـكـذوب

مـجـاهــد لــعــداه الــلـــه، مـــحـــتـــســب
جـــهـــادهـــم بـــضـــراب، غـــيـــر تـــذبـــيـــب
فـــالأرض لـــلـــه ولاّهـــا خـــلـــيـــفـــتـــه
وصـاحـب الـلـه فـيـهـا غـيـر مـغـلـوب

قد استخدم في كل بيت من هذه الأبيات مصطلحا إسلاميا جديدا، ففي البيت الأول استخدم مصطلح (أمير المؤمنين) وفي الثاني (مجاهد) وفي الثالث (خليفته).

ولم تقتصر هذه الظاهرة على الشعراء الكبار، بل شملت كل الشعراء الأمويين كالمسيب بن نجبة بن ربيعة الذي يقول: [(*230)]

لـسـت كـمـن خـان ابـن عـفـان مـثـلـهـم
ولا مـثـل مـن يـعـطـى الـعـهـود ويـغـدر
ولـكـن تـبـغـي جـنـة أتـقـي بـهـا
لـعـل ذنـوبـي عـنـد ربـي تـغـفـر
شـهـدت رسـول الـلـه بـالجـو قـائـمـا
يـبـشـر بـالجـنـات والـنـار يـنـذر

وعروة بن أذينة الذي يقول: [(*231)]

ورثـنـا رسـول الـلـه ارث نـبـوة
ومـخـلاف مـلـك تـالـد غـيـر رائـم
وعـلـيـاء مـن بـيـت الـنـبـي تـكـنـفـت
مـنـاسـبـهـا حـومـات انـسـاب هـاشـم
ومـلـكـا خـضـمـا سـلّ بـالحـق سـيـفـه
عـلـى الـنـاس حـتـى حـاز نـقـش الـدراهـم
وقـام بـديـن الـلـه يـتـلـو كـتـابـه
عـلـى الـنـاس مـنـا مـرسـل جـدّ قـائـم

ومثل هذين النموذجين كثير عند بقية الشعراء[(*232)]

أما اللون الثاني من الألفاظ فهو المصطلحات الحضارية التي استدعتها الحياة الإسلامية الجديدة كالإمام والخليفة وأمير المؤمنين والجند والجباية. أو المصطلحات الشرعية كالفقه والقضاء والشريعة وغيرها.

من ذلك قول حنظلة الكاتب، مستخدما مصطلح (الخلافة) في فتنة عثمان: [(*233)]

عجبت لما يخوض الناس فيه

يرومون الخلافة أن تزولا

ومنه قول النعمان بن عدي في عصر عمر بن الخطاب، مستخدما مصطلح (أمير المؤمنين) [(*234)]

لعل أمير المؤمنين يسوؤه

تنادمنا في الجوسق المتهدّم

وقول أبي الأسود الدؤلي يرثى علي بن أبي طالب: [(*235)]

ألا يا عين ويحك أسعدينا

ألا تبكي أمير المؤمنينا

واستخدم كعب بن مالك مصطلح (الإمام) في رثاء عثمان فقال: [(*236)]

يا قاتل الله قوما كان أمرهم

قتل الإمام الزكي الطاهر الردن

وفعل ذلك حسان في رثاء عثمان أيضا فقال: [(*237)]

يا قاتل الله قوما كان شأنهم

قتل الإمام الأمين المسلم الفطن

وشاعت هذه المصطلحات وأمثالها في العصر الأموي بصورة اكثر بما شاعت في العصر الإسلامي، كقول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت: [(*238)]

فأما قولك الخلفاء منا

فهم منعوا وريدك من وداجي

وقول جرير: [(*239)]

إن الذي حرم المكارم تغلبا

جعل النبوة والخلافة فينا

وقوله، وفيه مصطلح (الأمير): [(*240)]

بكر الأمير لغربة وتنائي

فلقد نسيت برامتين عزائي

إن الأمير بذي طلوح لم يبل

صداع الفؤاد وزفرة الصعداء

وتتردد هذه المصطلحات كثيرا لدى معظم الشعراء الأمويين. [(*241)]

أما مصطلحات القضاء وافقه، فمنها ما ورد في شعر امرأة مسلمة شكت زوجها إلى القاضي كعب بن سور في عصر عمر فقالت: [(*242)]

يا أيها القاضي الفقيه أرشده

الهي خليلي عن فراشي مسجده

وما ورد في شعر عبد الله بن شرمه، حيث استعمل، مصطلح الاجتهاد والنظائر والقياس في قوله: [(*243)]

اقضي بما في كتاب الله مجتهدا

وبالنظائر اقضي والمقاييس

إذا قضيت بمر الحق مجتهدا

فلست اجهل أقوال الضغابيس

ومقابل هذه الألفاظ والمصطلحات الجديدة ثمة ألفاظ ومصطلحات لم يعد لها وجود في ظل الحياة الإسلامية الجديدة، وزالت بزوال معانيها كالمر باع والنشيطة والفضول، والصفايا والإتاوة والمكس والحلوان وضرورة. [(*244)]

إن هذه الألفاظ التي لم يعد لمعانيها وجود بعد الإسلام قد سقطت من معجم ألفاظ الشعراء، ومثلها كثير من التراكيب كقولهم(أبيت اللعن) و (أنعم صباحا) و (أنعم ظلاما) [(*245)]

وحاول معظم شعراء العصر الإسلامي والأموي تحرير أشعارهم مما كان يثقل الشعر الجاهلي من التعقيد والخشونة والصعوبة، ومالوا نحو السهولة والسلاسة والوضوح وقد ترسموا في ذلك منهج القرآن الذي تميزت ألفاظه بالرقة والسهولة والوضوح، مع الفصاحة والبلاغة.

يقول الجرجاني عن هذا التطور اللغوي الذي طرأ على لغة الشعر بعد الإسلام: [(*246)] «فلما ضرب الإسلام بجريانه، واتسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر، ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التأدب والتظرف، اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة فاختاروا أحسنها سمعا، وألطفها من القلوب موقعا، والى ما للعرب فيه من لغات، فاقتصروا على أسلسلها وأشرفها».

ومثل لذلك بلفظة (طويل) التي اختاروها من بين نحو ستين لفظة،

أكثرها بشع شنع، فنبذوا جميع ذلك وتركوه واكتفوا بالطويل، لخفته على اللسان، وقلة نبو السمع عنه.

المعاني:

لقد اخترع الإسلام معاني جديدة تناسب ما طرأ على الحياة العربية من تطور وتغيير في حياة الأفراد وفي حياة الجماعة، واختار لتلك المعاني ألفاظا للتعبير عنها، سواء في ديوان العقيدة والعبادة أو في جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والإدارية والاقتصادية.

وتفيض الأشعار بتلك المعاني الجديدة، ويصدر الشعراء عنها في كثير من آثارهم الشعرية. وتلقانا تلك المعاني في صور مختلفة لدى الشعراء. فبعض المعاني المتداولة بين الناس لم تعد لها تلك المعاني المعروفة بينهم، بل أصبحت تعني أشياء جديدة، أخذها الشعراء عن الإسلام.

فالحزم ليس هو المعنى المعروف بين الناس، ، بل اصبح معناه تقوى الله، تلك التقوى التي يفتقر إليها الفاجر، فهو غير حازم، كما يقول الفضل بن العباس: [*247]

والحزم تقوى الله فاتقه

ترشد، وليس لفاجر حزم

ولم يعد السعيد هو الغني، ولا السعادة هي المال بل السعيد هو التقي، وتقوى الله خير ما يملكه الإنسان ويدخره يقول الحطيئة: [*248]

ولست أرى السعادة جمع مال

ولكن التقي هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخرا

وعند الله للأتقى مزيد

وما لا بد أن يأتي قريب

ولكن الذي يمضي بعيد

والسعيد من ينجو من النار كما يقول مروه بن نوفل: [*249]

لقد علمت وخير العلم انفعه

أن السعيد الذي ينجو من النار

والشقي ليس هو من لا يملك المال ولا السعيد من يملكه، يقول صخر بن

حبناء: (250*)

ما شقوة المرء بالإقتار يقتره
ولا سعادته يوما بإكثار

والشقي أيضا من كانت النار منزله، والفائز من ينجو من النار. قال جرير: (251*)

إن الشقي الذي في النار منزله
والفوز فوز الذي ينجو من النار

والحظ ليس هو النجاح في الدنيا، أو اصطياد المكانة السامية فيها بل هو المنزلة التي يحصل عليها الإنسان في الآخرة، كما عبر عن ذلك عمرو القنا العنبري: (252*)

لا خير في الدنيا لمن لم يكن له
من الله في دار القرار نصيب

وكسب المال لون من الربح في هذه الدنيا، ولكن الأربح منه التقوى وعن هذا المعنى عبر تميم بن مقبل: (253*)

تقول: تربح يعمر المال أهله
كبيشة، والتقوى إلى الله أربح

والإنسان إذا خلا ونفسه لا يعني ذلك انه خال حقيقة، لان الله رقيب عليه يكون معه ويشاركه وحدته، وقد أشار إلى هذا المعنى الجديد الحسن بن عمرو الاباضي فقال: (254*)

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل
خلوت، ولكن قل: عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما يخفى عليه يغيب

إن هذه التفسيرات وتلك المعاني الجديدة التي طرأت على الألفاظ والمصطلحات التي كانت شائعة قبل الإسلام هي حصيلة التغييرات التي أحدثها الإسلام في نظرة الإنسان إلى الكون والى الحياة والى الأشياء من حوله.

وثمة معان جديدة، لم تعرف من قبل غيرت الأشعار في هذا العصر، كالتوكل على الله والإنابة إليه، والتوجه نحوه في السراء والضراء، حيث

يجد المؤمنون في ذلك الراحة النفسية والطمأنينة القلبية اللتين يفتقدهما غير المؤمنين بالله.

والى هذا المعنى الجديد أشار أبو الأسود الدؤلي في قوله: (*255)

إذا كنت معنيا بأمر تريده

فما للمضاء والتوكل من مثل

توكل وحمل أمرك الله إنما

تراد به آتيك فاقنع بذي الفضل

ولا تحسبن السير أقرب للردى

من الخفض في دار المقامة والثمل

ويظهر هذا المعنى بوضوح في قول كعب بن عميرة الخارجي، وكان قد اشترى فرسا وسلاحا ليحارب بهما إلا انه لم يكن يستغني بهما عن التوكل على الله، والاستعانة به حيث يقول: (*256)

هذا عتادي في الحروب وأنني

لآمل أن ألقى المنية صابرا

وبالله حولي واحتيالي وقوتي

إذا لقحت حرب تشيب ألحوادرا

وقال عبد الله بن حذف: (*257)

توكلنا على الرحمن إنا

وجدنا النصر للمتوكلينا

ويشيع معنى التوبة في الشعر الأموي أيضا، حيث يتناوله الفرز دق في شعره مع جملة من المعاني الإسلامية الجديدة فيقول: (*258)

ألا كل شيء في يد الله بالغ

له اجل عن يومه لا يحوّل

وان الذي يغترّ بالنصح ضائع

ولكن سينجي الله من يتوكل

ويقرن أبو كلدة بن عبيد اليشكري التوبة بالتقوى والعلم، فيقول: (*259)

سأركض في التقوى وفي العلم بعدما

ركضت إلى أمر الغوى المشهر

وبـــالــلــه حـــولــي واحـــتـــيـــالــي وقـــوتـــي
ومـــن عـــنـــده عـــرفـــي الـــكـــثـــيـــر ومـــنـــكـــري

كما تحدث الشعراء عن معنى التوحيد، ويتجلى هذا المعنى في غمرة صراعهم مع المشركين الذين لم يكونوا يؤمنون بعقيدة التوحيد وهو معنى لم يعالجه الشعراء من قبل، مع وجود بعض الموحدين من الأحناف قبل الإسلام، إلا إن ذلك لم يكن عقيدة شائعة يرددها الشعراء، في حين أنها أصبحت العقيدة الرئيسية التي يقوم عليها الدين الإسلامي الجديد، يقول حسان:(*260)

ونـــعـــلـــم أن الـــلـــه لا ربّ غـــيـــره
وأن كـــتـــاب الـــلـــه أصـــبـــح هـــاديـــا

ويقول كعب بن مالك مؤكدا هذا المعنى أيضا: (*261)

فـــلـــمـــا لـــقـــيـــنـــاهـــم وكـــل مـــجـــاهـــد
لأصـــحـــابـــه مـــســـتـــبـــســـل الـــنـــفـــس صـــابـــر

كما ظهر معنى التوحيد في حروب الردة أيضا، عندما اهتزت صورته لدى بعض المرتدين فقال جندب بن سلمى المدلجي (*262)

شـــهـــدت بـــان الـــلـــه لا شـــيء غـــيـــره
بـــنـــي مـــدلـــج فـــالـــلـــه ربـــي جـــارهـــا

وعندما ترتد أسد، وتتبع طليحة، يهب الشاعر حبيش الأسدي فيواجه طليحة بالتكذيب وينشده أبياتا في التوحيد والثبات على الإسلام، منها قوله: (*263)

شـــهـــدت بـــأن الـــلـــه لا رب غـــيـــره
طـــلـــيـــح وان الـــديـــن ديـــن مـــحـــمـــد

وشدا المجاهدون بهذا المعنى في فتحاتهم أيضا، كما مر بنا في باب «شعر الفتوحات الإسلامية». وحلت رابطة الدين الجديدة مكان رابطة النسب والقبيلة التي كانت تربط بين العرب قبل الإسلام، وهذه الرابطة معنى جديد، وصورة لم يألفها العرب من قبل.

وقد كان الشعراء يرددون هذا المعنى ويفخرون به على من سواهم، ونجده شائعا في النصوص الشعرية المبكرة، حيث تناول أبو احمد بن جحش هذا المعنى في شعره بعد هجرته وقومه إلى المدينة، وقبل اشتداد الصراع

الشعري بين المشركين في مكة، والمسلمين في المدينة حيث قال: (*264)

وكـنـا وأصـحـابـا لـنـا فـارقـوا الـهـدى
أعـانـوا عـلـيـنـا بـالـسـلاح وأجـلـبـوا
كـفـوجـين: أمـا مـنـهـمـا فـمـوفـق
عـلـى الحـق مـهـديّ وفـوج مـعـذب
طـغـوا وتمـنـوا كـذبـة وأزلـهـم
عـن الحـق إبـلـيـس فـخـابـوا وخـيـبـوا
ورعـنـا إلـى قـول الـنـبـي مـحـمـد
فـطـاب ولاة الحـق مـنـا وطـيـبـوا
نمـتْ بـأرحـام إلـيـهـم قـريـبـة
ولا قـرب بـالأرحـام إذ لا تـقـرب

إن ما ورد في البيت الأخير يعد من الإشارات الأولى لهذا المعنى الجديد، الذي تعمق اكثر ووضح بصورة أجلى في الأشعار التي نظمت فيما بعد. فمرداس بن أدية يجسد هذا المعنى في قوله: (*265)

مـن كـان مـن أهـل هـذا الـديـن كـان لـه
وديّ وشـاركـتـه فـي تـالـد المـال
الـلـه يـعـلـم أنـي لا احـبـهـم
إلا لـوجـهـك دون الـعـمّ والخـال

وحين ينادي المنادي، قوم النعمان بن بشير، بالأوس والخزرج، ينتفض النعمان مستنكرا هذه النسبة، ولا يجد لها تشريفا بعد أن انعم الله عليهم بنسب الأنصار، ويقول مخاطبا من نودي من قومه: (*266)

يـا سـعـد لا تجـب الـنـداء، فـمـا لـنـا
نـسـب نجـيـب لـه سـوى الأنـصـار
نـسـب تـخـيـرّه الإلـه لـقـومـنـا
أثـقـل بـه نـسـبـا عـلـى الـكـفـار

ويتعمق هذا المعنى عند شاعر الخوارج الذي يرفض كل نسب غي نسب الإسلام، فيقول عيسى بن عاتق الخطي: (*267)

أبـي الإسـلام لا أب لـي سـواه
إذا فـخـروا بـبـكـر أو تمـيـم

كـــلا الحـــيـــين يـــنـــصـــر مـــدّعـــيـــه
لـــيـــلـــحـــقـــه بـــذي الحـــســـب الـــصـــمـــيـــم
ومـــا حـــســـب ولـــو كـــرمـــت عـــروق
ولـــكـــنّ الـــتـــقـــي هـــو الـــكـــريم

وقد استطاع بعض الشعراء أن يتمثلوا معاني الإسلام، ويتشربا مفاهيمه الجديدة ويصيروها سلوكا عمليا وينجحوا في تجسيد تلك المعاني في آثارهم الشعرية، ويقرروا أبعادها في أقوالهم الخالدة.

وقد أوردنا في ثنايا الفصول السابقة نماذج رائعة لتلك المعاني والمفاهيم، التي يطرحها أولئك الشعراء الخالدون، من، مثل قصيدة حبيب بن عدي التي أنشدها قبل مفارقته الحياة صريعا بأيدي المشركين.

وأبيات شاعر الفتح الحاث بن ذبيح، التي أرسلها إلى أبيه الشيخ الذي جزعه فراق ابنه، وابتعاده عنه، البيات أمير بن الحمام، التي انشدها في طريقه لنيل شرف الشهادة في بدر. (*268)

وقول فروة بن عمرو الجذامي الذي كان عامل الروم على معان، فاسلم فطلبه الرومان، وحبسوه، ثم قتلوه فلما قدموه للقتل، قال: (*269)

بلغ سراة المسلمين بأنني
سلم لربي، أعظمي ومقامي

وهذا المعنى يدل على عمق إيمان ذلك الشاعر الشهيد، وعلى تمثله لمعاني الإسلام الحقيقية في الثبات على المبدأ والتضحية من اجله بكل غال ونفيس.

وحتى من عرف برقة الدين من الشعراء كسحيم عبد بني الحسحاس الذي قضى عمره في الغزل الماجن، فانه لا يكاد يخلو شعره من تلك المعاني الإسلامية، التي كانت تفيض من حول الشاعر في مجتمعه الإسلامي.

من ذلك قوله في قصيدة:

عـــمـــيـــرة ودّع أن تجـــهـــزت غـــازيـــا
كـــفـــى الـــشـــيـــب والإســـلام لـــلـــمـــرء نـــاهـــيـــا

ويقال: انه حين انشد هذا البيت قال له عمر بن الخطاب:
لو قلت شعرك مثل هذا لأعطيتك عليه (*270)
ومثل الحطيئة المعروف برقة دينه، حيث يقول: (*271)

خـــيــر ذخــر مــع الــيــقــين لــعــبــد
عــمــل صــالــح وقــول ســديــد

إن هذا المعنى الإسلامي الجديد ما كان ليصدر عن الخطيئة لولا شيوع مثله من المعاني الإسلامية في ذلك المجتمع الذي عاش في كنفه الحطيئة.

والأعراب معروفون بجفاء الطبع، ومع ذلك فقد هذب الإسلام كثيرا من طباعهم ورقق الوفير من أخلاقهم، وتجسد ذلك في معاني أشعارهم، التي حفظ روايتها التأريخ فتجاوزت الزمن والمسافات، وظلت حية يرددها الأحفاد، ومن ذلك صورة ومعاني الأعرابي الذي كان يحمل أمه في الطواف وهو ينشد:

إنــي لــهــا مــطــيــة لا أذعــر
إذا الــركــاب نــفــرت لا انــفــر
مــا حــمــلــت وأرضــعــتــنــي أكــثــر
الــلــه ربــي ذو الجــلال اكــبــر

ثم التفت إلى عبد الله بن عباس، فقال له: أتراني قضيت حقها؟ فقال ابن عباس: لا والله، ولا طلقة من طلقاتها.[*272]

وأخيرا فثمة شواهد من الأشعار التي قارن فيها الشعراء بين المعاني الجاهلية القديمة والمعاني الإسلامية الجديدة، كقول مازن بن العضوية.[*273]

وكــنــت امــرأ بــالــلــهــو والخــمــر مــولــعــا
شــبــابــي إلــى أن آذن الجــســم بــالــنــهــج
فــبــدّلــنــي بــالخــمــر خــوفــا وخــشــيــة
وبــالــعــهــر إحــصــانــا فــحــصــن لــي فــرجــي
فــأصــبــحــت هــمــي فــي الجــهــاد ونــيــتــي
فــلــلــه مــا صــومــي ولــلــه مــا حــجــي

ومرت بنا أبيات الشاعر المخضرم عدي الطائي التي يقارن فيها بين معاني الجاهليين، ومعاني الإسلام، عندما تحدثنا عن الشعراء الذين قيل إنهم هجروا الشعر بعد الإسلام.[*274]

ويعبر الشاعر الأموي زيد بن الحكيم عن هذه المقارنة في قوله:[*275]

شــريــت الــصــبــا والجــهــل بــالحــلــم والــتــقــى
وراجــعــت عــقــلــي، والحــلــيــم يــراجــع

حيث وضح في معرض فخره البون الشاسع بين ما كان عليه الجاهليون، وما اصبحوا فيه بعد الإسلام.

الحواشي

(*1) الأمالي 1/ 149.
(*2) النجم آية 43, 44.
(*3) شعر المتوكل 239.
(*4) الحج آية 27.
(*5) الزهرة 33 .
(*6) الفجر آية 2, 3.
(*7) الطبري 3/ 217.
(*8) المرسلات آية 1.
(*9) ديوان جرير 1 / 447.
(*10) شعراء أمويون 2/ 419.
(*11) ديوان مجنون ليلى 157.
(*12) ديوان الأخطل 310 و 301.
(*13) فتوح الشام 2/ 144.
(*14) وقعة صفين 576.
(*15) نسب قريش 362.
(*16) ديوان حميد 114.
(*17) الإصابة 2/ 523.
(*18) شعر النعمان 92.
(*19) الكامل في اللغة 4/ 87.
(*20) فتوح الشام 2/148.
(*21) الكامل 3/ 411.
(*22) شعر النمر بن تولب 46.
(*23) حاج: جمع حاجة، خلاج. اعتراض. الكوم. وأحدها كوماء، وهي الناقة العالية السنام. والجلاد: الصلاب الكبار.
(*24) الشعر والشعراء 1/ 356.
(*25) شعراء أمويون 173
(*26) سورة سبأ الآية 15 و 16.
(*27) شعر النابغة 134
(*28) القصص 79 و 76.
(*29) شعراء أمويون 2/ 524
(*30) بن هشام 1 / 331
(*31) سورة صه آية 97

(*32) شعر النابغة الجعدي 83

(*33) البقرة آية 132

(*34) ديوان حسان284.

(*35) ديوان حسان 197 والسقب: ولد الناقة.

(*36) الشعر آية 2 1 و 3 1

(*37) القمر آية 29

(*38) هود آية65

(*39) شعر النعمان 89

(*40) القلم آية 48- 50

(*41) ديوان الفرزدق 2/ 139

(*42) ديوان جرير 1/ 349

(*43) يوسف آية 92

(*44) شرح ديوان الأخطل 97

(*45) طه آية 20

(*46) شرح ديوان الأخطل 159

(*47) شعر النعمان 87

(*48) ديوان الفرزدق 2 / 213

(*49) القصص آية 40 وانظر سورة طه الآيات 77- 79.

(*50) البقرة آية 36 وانظر سورة طه الآيات 117- 123.

(*51) الديوان 21

(*52) الديوان 167

(*53) ابن هشام 2/ 424. صرم: بيوت مجتمعة. ومتهمين: ساكنين في التهام أي المنخفض من الأرض. والمنجد: المرتفع.

(*54) فتوح الشام 2 / 10

(*55) ديوان جرير 2/ 813

(*56) الهاشميات 24 والروضة المختارة 69

(*57) ديوان الفرزدق 2/ 332. وابن دخان: لقب باهلة

(*58) الطبري 6/ 611

(*59) شعراء أمويون 1/43

(*60) منهج الفن الإسلامي 209

(*61) ديوان حسان 388

(*62) سورة الأنفال. آية 48.

(*63) وقعة صفين 362

(*64) سورة الدهر. آية 18، 19.

(*65) شعر النعمان بن بشير 89

(*66) سورة الزمر. آية 23

(*67) سورة الغاشية. آية 6 وسورة يونس. آية 4

(*68) سورة الحج. آية 2.
(*69) شعر النعمان 98
(*70) سورة القصص. آية 71 وسورة الملك. 21.
(*71) سورة الفرقان. آية 53. وسورة إبراهيم. آية 34.
(*72) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات 95
(*73) سورة الحج. آية 25
(*74) ديوان حسان 377
(*75) سورة الرعد. آية 16
(*76) ديوان حسان 209
(*77) سورة الأحزاب. آية 56
(*78) الأذكياء 27.
(*79) سورة السجدة. آية 16
(*80) شعر النعمان 95.
(*81) سورة الأعراف. آية 172- 173.
(*82) ديوان جرير 2/743
(*82) سورة إبراهيم. آية 22.
(*84) ديوان الفرزدق 1/ 5 1 2
(*85) سورة الأنبياء. آية 7 0 1
(*86) ديوان كعب 246
(*87) سورة الأنفال. آية 60
(*88) ديوان ذو الرمة 297
(*89) سورة يا سين. آية 82
(*90) ديوان جرير 2/ 737
(*91) سورة التوبة. آية 60
(*92) الإصابة 1/ 335
(*93) سورة الزلزلة. آية 1.
(*94) ابن هشام 2/ 8
(*95) سورة الأنفال. آية 48
(*96) اللؤلؤ والمرجان 104
(*97) المقاصد الحسنة 29
(*98) الردة ورقة 28
(*99) الإصابة س/ 243
(*100) شعر النمر بن تولب 129
(*101) الجامع الصغير 2/9
(*102) بهجة المجالس 1/ 62
(*103) م. ن وانظر ابن هشام 1/ 461
(*104) آمالي القالي 2/ 24

(*105) صحيح الجامع الصغير 1/ 111 وسنن الترمذي 1997
(*106) ابن هشام 2/ 428
(*107) م. ن
(*108) الاستيعاب 2 / 29 .
(*109) اللؤلؤ والمرجان 666
(*110) ديوان حسان 223
(*111) صحيح الجامع الصغير 2/ 120
(*112) حماسة البحتري 198
(*113) الجامع الصغير 1/ 128
(*114) ديوان الشافعي 76- 235-
(*115) الجامع الصغير 2/ 60
(*116) آل عمران. آية 189 والأنعام. آية 57, 34
(*117) ديوان حسان 242
(*118) ابن هشام 2 / 296
(*119) شعر النعمان بن بشير85
(*120) ديوان جرير 1 / 94
(*121) سورة الرحمن. آية 26, 27
(*122) شعر النعمان 85
(*123) سورة الرعد. آية 38 ونوح. آية 4 والأعراف 34
(*124) معجم الشعراء345
(*125) الأغاني 6/ 229
(*126) ديوان الفرزدق 2/ 79
(*127) تهذيب ابن عساكر 7/ 422
(*128) سورة التغابن. آية 7 وسورة الفرقان. آية 4. والغاشية. آية 26. وإبراهيم. آية 51
(*129) ديوان علي 64
(*130) ديوان النابغة 16
(*131) شرح أشعار الهزليين 919
(*132) ابن هشام 2/ 502
(*133) ديوان النابغة الشيباني 16
(*134) سورة الزمر. آية 26, 37
(*135) ديوان جرير 2/ 743
(*136) مروج الذهب 3/ 93
(*137) حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة 382
(*138) ديوان حسان 118
(*139) م. ن 154
(*140) م. ن 302
(*141) انظر ديوان حسان 104, 155, 195, 217, 268, 269

(*142) ديوان كعب بن مالك 217

(*143) نفسه.

(*144) شعراء أمويون 3/ 55

(*145) ديوان أبي الأسود الدؤلي 175 (الدجيلي)

(*146) الطبري 6/ 84

(*147) ديوان حسان 104

(*148) ديوان حسان 111

(*149) ابن هشام 1/ 330

(*150) الأغاني 13 / 38

(*151) انظر اللؤلؤ والمرجان 3/ 843

(*152) سورة البقرة الآيات 8- 20- 75- 102 والمائدة الآيات 51- 66

(*153) ديوان حسان 76

(*154) الأخبار الطوال 162

(*155) الهاشميات ص 37

(*156) كل هذه الأسماء بطون وأحياء عربية. ومأرب. تام.

(*157) سورة الشورى. آية 23

(*158) سورة الأحزاب. آية 33.

(*159) سورة الأنفال. آية 41

(*160) مروج الذهب 3/ 33.

(*161) البيان والتبيين 1/ 42

(*162) الأغاني 13 / 95(دار الفكر بيروت)

(*163) البيان والتبيين 1/ 328

(*164) الطبري 7/ 100

(*165) ديوان حسان بن ثابت 205 وانظر 208 و 209.

(*166) م. ن 210.

(*167) م. ن 338

(*168) م. ن 339.

(*169) م. ن 242.

(*170) م. ن 139.

(*171) م.ن 143

(*172) الإصابة في تمييز الصحابة 2/ 352

(*173) ديوان كعب بن مالك 174

(*174) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات 91.

(*175) ديوان كعب بن مالك 219

(*176) الاستيعاب في معرفة الأصحاب 3/ 553

(*177) شعر النابغة 132

(*178) آل عمران. آية 27.

(*179) ديوان معن بن أوس المزني 45.
(*180) الإسراء. آية 24.
(*181) القصص.آية 18
(*182) الهاشميات 24
(*183) سورة محمد .آية 24
(*184) ديوان الفرزدق 2/155
(*185) العنكبوت آية 41
(*186)ديوان الفرزدق 1/ 294 الكسعى: شخص يضرب به المثل في الندامة. والضرار: العصيان والمخالفة
(*187) طه. آية 121- 123
(*188) ديوان ذي الرمة 6.
(*189) ديوان كعب بن مالك 266.
(*190) م. ن. 36
(*191) ابن هشام 2/ 463
(*192) شعر الخوارج 84.
(*193) العقد الفريد 3/ 169.
(*194) الأغاني (ساسي) 19 / 14
(*195) ديوان أيضا 1/ 275
(*196) ديوان الفرزدق 1/ 264
(*197) الأغاني 6/ 328
(*198) ديوان جرير 1/ 65 الجزي: جمع جزية. والأنفال: الغنائم
(*199) الصاحبي في فقه اللغة 78.
(*200) ديوان حسان بن ثابت 308
(*201) ديوان حسان 223
(*202) ديوان كعب بن مالك 203
(*203) ديوان حسان 284
(*204) م. ن 238
(*205) م. ن 276
(*206) مروج الذهب 2/ 275
(*207) ديوان كعب بن مالك 203
(*208) ديوان كعب بن مالك 201
(*209) الاستيعاب 3/ 521
(*210) ابن هشام 2/ 462
(*211) أسد الغابة 2/ 156
(*212) م. ن 3/157
(*213) ديوان حسان 221
(*214) الإصابة 3/ 205

(*215) تاريخ الطبري 3/ 305
(*216) الإصابة 3/ 24
(*217) انظر مثلا «شعر الخوارج» 33, 35, 39.
(*218) ديوان حسان 279
(*219) طبقات ابن سعد 2/ 320
(*220) ديوان حسان 220
(*221) شعر أبي زيد الطائي 64
(*222) الإصابة 3/ 89
(*223) م. ن 3/112
(*224) ديوان حميد بن ثور 78
(*225) الإصابة 1/108
(*226) ديوان حسان 143
(*227) ديوان جرير 1/ 95
(*228) ديوان الفرزدق 24/1
(*229) معجم الشعراء 301
(*230) عروة بن أذينه 75
(*231) انظر مثلا شعر عبد الرحمن بن حسان 14 و 18 و 20 و 41، وشعر عبد الله بن الحر «شعراء أمويون» 1/ 95 و115، وشعر العديل بن الفرخ (شعراء أمويون) 1 / 304 و 318
(*232) تاريخ الطبري 4/ 286
(*233) مناقب عمر115
(*234) ديوان أبي الأسود الدؤلي 32
(*235) ديوان كعب 282
(*236) ديوان حسان 213
(*237) شعر عبد الرحمن بن حسان 18
(*238) ديوان جرير 1/ 387
(*239) م. ن 2 / 739
(*240) انظر ديوان جرير 1 / 317 و335 وديوان الراعي النميري 54 فتوح البلدان 473
(*241 الاستيعاب 2 / 256
(*242) أخبار القضاة 3/ 97 والضغابيس وأحدها ضغبوس، وهو الضعيف.
(*243) المرباع: ربع الغنيمة كاد الرئيس يأخذه في الجاهلية.
النشيطة: ما أصابه الجيش في طريقه قبل الغارة
الفضول: ما فضل فلم ينقسم
الصفايا: ما كان يصطفيه الرئيس لنفسه من خيار الغنيمة
الإتاوة: الخراج
المكس: الجباية أو ما يأخذه العشار
الحلوان: ما تهبه لإنسان على شيء يفعله غير الأجرة، أو ما يأخذ الرجل من مهر ابنته. صرورة: الذي يدع النساء تبتلا

(*244) انظر الصاحبي في فقه اللغة 90
(*245) الوساطة بين المتنبي و خصومه 18
(*246) حماسة البحتري 161
(*247) ديوان الخطيئة 393
(*248) شعرا لخوارج 5
(*249) الكامل في الأدب 1/105
(*250) ديوان جرير 2/ 1029
(*251) شعر الخوارج 38
(*252) حماسة البحتري250
(*253) شعر الخوارج 91
(*254) ديوان أبي الأسود الدؤلي 119 والثمل والمكث والخفض
(*255) شعر الخوارج 5. والحوادر: جمع حادر، وهو الغلام الممتلئ شبابا.
(*256) البداية والنهاية 6/ 327
(*257) ديوان الفرز دق 2/ 79. يغتر بالله: أي يغتر بحلم الله
(*258) الأغاني 10/119
(*259) ديوان حسان 141
(*260) ديوان كعب بن مالك 200
(*261) الطبري 3/ 319
(*262) الإصابة 1/ 373
(*263) ابن هشام 1/ 473
(*264) شعر الخوارج 10
(*265) شعر النعمان بن بشير 147
(*266) شعر الخوارج 13
(*267) الإصابة 3/ 13
(*268) ابن هشام 2/ 592
(*269) الديوان 16 وانظر الأغاني (ساس)20/ 2
(*270) ديوان الخطيئة 393
(*271) المحاسن والمساوئ 551
(*272) الاستيعاب 3/ 447
(*273) المرزباني 85
(*274) تاريخ الإسلام 4/ 69

الخاتمه

وبعد: فهذا عرض سريع حاولت فيه أن أتتبع المواقف المبدئية للإسلام تجاه الشعر والشعراء، في فترة زمنية محددة بصدر الإسلام والعصر الأموي، حيث نشأ الشعراء الرواد وتكاملت شاعريتهم، واستطاعوا أن يتمثلوا الإسلام عقيدة وفكرا وسلوكا.

وحاولت تلمس اثر الإسلام في اشعار تلك الفترة في موضوعاته وأسلوبه، ومفرداته ومعانيه، فانتظمت هذه الدراسة في تمهيد وثلاثة أبواب:

كان التمهيد للحديث عن مكانة الشعر قبل الإسلام، ولتبيان اثر الشعر في الحياة العربية، وعدم استطاعة العربي الاستغناء عنه.

أما الباب الأول: فتحدثت فيه عن دعوى ضعف الشعر الإسلامي، وعرضت آراء مؤرخي الأدب العربي، القدامى والمحدثين في هذه الدعوى، وخلصت إلى تفنيد تلك المقولة والى القول بخطلها.

وتناولت الصراع الشعري بين مكة والمدينة في عصر الرسالة، وكيف اتخذ الفريقان المتصارعان الشعر سلاحا ماضيا شهروه إلى جانب أسلحة الحرب الأخرى. وقد اسهم فيه إلى جانب المشركين شعراء اليهود والقبائل العربية، ولم تتخلف المرأة من كلا الجانبين عن المساهمة في تلك المعارك الكلامية.

وطبيعي أن أتحدث في هذا الباب عن القرآن والشعر، حيث ورد لفظ الشعر والشعراء في خمسة

مواضع، كلها جاءت للتفريق بين أسلوب الوحي وأسلوب الشعر، وحكاية ما حاول المشركون أن يلصقوه برسول الله من اتهامات باطلة. وفي موضع واحد فقط جاءت اللفظة لمعالجة موقف الإسلام من الشعر، من حيث هو فن يمكن أن يستخدم في مواطن الخير أو الشر، فصنف الشعراء إلى فريقين، وهو لم يهاجم الشعر من حيث هو شعر، بل هاجم منهجا وأسلوبا سلكه بعض الشعراء.

أما موقف الرسولﷺ من الشعر فكان امتدادا لموقف القران ومجسدا لأحكامه، وقد حاولت عرض كل ما وصل إلينا من أحاديث الرسول في الشعر والشعراء. وقضية تعذر إنشاد الرسولﷺ الشعر أو نظمه انطلاقا من قوله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له).

ومع ذلك فقد أباح الرسول نظمه واستمع إلى الشعراء ينشدونه وأثاب عليه. وشفع ذوي الحاجات فيه، وثمن دوره في المعركة ووقت السلم ، إلا أنه نهى عن رواية إشعار بعينها، منها قصيدة أمية بن أبي الصلت في رثاء قتلى قريش يوم بدر، وقصيدة الأعشى في هجاء علقمة بن علاثة.

أما الشعراء الذين أهدر رسول الله دماءهم فكانوا ممن حاربوا الإسلام بألسنتهم وأسلحتهم ، وهم أحد عشر شاعرا، نفذ الحكم في سبعة منهم ، ولم ينفذه في أربعة لهرب بعضهم وتوبة البعض الآخر.

ثم تناولت الأغراض الشعرية في ظل الإسلام، حيث كانت ثلاثة أصناف، الصنف الأول هو الأغراض التي هجرها المسلمون لأنها لم تناسب حياتهم الإسلامية الجديدة، كالغزل الصريح والخمريات، وطوروا الصنف الثاني بما يناسب التعاليم الدينية والمثل الجديدة كالفخر والرثاء والهجاء والمديح، وابتكروا الصنف الثالث، حيث نظموا في أغراض جديدة كالشعر الديني والسياسي، وشعر الوعظ والإرشاد والزهد والفتوحات الإسلامية، وهي إضافات جديدة إلى أغراض الشعر العربي.

وكان لا بدّ لي أن أتحدث عن الخصائص الفنية واثر الإسلام فيها، وما ابتكر الشعراء من أساليب القسم والدعاء والقصص الديني وتكرار الألفاظ والتراكيب لتقرير المعاني وتأكيدها.

وقد توارد الشعراء على الاقتباس من القرآن والحديث النبوي، حيث وجدوا فيهما ينبوعا ثرا لإغناء صورهم وأخيلتهم ، وألفاظهم وتراكيبهما

ومعانيهم.

وأخيرا فلست أزعم أني قد أتيت بالجديد الخارق في هذا الكتاب فكل ما فيه من جديد إنما هو تقصي النماذج، وتلمس اثر الإسلام في أشعار صدر الإسلام والعصر الأموي، للوصول إلى البرهنة على خطا الرأي القائل بمعاداة الإسلام الشعر والشعراء.

وأرجو أن أكون قد وفقت إلى ذلك، ومن الله العون والسداد...

المصادر والمراجع

1- الإجابة لإيراد ما استدرجته عائشة على الصحابة-بدر الدين الزركشي. تحقيق سعيد الأفغاني. مطبعة الهاشمي بدمشق 1939.

2- أخبار أبى القاسم ا الزجاجي-عبد الرحمن الزجاجي. تحقيق د. عبد الحسين المبارك. دار الرشيد. بغداد 1980.

3- الأخبار الطوال-ابن حنيفة الدينصوري. تحقيق عبد المنعم عامر. مكتبة النهضة المصرية.

4- أخبار القضاة-القاضي وكبيع. مطبعة الاستقامة بمصر 1947.

5- الأخبار الموفيات-الزير بن بكار-تحقيق د. سامي العاني. مطبعة العاني. بغداد 197

6- الأدب في موكب الحضارة الإسلامية. د. مصطفى الشكعة. دار الكتاب اللبناني. بيروت ط 19742.

7- الأدب المفرد. الإمام البخاري. طشقند. م. أفسيت 1970.

8- أسباب النزول-جلال الدين السيوطي. على هامش تفسير الجلابين. طبعة مكتبة الفلاح. دمشق.

9- الاستيعاب في معرفة الأصحاب-ابن عبد البر القرطبي. المطبعة الشرقية. مصر.

10- الإصابة في تمييز الصحابة. المطبعة الشرقية. مصر.

11- الأغاني. أبو الفرج الأصفهاني. طبعة ساسي بالقاهرة. وطبعة دار الكتب المصرية. والثقافة. بيروت.

12- الأمالي-أبو علي القالي. دار الكتب المصرية. القاهرة

192613- امتناع الأسماع-تقي الدين المقريزي. تصحيح احمد محمد شاكر. القاهرة 1941.

14- أنساب الأشراف-البلاذري. تحقيق د. عبد العزيز الدوري. بيروت.

15- البداية والنهاية-ابن كثير. مكتبة المعارف. بيروت 1966.

16- البرصان والعرجان-الجاحظ. تحقيق محمد مرسي الخولي. القاهرة 1972.-

17- بهجة المجالس-ابن عبد البرالقرطبي. تحقيق محمد مرسي الخولي القاهرة 1967.

18- البيان والتبيين-الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. مصر 1948.

19- تاريخ الآداب العربية في الجاهلية حتى عصر أمية. كارل نالينو. ط 2. دار المعارف. مصر.

20- تاريخ الأدب العربي. د. عمر فروخ. دار العلم للملايين. بيروت 1969.

21- تاريخ الإسلام. شمس الدين الذهبي. مطبعة السعادة. مصر 1967.

22- تاريخ دمشق. تأليف ابن عساكر. تهذيب عبد القادر بدران دمشق 1329 هـ.

23- تاريخ الرسل والملوك-ابن جرير الطبري. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف-القاهرة.

24- تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري. د نجيب البهبيتي. دار الكتب.

25- تاريخ العرب الأدبي. نيكلسون. ترجمة د. صفاء خلوصي. مطبعة المعارف. بغداد 1969.

26- تأويل مشكل القرآن-ابن قتيبة. تحقيق سيد صقر. القاهرة.

27- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام. د. شكري فيصل. مطبعة جامعة دمشق 1964.
28- تفسير القرآن العظيم. ابن كثير القرشي. البابي الحلبي. ا لقاهرة.
29- التفسير الكبير-فخر الدين الرازي. القاهرة.
30- الجامع لأحكام القرآن (تفسير) القرطبي. دار الكتب المصرية. القاهرة.
31جمهرة أشعار العرب-أبو زيد القرشي. دار صادر. بيروت 1963.
32- الحب العذري نشأته وتطوره. احمد عبد الستار الجواري. دار الكتاب العربي. مصر 1948.
33- الحب المثالي عند العرب-د. يوسف خليف. سلسلة اقرأ بالقاهرة رقم (220).
34- الحب في التراث العربي-د محمد حسن عبد الله. سلسلة عالم المعرفة بالكويت رقم (36).
35- حديث الأربعاء-د. طه حسين. دار المعارف. القاهرة 1953.
36حسان بن ثابت-محمد إبراهيم جمعة. دار المعارف. مصر
1965 37- حسان بن ثابت-د. محمد طاهر درويش. دار المعارف. مصر.
38- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء-أبو نعيم الأصفهاني-مطبعة السعادة القاهرة 1932.
39- الحماسة-البحتري. تحقيق لويس شيخو. المطبعة الكاثوليكية بيروت 1910.
40- الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام. د. محمد عبد المنعم خفاجي. دار الكتاب اللبناني. بيروت.
41- حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة-د. يوسف خليف. دار الكتاب العربي. القاهرة. 1968.
42- الحيوان-الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة.
43- خاص الخاص. عبد الملك الثعالبي. القاهرة 1908.
44- خزانة الأدب-البغدادي. مطبعة بولاق. القاهرة.
45- دراسات في الأدب الإسلامي. د. سامي مكي العاني. المكتب الإسلامي. دمشق-1975, 46- ديوان أبى الأسود الدؤلي. تحقيق محمد حسن آل ياسين. مطبعة المعارف. بغداد.
47- ديوان أبي تمام. شرح التبريزي. باعتناء. د. عبده عزام. القاهرة. 1951.
48- ديوان جرير-تحقيق د. نعمان أمين طه. دار المعارف. مصر 1971.
49- ديوان جميل-جمع وتحقيق د.حسين نصار. مكتب مصر. القاهرة.
50- ديوان حسان بن ثابت. تحقيق د. سيد حنفي حسين. القاهرة 1974.
51- ديوان الخطيئة. تحقيق د. نعمان أمين طه. القاهرة. 1958.
52- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري باعتناء عبد الرحمن البرقوقي. مطبعة السعادة. مصر.
53- ديوان حميد بن ثور الهلالي. تحقيق الميمني. دار الكتب المصرية.
54- ديوان ذي الرمة-ط 2. المكتب الإسلامي. بيروت 1964.
55- ديوان الشافعي-جمعه وعلق عليه محمد عفيف الزغبي. دار الجيل. بيروت-1974.
56- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات تحقيق وشرح. د. محمد يوسف نجم. دار حيادر. بيروت 1958. وديوانه تحقيق د. إبراهيم عبد الرحمن القاهرة.
57- ديوان العجاج-تحقيق د. عزة حسن. بيروت 1971.
58- ديوان علي بن أبي طالب-المطبعة الأهلية. بيروت 1927.
59- ديوان الفرز دق-دار صادر-بيروت 1966.
60- ديوان كثير عزة-جمعه وشرحه د. إحسان عباس-دار الثقافة بيروت 1971.

61- ديوان كعب بن مالك الأنصاري-جمع وتحقيق. سامي مكي العاني-مطبعة المعارف. بغداد 1965.

62- ديوان مجنون ليلى-جمع وتحقيق ونشر-عبدا لستار احمد فراج. دار مصر للطباعة القاهرة.

63- ربيع الأبرار-الزمخشري. مخطوطة الأوقاف العامة ببغداد. وتحقيق د. سليم النعيمي. مطبعة العاني بغداد 1977.

64- الرثاء-د. شوقي ضيف. فنون الشعر. دار المعارف. مصر.

65- الردة-المنسوب للواقدي. مخطوطة مكتبة خدا بخش في الهند.

66- الروض الأنف في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام-عبد الرحمن السهيلي. القاهرة 1914.

67- الزهرة أبو بكر المعروف بابن داود الأصفهاني. النصف الأول من الكتاب. مطبعة الأباء اليسوعيين بيروت 1932. والنصف الثاني تحقيق د. القيسي والسامرائي بغداد1975.

68- الزينة في الكلمات الإسلامية العربية-أبو حاتم الرازي تحقيق حسين بن فيض الله ألهاني. القاهرة 1957.

69- السراج المنير-العزيزي. البابي الحلبي-القاهرة 1957.

70- سنن الترمذي-الترمذي. تحقيق إبراهيم عطوة. البابي الحلبي القاهرة.

71- سير أعلام النبلاء-شمس الدين الذهبي-دار المعارف. مصر.

72- السيرة النبوية. ابن هشام. شرحها السقا والاباري والشلبي ط 2 البابي الحلبي 1955.

73- شرح أدب الكاتب-أبو منصور الجواليقي مطبعة القدسي. القاهرة.

74- شرح أشعار الهزليين-برواية السكري. تحقيق عبد الستار فراج. مكتبة دار العروبة مصر.

75- شرح بانت سعاد-قصيدة الصحابي كعب بن زهير-عبد اللطيف البغدادي. تحقيق هلال ناجي. مكتبة الفلاح-الكويت 1981.

76- شرح ديوان الأخطل التغلبي-حققه وكتب مقدمته وشرح معانيه ايليا سليم حاوي. دار الثقافة بيروت.

77- شرح ديوان كعب بن زهير-السكري الدار القومية بمصر

78- شرح شواهد المغنى-السيوطي. الخانجي. مصر.

79- شرح القصائد السبع الطوال-ابن الانباري. تحقيق عبد السلام هارون. دار المعارف بمصر 1963.

80-شعر الاحوص. جمع وتحقيق عادل سليمان. الهيئة المصرية للكتاب القاهرة 1970.

81- شرح نهج البلاغة-ابن أبي الحديد. دار الفكر. بيروت 1956

82- شعراء أمويون د. نوري حمودي القيسي. مؤسسة دار الكتب جامعة الموصل. العراق 1976.

83- شعر الراعي النميري. تحقيق د. نوري القيسي وهلال ناجي. مطبوعات المجمع العلمي العراقي 1980.

84- شعر عبد الرحمن بن حسان بن ثابت. جمع وتحقيق. د. سامي مكي العاني. مطبعة المعارف بغداد 1971.

85- شعر قيس بن ذريح. تحقيق د. حسين نصار. دار مصر للطباعة.

86- شعر المتوكل الليثي. تحقيق د. يحيى الجبوري. بيروت

87- شعر النابغة الجعدي-المكتب الإسلامي. دمشق 1964.

88- شعر النعمان بن بشير الأنصاري. حققه وقدم له. د. يحمى الجبوري مطبعة المعارف بغداد.
89- شعر النمر بن تولب-حققه د. نوري حمودي القيسي. مطبعة المعارف. بغداد.
90-شعر يزيد بن الطثرية-صنعة حاتم الضامن. مطبعة اسعد بغداد 1973.
91- شعر هدبة بن الخشرم العذري. جمعه وحققه. د. يحيى الجبوري وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق 1976.
92- الشعر والشعراء-ابن قتيبة تحقيق. احمد محمد شاكر. مصر 1966.
93- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية. احمد بن فارس. تحقيق مصطفى الشويمي. مؤسسة بدران للطباعة والنشر. بيروت 1963.
94- الصبح المنير في شعر أبي بعير(ديوان الأعشى) مطبعة ادلف هلزهوسن. بيانه 1927.
95- صحيح الجامع الصغير للسيوطي-الألباني. منشورات المكتب الإسلامي. بيروت.
96- الصناعتين-أبو هلال العسكري. الأستانة 1320 هـ.
97- طبقات الشافعية-السبكي. المطبعة الحسينية. مصر.
98- طبقات الشعراء-ابن سلام الجمحي. تحقيق محمود محمد شاكر. مطبعة المدني. القاهرة 1974, 99- الطبقات الكبرى-ابن سعد. طبع ليدن 1321 هـ.
100-العصر الإسلامي-د. شوقي ضيف. دار المعارف بمصر 1963.
101- العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة 1956, 102- العمدة في صناعة الشعر ونقده-ابن رشيق القيرواني. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة ط 2- 1955.
103- عيون الأخبار-ابن قتيبة-دار الكتب المصرية 1925.
104- فتوح البلدان-البلاذري. تحقيق د. صلاح الدين المنجد. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.
105- فتوح الشام-الواقدي-البابي الحلبي. مصرط 3- 1954.
106- الفتوحات الإسلامية-ابن زيني دحلان. المطبعة الشرقية بمصر 1323.
107- الفهرست-ابن النديم . مطبعة الرحمانية. القاهرة.
108- في الشعر الإسلامي والأموي د. عبد القادر القط. دار النهضة القومية. بيروت 1976.
109- في ظلال القرآن-سيد قطب. دار الثقافة بيروت.
110- قيس ولبنى-جمع وتحقيق د. حسين نصار. مكتبة مصر. القاهرة.
111- قيم جديدة للأدب العربي. د. بنت الشاطئ. دار المعرفة
112- الكامل في التاريخ-ابن الأثير. دار بيروت للطباعة والنشر.
113- كتاب الأذكياء-أبو الفرج ابن الجوزي-منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت 1980.
114- كتاب التوابين-ابن قدامة المقدسي. تحقيق عبد القادر الارناؤوط. دار البيان ط 2- 1389.
115- كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس-العجلوني الجراحي دار أحياء التراث العربي بيروت 1351 هـ.
116- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال-المتقى الهندي. مكتبة التراث الإسلامي. حلب.
117- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان. جمع محمد فؤاد عبد الباقي. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية. الكويت 1977.
118- ليلى والمجنون في الأدبيين العربي والفارسي. د. محمد غنيمي هلال. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة.

119- المحاسن والمساوئ-البيهقي. دار صادر بيروت 1960.
120- المدائح النبوية في الأدب العربي-د. زكي مبارك. دار الكتاب العربي. القاهرة 1967.
121- مروج الذهب ومعادن الجوهر-المسعودي-مطبعة البابي الحلبي. القاهرة 1955.
122- المزهر في علوم اللغة وأنواعها-جلال الدين السيوطي. تحقيق جاد المولى وآخرين. البابي الحلبي. القاهرة.
123- مسند احمد-الإمام احمد بن حنبل. القاهرة 1323.
124- معجم البلدان-ياقوت الحموي-دار صادر. بيروت 1957.
125- معجم الشعراء-المرزباني-تحقيق عبد الستار احمد فراج البابي الحلبي. مصر. 1960.
126- المفصل في تاريخ العربي د. جواد علي. دار العلم للملايين بيروت 1972.
127- مقاتل الطاليين-أبو الفرج الأصفهاني. المكتبة الحيدرية النجف. ط 2- 1965 والحلبي. القاهرة 1949.
128- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث-المشتهرة على الألسنة-السخاوي. صححه عبد الله الصديق. مكتبة الخانجي القاهرة 1956.
129- مقدمة ابن خلدون-عبد الرحمن بن خلدون. دار الشعب. مصر.
130- الممتع في علم الشعر وعمله-عبد الكريم النهشلي. تحقيق د. المنجي الكعبي. الدار العربية للكتاب. تونس.
131- مناقب عمر بن الخطاب. ابن الجوزي. تحقيق. د. زينب إبراهيم القاروط. دار الكتب العلمية. بيروت 1980.
132- منهج الفن الإسلامي. محمد قطب. دار القلم. القاهرة.
133- الموشح في اخذ العلماء على الشعراء-المرزباني. القاهرة 1343 ه.
134- نسب قريش-مصعب الزبيري. تحقيق بروفنال. مصر 1953.
135- نكت الهميان في نكت العميان. الصلاح الصفدي. مصر 1911.
136- الهاشميات-الكميت الأسدي. تحقيق جوزيف هورفتس إبريل-1954.
137- الهجاء والهجاءون د. محمد محمد حسين. القاهرة.
138- الوساطة بين المتنبي وخصومه-القاضي الجرجاني. تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم والبجاوي. البابي الحلبي. القاهرة 1966.
139- وفيات الأعيان-ابن خلكان. تحقيق د. إحسان عباس-دار الثقافة. بيروت.
140- وقعة صفين-نمر بن مزاحم. تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ط 1- 1365 هـ.

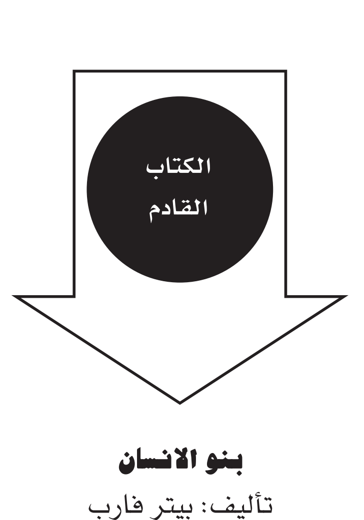
المؤلف في سطور:

د. سامي مكي العاني

* تخرج في جامعة بغداد قسم اللغة العربية عام 1956.
* حصل على درجة الدكتوراه في الأدب العربي عام 1968 من جامعة القاهرة.
* يعمل حاليا أستاذا للأدب الإسلامي في جامعة المستنصرية ببغداد ومعار التدريس بجامعة الكويت.

النشاط العلمي:

* عمل في عدة مجلات متخصصة كما أشرف على الدراسات العليا في تحقيق المخطوطات بالجامعة المستنصرية.
* قام بتحقيق اثنى عشر كتابا.
* ألف عدة كتب كما نشر أبحاثا ومقالات في المجلات المتخصصة.



بنو الانسان

تأليف: بيتر فارب

ترجمة: زهير الكرمي